فهد المبارك



الجزء الاول

الطبعة الثانية

١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء ..

الى العربي الذي يشعر ان لا كرامة له ما دامت اسرائيل الظالمة مستقرة في وطننا العربي ، غاصبة لأرضنا غير مبالية بنقمتنا .

.. الى العربي الذي يدرك أن اسرائيل لم يكتب لها الاستقرار إلا على نهر من دماء شهدائنا .

.. الى العربي الذي يحس ويقلق حينما يعلم انه لم يتم لأسرائيل مجد الا بهدم مجد أمته العربية ، ولا تحيا إلا بقتل شممنا وعزتنا .

.. الى العربي الذي يعي أن عصابة اسرائيل الملفقة من مشردي العالم لم يقم لها كيان لو لم نفترق ..

الى العربي الذي يعقل ان اسرائيل الباغية سوف لا تعيش في أرضنا يوماً من الدهر عندما ننسى أحقادنا، و نتنازل عن أنانيتنا في سبيل وحدتنا العربية الشاملة

الى كل عربي يقدر هذه المعاني ، ويضحي بكل ما لديه من طاقة في سبيل توحيد أمته العربية

أقدم هذه الشيم العربية الخالدة .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

كان إقبال القراء على الجزء الاول من (شيم العرب) ونفاده بسرعـة مذهلة ، ومطالبة الكثير من المواطنين بإبراز الجزء الثاني الى حيز الوجود حافزا يحدوني لا الى تلبية رغبـة المواطنـين فحسب ، بل والى تفاؤلي خيراً بأن هــذا الجيل العربي الناشيء كان ولم يزل يؤمن بقيم اسلافه الأشاوس وكان الأجدر بي أن ألبي طلبات الراغبين بل الملحين بإعادة الجزء الاول وانجاز الجزء الثاني ، لو لا وجود بعض الاسباب التي حالت دون الاستجابة الى مايطالبنا به المواطنون .

ولا يسعني أن أشرح جميـع الاسباب التي منها ما هو مادي ومنها ما هــو معنوي ، وانما اكتفي بالاشارة الى بعض منها فأقـول : لما كان الاستقرار عاملا رئيسيا لا في الانتاج الفكري فحسب بل في كل معنى من المعـاني بصورة أشمل واعم . فإن عملي كموظف في السلك السياسي تارة في دمشق ، واحيانا في جدة ، وبرهة في صنعاء ، وطورا في ليبية ، وحاليا في تركية ، كل هذه الرحلات الـتي لم يكتب لي الاستقرار في بعضها أكثر من شهر واحد كصنعاء مثـلا ، كانت من ضمن العوامل التي اضطرتني الى عدم الاستجابة الى موافاة القراء برغبتهم الصادقة .

وجوابي على من يقول : ولماذا لا تستنجد بمروءة احد الاصدقـاء من الادباء ليتولى الاشراف على اعادة طبع الجزء الاول والقيام بطبع الجزء الثاني البكر ؟؟ جوابي على ذلك يتلخص فيما يلي :

اولاً — أنه بالامكان أن أجد أديبا ملما بالادب العربي لكي يتولي الاشراف على طبع وتصحيح أي كتاب من الكتب العربية ما عـدا الكتاب الذي من نوع كتابنا هذا (من شيم العرب) .

ذلك ان كتابا كهذا لايكفي ان يتولى الاشراف على طبعه أديب ملم بقواعد اللغة العربية فقط ، وانما ينبغي ان يكون هذا الاديب ملما كل الالمــام بالادب الشعبي في الجزيرة العربية ، وعالما بأوزان الشعر العامي (النبط) خبـيرا بقوافيه بصيرا بألفاظه ، متذوقا لمعانيه ، والاديب الذي يجمع بين العلم بالادب العربي بلغته

العربية الفصحى ، وبين الفهم لادبنا الشعبي بشتى الفاظه ومختلف اوزانه وقوافيه ليس من السهل الحصول عليه .

وقد أجد في شبه الجزيرة من يجمع بين هذا وذاك ، ولكنني لم اجد في البلاد التي اود أن أطبع مؤلفي فيها من تتوفر فيه هاتان الصفتان ، بحكم ان الطبع في الجزيرة قد يكلف الضعفين عن تكاليفه في بلد كدمشق او كلبنان ، يضاف الى ذلك ان وسائل التوزيع والنشر قد تكون متيسرة ومهيأة في هذين البلدين وخاصة في الاخير منها أكثر من أي بلد عربي

وفي الحين الذي كنت في حيرة من أمري بصدد طبع هذا الكتاب هناك تبادر لذهني الاستاذ حمد الجاسر المقيم في بيروت ، فقلت انه من أقدر من يوكل اليه القيام بمثل هذا العمل ، وكانت صدفة مباركة عندما اجتمعت به في بيروت ، وأوضحت له ما في نفسي ، وقبل ان انتهي من حديثي قاطعني قائلاً : هات كل ماعندك من مؤلفات خطية ، ولا يكن لك هم في أمرها وعندما وجدت لدى الاستاذ هذه المروءة ازددت طمعاً فقلت ان لدي كتاب مخطوطا جاهزا بعنوان (تاريخ جيل في حياة رجل) وهذا وان كان يعبر عن تاريخ جيل من شتى النواحي الاجتماعية والسياسية والادبية فهو في الوقت ذاته طافح بالعبارات الادبية باللغة الشعبية ، الامر الذي يجعل صعوبة الاشراف على طبعه على المرء الغريب عن معرفة الادب الشعبي في شبه الجزيرة اعظم من صعوبة الإشراف على طبع كلا الجزئين من شيم العرب ، فكان جواب الأستاذ حمد تأكيدا لعبارته الأولى (هات كل ماعندك ولا يكن لك هم في امرها) [1] قلت لقد انفرجت وللاستاذ حمد مني عظيم الشكر اذ لو لا مروءته لظلت مؤلفاتي في اضباراتها الى أن تتاح لي الفرصة التي استقر بها وتلك ظاهرة قد لا تتاح لي بسهولة مادمت موظفا في السلك السياسي الذي لا يستقر موظفوه في مكان ما .

---

(١) طلب الاستاذ حمد مني بأن لا اذكر اسمه هنا – بل ألح علي بشدة . معتبراً إن ما قام به ليس الا خدمة للادب ولما كنت كمؤرخ يكتب عن « شيم العرب » ، فقد وجدت قيام الاستاذ حمد الجاسر بهذا العمل جزء « من شيم العرب » التي ارى أن امانة التاريخ والنقل يفرضان علي ان اسجلها كشيم من ذاتها سواء أرضي اهلها عن نشرها ام لم يرضوا.

والذي أسترعى انتباه القاريء اليه وارجوه المعذرة فيما اذا وجد في الجزء الثاني اسلوبا لم يتطور عن اسلوب الجزء الاول ، وذلك انني كتبت كلا الجزئين في وقت واحد ، والحقيقة انني عندما أعدت النظر في مراجعة الجزء الثاني وجدت فيه من العبارات التي حذفت بعضا منها ، بل وددت ان لدي من الوقت الكافي ما يمكنني بأن انقض الكثير مما كتبته وابدأ بكتابته من جديد ، ولكني وجدت ذلك يكلفني عناء كثيرا ، ووقتا طويلا ، ولا عجب في ذلك ، فالانسان يتطور في افكاره وفي سلوكه ، وفي اسلوبه وفي ميوله ، وقد يتجه المرء منا اتجاها يرضى عنه اليوم ويطمئن اليه ، ولكنه في الغد القريب او البعيد ينفر من ذلك الاتجاه ويمقته بقدر ما كان راضيا عنه ، وهكذا الكاتب والشاعر معا ، قد يدبج الاول بيراعه عبارات تحمل معاني فكرية او سياسية يكون وقتها مؤمنا بها ، بل ولديه استعداد ان يناضل في سبيلها الى آخر نقطة من دمه ، ولكننا نجد هذا الكاتب نفسه بعد فترة قد تكون طويلة او قصيرة قد غير تلك العبارات ، وبدل ذلك الاسلوب ، بصورة معاكسة لما كان عليه بالامس ، وما يقال عن الكاتب حرى به ان يقال عن الشاعر ، وعن كل انسان في هذه الحياة ، وإذا اردت دليلا واقعيا محسوسا على ما نشير اليه فانظر مثلا الى صورة شمسية اخذت لك وانت في المهد ، ثم انظر الى صورة اخرى اخذت لك وانت في سن الطفولة ، ثم اعد النظرة الثالثة الى الصورة التي اخذت لك وانت في شرخ الشباب وعنفوان الفتوة ، ثم بعد ذلك قارن بين هذه الصورة وبين صورتك التي اخذت في سن الشيخوخة ، عندئذ يظهر لك مدى التطور السافر بين هذه الصورة بشكل يخيل إليك أن صاحب هذه الصورة الاولى لم يكن هو صاحب الصورة التي تليها مباشرة ، وإذا كان هذا التطور موضعيا ولا يقبل الجدل في الجسم الذي هو أقل شأنا من النكر ، فما بالك اذن بتطور المدارك والافكار التي هي اقدس مكانة في عالم الخلود من الجسم الفاني

اما اذا كان هناك من لم تتطور افكاره ، ولم تتبلور مداركه ، فإنسان كهذا اشبه ما يكون بالمخلوق الجديد ، الذي ولد مشلولا ، وظل الشلل ملازما له في مهده وفي طفولته وفي شبابه ، وحتى كهولته وهرمه . وعلى هذا الاعتبار تكون

الصورة الشمسية التي اخذت له وهو في مهده لم يطرأ عليها أي نمو أو تغيير عن الصورة التي اخذت له وهو في شرخ شبابه .

وبعد . . فانني اذ اقدم الطبعة الثانية للجزء الاول (من شيم العرب) فانما اقدم قيما أخلاقية كان اسلافنا يقومون بها كنظام اجتماعي أملته عليهم اخلاقهم الاصيلة واطأنت الى الاخذ به وتطبيقه نفوسهم الطاهرة .

فالوفاء جزء من طباعهم ، والعفو عند المقدرة خلق أصيل في اعماقهم والامانة سجية راسخة الجذور في نفوسهم .

فإلى أولئك الذين أعمت أبصارهم مظاهر الحضارة الغربية ، وأصمت قلوبهم هذه الزخارف عن كل ما هو طيب وجميل من تراث قومهم ، حتى بلغوا من العقوق لأمتهم والكفر بمجد أسلافهم حدا جعل أحدهم ينظر لكل فضيلة قام بها اهله وذووه بعين السخرية والازدراء وهو في الوقت نفسه ينظر بل يتبجح ويعتز بأي عمل قام به المستعمرون ... الى هذه الفئة الجاهلة بتاريخ أسلافها والمخدوعة بتاريخ الأجنبي أوجه كلمتي هذه إيمانا مني بأن النفر الذين من هذا النمط سيكونون شرّ بلية وأعظم ضررا علينا من المستعمر الغاصب فهؤلاء الابناء العاقون هم الذين حذر عنهم الشاعر العربي بقوله :

وإذا تنكر للبلاد رجالها صاروا أضرّ لها من الأعداء

وكم يبلغ الاسى والقلق بالمواطن العربي الغيور الواعي عندما يدرك ان المستعمر الغازي حينما شعر أن استعماره الاقتصادي تقلص واضمحل ، وذهب الى غير رجعة في شتى بقاع العالم بفضل نمو الوعي القومي عند مختلف الشعوب ، عند ذلك بدل استعماره الاقتصادي باستعمار أشد ضررا من سلفه ألا وهو الاستعمار الفكري .

فهؤلاء الذين يهللون ويسبحون بحمد وإجلال الحضارة الغربية ، والعادات والتقاليد الأجنبية ، ويتنكرون لشيم اسلافهم هؤلاء مستعمرون فكريا وروحيا وعقائديا ، من حيث يشعرون او لا يشعرون ، وان المرء ليعجب بل يسخر كل السخرية عندما تتاح له الفرصة في مناقشة بعض المستعمرين (بفتح الميم) فكريا

فهؤلاء يرون أن ما يسمى عندنا احسانا او كرما او شجاعة او وطنية هو بمنطق فلسفتهم الاستعمارية يسمى أنانية وما يسمى بخلا او جبنا اوخيانة هو ايضا انانية ، وعندما يؤمن المواطن بهذه النظرية الجوفاء عندئذ ينبغي له ان يزيل من قاموس جميع اللغات الانسانية ما يسمى أمانة او فضيلة ،اجل ينبغي ان ينزع هذا العرف الذي اجمع على اعتباره وتقديسه جميع الأمم والملل على مختلف ميولها واتجاهاتها السياسية والفكرية .

ويتحتم علينا ايضا ان نلغي قانون العقوبات المدنية والعسكرية من جميع الانظمة الدولية : فالسياسي مثلا إذا خان أمانة عمله ، وأذاع الأسرار المؤتمن عليها من قبل حكومة وطنه لحكومة معادية لحكومته ،فمعناه انه فعل ذلك بحافز من أنانيته التي دفعته الى حب المال المغري المدفوع له ، مقابل قيامه بهذه العملية ، والسارق عندما يستحل مال غيره والغادر حينما ينكث العهد ولا يرعى الذمة، والقاتل عندما يسفك دم بريء آمن ، كل هؤلاء يقال عنهم كما يقال عن الاول .

ومن ثم يقال ايضا بنفس المنطق عن المواطن المخلص الذي يبلغ به اخلاصه الى ابعد حدود التضحية ، ويعبر التعبير نفسه عن الامين الذي تبلغ به امانته الى اقصى حد من حدود الفاقة . وهو قادر على الاختلاس ، أجل يقال عن المواطن المخلص ، وعن الأمين الورع ، وعن الوفي الشهم ، يقال عن هؤلاء الآخرين ما يقال عن الأولين ، أي كما أن أولئك يقومون بأعمالهم الدنيئة بدافع الانانية المادية فان هؤلاء ايضا يؤدون عملهم هذا بدافع انانية كانت من نوع آخر .

ووفقا لهذا المنطق المجرد من جميع المعاني الانسانية أجدني مضطرا الى تكرار الجملة الأولى فأقول : يتحتم على من يؤمن بهذه الفلسفة ان لايؤمن بأية شريعة سماوية ولا أية قوانين انسانية .

والذي يسوء كل عربي مخلص هو ان بعضا من المثقفين العرب الذين تمكن الاستعمار الفكري من قيادتهم قد وجدت نموذجا منهم يجهل تاريخ امته العربية جهلا فاحشا ، ولم يخطر ببالي ان شابا جامعيا عربيا يجهل مراحل التاريخ الذي اجتازته امته ، اللهم إلا ان هذه الظاهرة بدأت لي واضحة جلية عندما تتاح لي

الفرصة أحيانا في النقاش والحديث مع بعض هذه الفئة ، وكنت عندما أصل الى البحث في التاريخ العربي مع مثل هؤلاء اتحفظ لكي لا أغلط اعتقادا مني أن أمامي من يسجل علي غلطاتي التاريخية ويحصيها عددا ، ولكنه بدا لي مع استمرار الحديث أن امامي من لايعرف شيئا من تاريخ أمته العربية ، مع الاسف الشديد وهكذا يفعل الاستعمار الفكري ، ويتصرف بمدارك وعقول وأفكار بعضنا .

وانه ليجب على حملة الاقلام العرب الأحرار الواعين ان يعدوا العدة لمجابهة هذا الاستعمار النفسي والفكري ، ليسهل القضاء عليه في مهده ، قبل ان ينمو وينتشر (مكروبه) المعدي بين الناشئة وتلك حقيقة يتحتم علينا مجابهتها ومحاربة أهلها بسلاح فكري معاكس .

والله اسأله التوفيق .

فهد المبارك

مقدمة الطبعة الاولى

يسعدني أن يرى القارىء بين دفتي هذا الكتاب وما بعده من الاجزاء المتسلسلة قصصاً عربية شاملة لكل معنى من معاني الفضيلة .

ولا عجب من ذلك إذ أن هذه القيم الاخلاقية المثلى ليست الا صورة ناطقة عن أخلاق ساكني الجزيرة ، ومعبرة أبلغ التعبير عن حياتهم الأدبية والاجتماعية (وما فطروا عليه) من وفاء ونجدة وسخاء ومروءة وإباء وشمم .

ولربما يتساءل القراء كيف كان هذا التراث المجيد وهذه القصص الواقعية الرائعة مهملة ومتوارية عن الأعين طيلة هذه المدة ، حتى أوشكت ان تدرس ويمحى أثرها رغم ما فيها من عبر تاريخية جديرة بإعجاب القارىء؟ أحب أن أجيب على هذا السؤال :

كانت هذه الدرر النفيسة مكنوزة في صدور الرواة الشعبيين وينقلها الخلف عن السلف . ومن دواعي الأسف أنه قل أن نجد بين الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية كاتباً طرق هذا الباب وحاول أن يكتب كتابة شاملة يعبر بها بوضوح وجلاء عن كنه حياة ساكني شبه الجزيرة ، وأن يصل بكتابته الى حد يحلل فيه اخلاق أهلها تحليلاً علمياً من الناحيتين الاجتماعية والأدبية وان يكن ثمة نفر من المؤرخين كتب شيئاً عنها فإنما كانت كتابته ذات طابع محدود لا يتجاوز ناحية معينة كالوقائع التاريخية المشهورة وشيء من أنساب القبائل وقسط من تراجم الحكام وما الى ذلك .

وإني ممن يقدر جهد اولئك الكتاب من عرب ومستشرقين لاعتقادي أنهم سدوا فراغاً وبذلوا جهوداً جبارة بخدمتهم لتاريخ الجزيرة الحديث خاصة من الناحية السياسية . أما إهمالهم للناحيتين الادبية والاجتماعية فإنهم معذورون بذلك لانهم لو اجتهدوا وحاولوا ان يكتبوا عن هاتين الناحيتين لأعياهم الامر لان القضية ليست مجرد سرد حوادث وتسجيل أساطير وقصص على أي شكل يكون ، ولكنها تحتاج الى إقامة طويلة في الجزيرة ليتمكن بها الكاتب من معرفة حياة أهلها الاجتماعية ، كما أنه يحتاج لدراسة عميقة تمكنه من معرفة الشعر الشعبي لانه فن مستقل بذاته .

وان يستطيع كاتب ما ان يكتب عن الجزيرة الكتابة الوافية مهما أوتي من قوة ملكة في الكتابة ما لم يكن قد درس الادب الشعبي دراسة دقيقة تؤهله افهم نظمه ونثره . وهذا لا يكفي بل يجب ان يكون لديه الى جانب ذلك من الموهبة الادبية ما يجعله يتذوق هذا التراث وبالاخص النظم الشعبي النجدي الذي فيه من غرابة الالفاظ ما يعيي فهمه بعضاً من ابناء الجزيرة انفسهم فضلاً عن الاغراب عنها، وان كانت معانيه اشبه ما تكون بمعاني الشعر الجاهلي من ناحية متانتها وقوة مغزاها.

وعلى هذا الاعتبار اصبح من المتعذر على المرء ان يجيد تفهم هذا التراث الخالد ما لم يكن من صميم الجزيرة ومجيداً إما لنظم الشعر النبطي [1]، او معرفة أوزانه واجادة روايته ، ذلك لان اغلبية الحوادث الرائعة لا تخلو من قصيدة شعبية يشدو بها صاحب الحادثة او شاعر قبيلته .

واني لوطيد الاعتقاد ان كثيراً من الحوادث القيمة لولا وجود القصيدة التي خلدت ذكرى الحادثة لدرست كما درس غيرها من القصص النفسية .

وبما ان كاتب هذه الاسطر من صميم البلاد ، ومن النفر الذين وهبهم الله تذوق معاني الشعر الشعبي ورواية طرف منه ، كما أني وهبت أيضاً شدة الشوق والرغبة في حفظ القصص ذات الاهمية منذ نعومة اظفاري . هذا كله جعل الامر علي متيسراً وإن وجدت فيه صعوبة ما فإنها ليست كتلك التي يعانيها المرء الغريب عن الوطن ومعرفة الفن . ولحسن الحظ ان سنحت لي الفرصة بالاتصال بكثير من الرواة القدامى من العرب بدوهم وحضرهم ، وكنت أسعى وراء هذه الغاية منذ مدة لا تقل عن ستة عشر عاماً ولكنني لم أباشر التأليف إلا منذ عامين فقط ، وذلك أني كنت في شغل شاغل عنه .

ولرب سائل يقول : إذا كانت هذه الحوادث القيمة مما لا يستطيع الكاتب الغريب عن البلاد أن يكتبها لشدة ما في النظم الشعبي من تعقيد ، فلماذا لم يؤلفها أهلها القدامى الجديرون بإتقانها ؟

---

(١) يسمى الشعر الزجلي الشعبي في الجزيرة نبط .

الجواب على ذلك أنه ثمة أمور حالت دون تدوينها آنذاك و ذلك أن أهل الجزيرة لم يكونوا بحاجة إلى تدوين هذه الحوادث وطبعها ، فلو طبعت لما وجدت من يقرؤها إلا النزر القليل ، لأنهم في غنى عنها إذ أن اغلبهم يحفظ الكثير منها عن ظهر قلب ولأنهم كانوا يعيشون في العصر الذي لم يكن لهم فيه اتصال بالعالم الخارجي فهم بحكم ظروفهم وزمانهم ومجتمعهم يتداولون هذه الحوادث بأنديتهم ومسامراتهم، فلا يشغلهم عنها استماع إذاعة ولا قراءة صحف

وبعد: فإني لست بحاجة أن أؤكد أن هذه القصص فيها من الروعة ما يدهش القارىء حتى ليخيل له أنها وليد خيال مصطنع ، ولكنها حقائق ثابتة لا مجال للشك في صحتها ، إذ أن العرب وخاصة البادية منهم أبعد ما يكونون عن تصوير الخيال الوهمي ، فهم واقعيون ، وليس للخيالات المختلقة أي رواج عندهم ، والمرء الذي يعرف عندهم باصطناع الاحاديث يحتقرونه ويستهزئون به . لهذا تجدهم لا يفخرون إلا بالحوادث الواقعية .

وبما أن القراء في هذا العهد يضيعون قسطاً من حياتهم بقراءة قصص بنيت على الخيال ، لهذا أرجو أن اكون موفقاً بتقديمي هذه التحفة التي فيها من الحوادث والقصص الواقعية ما يغني عن الخيال المختلق .

وانه لمن الخطأ أن نشغل القراء بالقصص الخيالية الوهمية ولدينا من تراثنا المجيد الواقعي ما هو أجدى عليهم من أحاديث الخيال .

ونحن اذ نفخر بكرم حاتم ، ونترنم بوفاء السموءل ، ونعتز بحلم الاحنف ، ونتباهى بشجاعة عنترة ، فإننا نؤكد بهذا السفر بأن شيم العرب الاصيلة ، لم تدرس ولم ينطمس أثرها بذهاب اؤلائك القوم هلم معي اقرأ هذا الكتاب تجد في حقله ما يفوق وفاء السموءل ويعلو على كرم حاتم ويسمو على شجاعة عنترة ، ويزيد على حلم الاحنف .

ولقد حرصت الا أضع في كتابي هذا إلا القصة التي أؤمن بصحتها فمن قصة تشفع لها قصيدتها الشعبية وتكون القصة آنئذ شاهدة من نفسها على نفسها بالصحة. ومن قصة مشهورة رويتها عن رواد كثيرين ولا حاجة لأن أسرد اسم كل فرد

رويتها عنه بل سأكتفي بتعليق أوضح به أنها مشهورة ومتواترة . وأما القصة التي رويتها عن مصدر واحد فقط فإني سأذكر الشخص الذي رويتها عنه مع اليقين أني لم أضع قصة رويتها عن شخص واحد الا بعد إيماني واعتقادي أنه ثقة ويروي الحادثة عن ثقة مضارع له بالصدق والامانة .

ولو شئت أن أسجل كل ما سمعته من الرواة لطال علي الطريق ولكني ضربت صفحاً عن ذلك وحرصت جيداً على أن أقصر كتابي على الاحاديث والقصص الاكيدة الذائعة الصيت التي أستند على البراهين المنطقية والادلة المقنعة في اثبات صحتها .

وإني إذ أسير على هذا المنهاج الصريح فإني أسير بدافع غرامي الاكيد ورغبتي الملحة في قول الصدق ، تلك الرغبة التي تأصلت جذورها في جبلتي واينعت فروعها في كياني، الى أن أصبحت سجية راسخة في معتقدي، أؤمن بها ايماناً وطيداً لا أستطيع التخلي عنه ، حتى ولو حكمت علي ظروفي واضطرتني الحال على أن أقول خلاف الصدق والواقع وعكس ما أعتقده لما استطعت ، وتلك ظاهرة يشعر بتأثيرها الفعال كل ذي ضمير صادق حر . ولقد عبر عن هذه الحقيقة الشاعر محمود سامي البارودي فقال

تعودت صدق القول حتى لو انني   تكلفت قولا غيره لا أجيده

* * *

ولما كان الوفاء هو أنفس القيم الأخلاقية وأنبلها فقد طاب لي أن أجعله الفصل المقدم من هذا الكتاب ، وبما ان قصة المهادي هي اطول القصص ، ومن أنفس الحوادث واروعها ، لما فيها من الوفاء المتناهي بين الصديقين لهذا جعلتها في طليعة فصل الوفاء .

* * *

هذا واني اعتقد انه ما من قبيلة من قبائل العرب في شبه جزيرتنا العربية الا وسيجد القارىء في هذا الكتاب لأفرادها من المآثر الخالدة الحية ما يرفع الراس من شتى القيم الاخلاقية .

وثمة قبائل ربما كان لبعض رجالها القسط الاوفر من هذا التراث ، وليس معنى ذلك ان القبائل الاخرى اقل حوادث من تلك ، بل ربما لدى افرادها من القصص النبيلة والحوادث النفيسة ما يضارع او يفوق حوادث تلك القبائل . وانما الامر يرجع الى سببين رئيسيين :

الاول : وهو الأساسي في نظري ، واعني به اتصالي المباشر المستمر برواة وافراد بعض القبائل ذلك الاتصال الذي كان اكثر وأيسر علي بحكم ظروفي في القاهرة :

والثاني : هو ان الرواة توفروا في هذه القبائل التي كانت لي بهم صلة مباشرة اكثر من توفرهم في القبائل الاخرى .

وكم كنت شديد الحرص على ان احصي أنفس الحوادث لكل قبيلة من قبائل العرب ، لهذا كنت اسعى جاهداً وراء هذه الغاية ، ولا زلت أنقب عن كل راوية من رواة القبائل ، فإذا ذكر لي فرد منهم وتأكدت من صحة نقله أهرع اليه مسرعاً ملتمساً منه الوصول الى هذه الأمنية .

ولئن فاتني شيء من حوادث بعض القبائل ، فأرجو الله ان ييسر لي الفرصة لاجول جولة اخرى كي استوفي ما فاتني من الحوادث التي لا تزال مكنوزة في صدور الرواة الذين لم تتح لي الفرصة للاتصال بهم ، ومن ثم سأنشر ما استدركه في الجزء الأخير بحول الله ومشيئته .

* * *

ولما كانت كتابتي هذه ، استوعب بها ما استطعت من تخليد الفضيلة لأي فرد أسداها سواء كان علماً أو نكرة ، فإنه من واجبي كعربي مخلص ، يهمني توحيد أمتي العربية بأية وسيلة كانت وبأي ثمن كان — ان ابتهل الى الله وادعوه ان يقدس ثرى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، ذلك العبقري الفذ الذي وحد كافة عرب الجزيرة بعد ان كانوا أعداء متفرقين .

* * *

هذا واني اذ اقدم هذه التحفة ، فإنما اقدمها غيرة على تراثنا القومي الأدبي الذي كاد ان يفنى ويضمحل ، هذا من ناحية والناحية الأخرى الاساسية هي رغبتي

الأكيدة ان يتخذ الناشئة من هذه القيم المثلى قدوة صالحة ، لتكون نبراساً سامياً يقتدى به في شتى مناهج حياتنا الادبية والاجتماعية .

وبعد :فانه لا ريب عندي اني انسان معرض للخطأ وانما أود أن يعاملني قراء كتابي هذا بالحكمة التي تدرع بها ابن سيرين غفر الله له، حيث كان اذا ذكر عنده احد بسوء ،ذكره بأحسن ما يعلمه عنه من سجية حسنة ، وهذه السجية ، ان دلت على شيء فانما تدل على سمو نفس صاحبها ومتانة خلقه وبالعكس،والله أسأله التوفيق.

فضل الوفاء

هي الأيام تكلمنا وتأسُو   وتجري بالسعادة والشقاء

فلا طول الثواء يرد رزقاً   ولا يأتي به طولُ البقاء

كما أن السؤالَ يذل قوماً   كذاك يعزُّ قوم بالعطاء

حلبنا الدهر أشطره، ومرت   بنا عقبُ الشدائد والرخاء

وجربنا وجرب أولونا   فلا شيء أعز من الوفاء

علي بن الجهم

« القصة العالمية »

كل ما أعتقد أن هذه القصة واقعة في القرن الثاني عشر للهجرة ويغلب على ظني أنها في أول ذلك القرن ، وكثيراً ما حرصت على أن أجد المصدر الأكيد الذي أثق بصحة روايته لهذه الحادثة من الناحية التاريخية فلم أوفق إلى ذلك رغم حرصي الشديد ، أما الحادثة من الناحية الواقعية فلا مجال للشك في صحتها من وجوه شتى منها . أنهـــا مشهورة ومتواترة فيندر أن نجد عربياً له أقل إلمام برواية الحوادث لا يعرف هذه القصة ولا يسردها حسب ما رواها ، الرواية التي لا تحيـد عن الجوهر الأساسي. وقد يكون ثمة نقص في نوع الرواية لا في الأصـــل . والشيء الثاني الذي اعتقد أنه هو السبب في خلود هذه القصة وفي صحتها أيضاً ليس إلا انشودة بطل القصة المسمى مهمل المهادي الذى اصبحت شهرته في عالم الجزيرة العربية أشهر من نار على علم ، وخاصة عند أهالي نجد بدوهـا وحضرها ، وإني أعتقد جازماً أن هذه الحادثة على ما فيها من الروعـــة لولا أنشودتها المحفوظة في صـــدور الرواة والمسجلة في دواوين الأدباء الشعبيين ، فلولا هذا السجل الخالد لدرست هذه القصة الرائعة كما درس كثير من أمثالها من القصص الجوهرية ولكن وجود تلك الأنشودة التي

سنوافي بها القارىء موضحة في آخر هذه الأسطر ، كان هو العامـــل الأساسي الذي بفضله بقيت هذه القصة وستبقى أبداً بمشيئة الله خالدة أبدية في صفحات التاريخ العربي المجيد .

مهمل المهادي هو قحطاني من عبيدة [١] أما رفيقه في الحادثة فهو من قبيلة (سبيـع [٢]) ومن الفخذ المسمى ببني عامر المتفرع من هذه القبيلة ذاتها ، والقصة تعطينا دلالة واضحة بأن المهادي ليس هو بالشخص العادي بل هو من رؤساء عشيرته وذو مقام مرموق [٣] بـــين عربه وشاعر مطبوع كما أنه ثري بلا ريب ، وأما « مُفَرّج » فليس لدينا من الأدلة ما يهدينا إلى أنه رئيس .وكل ما في القصة من دلالة لا تزيد عن أنه رئيس من قبيلة « سبيع » ومن « بني عامر » كما أسلفنا هذا غاية ما وصلنا إليه في مجهودنا ، أما من ناحية القيم الأخلاقية فلا شك أن الإثنين كليهما فرسا رهان بالوفاء والمثل العليا ، والمهادي أعظم شهرة وأذيـع صيتا في أندية العرب وذلك بأسباب قصيدته التي هي من أشهر القصائد الشعبية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بحكم منزلته الإجتماعية فهو قد رزق موهبة

«١» فخذ مشهور من قبيلة قحطان . «٢» هم بدو مدينة الرياض .

«٣» ولمرور الزمن الطويل الذي سحب أذياله على هذه القصة ما استطعت أن أجد من يدلني على مدى رئاسة المهادي هل هو رئيس لـ «عبيدة» كلها أم لبعض منها.

الشعر كما حباه الله سعة من المال وجاهاً رفيعـــاً في مجتمعه فتوفرت له الأسباب الأدبية والمادية والإجتماعية ، وهذه العوامل الفعالة اذا توفرت لفرد ما خلقت له ذكراً جميلاً في التاريخ ولا سيما إذا وفق إلى أن يسخر هذه الأشياء في سبيل المجد والخير ، وعلى ضوء هذه الحقيقة ليس بالغريب أن يطغي اسم المهادي على صديقه السبيعي ويكون أشهر منه صيتاً وأنبه منه ذكراً عند عرب الجزيرة ، حتى أن هذه الحادثة لا تعرف عند العرب إلا اذا قلت (قصة المهادي)،وفي رأيي أن السبيعي فعل من المروءة والوفاء الشيء الذي يضارع المهادي بفعله .

إنها لمن أبلغ الحوادث وأروعها حادثة الشخصين اللذين ابتلي كل منهما بأعظم المصائب وأدهى الملمات وثبتا امام هذه الرزايا جميعاً ثبوت الجبال الراسيات .

سار المهادي مساىراً للغزو ومعه فئة من عرب عشيرته ، وفي رحلته هذه ساقه القدر الى قبيلة « سبيع » من بني عـــامر حيث توسط بيوتهم وصدفة اعترضت أمـامه فتاة من فتيات هؤلاء العرب ذات جـمال فاتن يأسر القلب ، ويستهوي الفؤاد « هيفاء دعجاء » استولت على لب المهادي بلحظة من لحظاتها حتى أنه لم يعد يستطع أن يفـــارق هؤلاء العرب ولا يقوى على أن يسير خطوة ، أوقف راحلته مذهولاً كالمصـــاب بسهم وأي

سهم أمضى من سهم الغرام ولا سيما اذا كان مفاجأة ؟!

عندما رأى المهادي نفسه أنه أصيب بهذا الجرح الخطير هنـــاك استردقوته وشجاعته وضغط على أعصابه بقدر ما استطاع بحيث لا يشعر رفاقه بشيء من هذا الأمر الذي ابتلي بـــه، ولكنه وجد نفسه أنه لو استطاع أن يخفي عن قومه هذه المصيبة التي ألمت به فهو لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يجاري قومه ويسير معهم الى السبيل الذي كانوا قاصدين له، لأن عقله وحواسه وشعوره وجميع مواهبه أصبحت ملكاً لهذه الفتاة فهو آلة مسخرة تديره إرادة الله ثم إرادة هذه الساحرة التي خلبت لبـــه بجمالها الباهر، كيف تشاء.

عندما رأى المهادي نفسه انها كبلت بهذه الأغلال، هنـــاك وفق لتدبير الطريقة التي يتخلص بها من قومه ليبقى عند هؤلاء العرب حتى يتسع له الوقت الذي يسأل فيه عن هذه الحسناء هل هي ثيب ؟ أم بكر ؟ وهل هي متزوجة أم لا ؟ وهل هي من بيت عريق في نسبه وحسبه فيما اذا شاء أن يخطبها من اهلها ؟ وكل ما تصبو اليه أمنيته هو ان تكون هذه الفتاة بكراً لا قرين لها ولا خطيب وأن تكون من أسرة يتلاءم نسب اسرتها مع نسبه.

هذا وقد بقي المهادي عند قبيلة سبيع واختار اكبر بيوت هؤلاء

العرب ونزل ضيفا عند صاحب البيت الذي اكرمه إكراما يليق بمقامه ، وإنما المشكلة التي بقي المهادي حيران كل الحيرة في حلها هي رسم الطريقة التي توصله بسهولة وخفاء الى معرفة هذه الفتاة المعرفة الكافية التي اشرنا اليها آنفا ، فكر مليا والحاجة كما يقال ـ (ام الاختراع) واملى عليه رشده بعد تفكير طويل بما يلي : الا يبدي سره لواحد من هولاء العرب إلا للمرء الذي يؤمن بأنه من شخصيات الرجال الابطال الأفذاذ ، لقد صمم المهادي ان ينفذ عمليا هذه الحكمة الرشيدة التي اوحاها اليه عقله السليم ، ولكنه وقع في مشكلة عويصة اخرى وهي معرفة هذا النوع من الرجال فكيف يهتدي الى تشخيص الرجل الذي تتوفر فيه القيم الأخلاقية الكاملة ، مع العلم ان هذه الشيمة من اخفى وادق سجايا الرجال فهي من الأسرار الكامنة في جوهر الإنسان ولا تعرف ولا تبرز إلا في الشدائد كما قال الشاعر :

إذا الرزايا اقبلت ولم تقف ... هناك اخلاق الرجال تختلف

فمن اين « للمهادي » الغريب ان يعرف الرجل الذي يتصف بصفات الكمال كما يريد والمدة التي قضاها وجيزة لايتمكن بها من معرفة القوم؟ وهذا يحتاج الى مجالسة طويلة لهؤلاء العرب وخبرة وتجربة لأخلاق أفذاذهم فردا فردا . ولكن مع هذا كله لم ييأس المهادي من معرفة السبيل الذي

يوصله الى غايته المنشودة ، وسرعان ما خطر على ذهنه المثل القائل : « اذا جهلت أخلاق امرىء فاختبر صبره وحياءه » وهاتان الخلتان هما بلا ريب محك جوهر الرجال بل عماد الأَخلاق .

استطاع المهادي ان يصل الى ضالته بواسطة الرجل الذي تمثلت في طباعه هاتان الخصلتان .

باشر صاحبنا المهادي عمليته التي يختبر بها متانة أخلاق البعض من أفراد هؤلاء القوم العرب الذين هم قبيلة سبيع وكان امتحانه لسجايا أفراد هؤلاء القوم مبنياً على اساس وطيد من الحكمة ، ذلك انه تظاهر امام هؤلاء العرب الذين حل عندهم ضيفاً بأنه مصاب بشيء من تشنج الأعصاب الذي كثيرا ما يطرح صاحبه أرضاً ويفقده شعوره .

وبفضل هذه الحيلة تمكن بسهولة سريعة من معرفة أخلاق الرجل الذي يبين له سبيل الإتصال بهذه الفتاة التي أخذت عقله وسلبته رجولته ولا عجب ان يصل المهادي الى مراده وذلك يعود الى ذكائه وبعد نظره وسعة أفقه ،فهو عندما تظاهر بتشنج الأعصاب كان اذا جلس في المجلس الحاشد من مجالس هؤلاء العرب اختار أفضل القوم الذي يتحرى فيه كمال الرجولة والوقار ، ومن ثم يجلس بجانبه فيطرح نفسه على هذ الرجل ويتكىء عليه بشدة فتمكن بعمليته هذه ان يصل الى الرجل صاحب

الصبر والحياء اللذين هما عماد الرجولة ، فالمهادي عندمـــا يطرح نفسه على هذا الرجل يشتد باتكائه عليه فالرجل المتكأ عليه لا يقابل هذا الضعيف المبتلى بهذا المرض إلا بالتجلد والصبر واذا شاء أحد من القوم ان يزيحه عنه رفض ،وقال :هذا ضيف عزيز علينا وغريب عندنا فلا يمكن ان يزاح عن المكان الذي اختاره وجلس فيه وهو في شعوره وعقله (١) .

أمـــا المهادي فقد ارتاح ضميره لحديث هذا الشاب الذي عبر عن عميق رجولته وجلده واحتماله للمشاق وقد اعتقد المهادي أن هــذا الفتى هو خير من يثق به ويطمئن له فيما اذا أبدى له سره الكامن في نفسه الذي لا يعلم به إلا الله.

فعندما صحي المهادي من إغمائه المختلق ، أشار لصاحبه الذي توسم

١ ـ لا شك ان المهادي كان حكيماً بعمليته هذه . والحق ان العرب لديهم فراسة قوية فإن الحياء والصبر من أوضح الأدلة على كمال خلق المرء ، وقد شاهدت بنفسي حادثة وقعت معي وفيهـــا شاهد لصحة هذه القصة أعني من ناحية امتحان المهادي لصاحبه الذي اتكأ عليه ،لقد كنت مسافراً من مدينة الرياض الى مدينة حائل وذلك فيسنة ١٣٥٨ هـ وكانت السيارة سيارة بريد تضم اكثر من عشرة ركاب ومن بين هؤلاء الركاب صبي لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره وقد قيل عنه انه «ابن دعفس» الساكن بلدة حائل كما انه كان يوجد بين الركاب شيخ كبير يدعى «سلطان الفقير» من رؤساء بادية عنزة وهو شخصية مهيبة ومشهور في رجولتـــه ويبلغ من=

به النجابة واتكأ عليه، وأخذ بيده الى محل ناء عن مجتمع القوم فعند ذلك صارحه بالحقيقة كما هي وزاده صراحة بأنه لم يتأخر عن قومه من أجل المرض الذي ألم به كما هو ظاهر أمره، وأفاده بوضوح بأن مرضه الحقيقي هو غرام تلك الفتاة التي أصابته في صميم مهجته بسهمها القاتل، هذا : وكان الفتى يحسن الاستماع لضيفه بكل بشاشة ورزانة وهدوء فلم

العمر آنذاك ما يقارب السبعين سنة هذا وقد نزلنا من السيارة في مكان ما ليرتاح قليلًا ونقتات وعندما حللنا جميعاً بهذا الموضع وجلس بعضنا بجانب بعض، قام من بيننا الصبي ليقضي حاجة له فبعد ان بعد عنا بعداً يجعله لا يستطيع ان يسمع كلام المتكلم الذي في مجلسنا افتتح الحديث الشيخ سلطان الفقير وكان حديثه كله مدحاً وإطراء لهذا الصبي واستمر الشيخ بمدحه للصبي إلى ان قال : ان هذا الصبي صاحب مروءة وذو اخلاق كريمة ومطبوعة في معدنه عموم السجايا المثلى، لقد استغرب الحاضرون من إطراء الشيخ لهذا الصبي الذي هو حديث في سنه ولم يعرف شيء عن أخلاقه، فلم يسعني إلا أن جابهت الشيخ وقلت له : ما هو دليلك على نجابة هذا الصبي؟ فقال: « إنه صبور وحيي، والصبر والحياء من أصدق الأدلة على نجابة المرء ورجولته » فقلت له ما هي الأدلة التي عرفت بها صبر هذا الفتى وحياءه ؟ فأجابني الشيخ بقوله : لقد عرفت ذلك عندما رقد أحد الرفاق من راكبي السيارة وطرح نفسه على فخذ هذا الصبي فأردت أن أوقظ هذا النائم الذي رمى جسده على هذا الغلام الحديث السن ولكن الغلام رفض ذلك وقال « لا يمكن أن يوقظه أحد من مرقده خشيه ان ينزعج »

يقول الشيخ :قلت للصبي ألست متألماً من اتكائه عليك؟ أجاب الصبي بلى، ولكن الذي يهون على الألم ان رفيقي مرتاح برقاده هذا.

يزل الفتى يحسن الأستماع حتى أنهى المهادي كلامه الذي نعت به الفتاة وشخص جسمها تشخيصاً كافياً ، كما وصف لباسها وأشار الى البيت الذي دخلته ، عند ذلك أجاب الفتى ضيفه المهادي بقوله : « هل تستطيع ان تؤكد معرفتك لهذه الفتاة فيما لو رأيتها ثانية ؟ أم انك نظرتها نظرة عابرة ونسيت اوصافها ؟ » أجاب المهادي بقوله « لا يمكن أن أنكرها لو أتت ماشية بين مئات النسوة لأن صورتها مسجلة في سواد عينيّ ومودتها توطدت في دمي ولحمي » ، فما وسع الفتى بعد ذلك إلا أن ياخذ بيد المهادي ودخلا معاً الى البيت الذي أشار اليه المهادي وذكر بان الفتاة دخلته ، فلما دنا الفتى من البيت ، نادى بصوته العالي : « فلانة احضري لدى » فعلى الفور خرجت من خدرتها تهتز كما يهتز الرمح بيد الفارس المغوار ، فلما نظرت الى هذا الأجنبي الذي لم يسبق لها ان رأته عادت هاربة كما يهرب الغزال اذا رماها الصياد ونجت ، أما صاحبنا المهادي فكاد أن يخر مغشياً عليه من لوعة الغرام الذي استولى على عقله . وأما الفتى فهو عندما رأي ضيفه قد اوشك ان يفقد رشده حين نظر هذه الحسناء الفاتنة، عندئذ لم يخامر ذهنه الشك قطعياً بأن هذه الفتاة معشوقة الضيف ، ولكنه شاء ان يتأكد فقال للمهادي « لعلها تكون هذه هي » أجاب المهادي بقوله « نعم هي بالذات » فقال الفتى « اطمئنك أولاً أنها أختي كما اني اطمئنك

بأني قد قبلت ان تكون لك زوجة شرعية » كاد المهادي ان يفقد عقله من هذا الخبر المفاجىء الذي هو ألذ ما يكون على نفسه . . . . . .

أما الفتى فقد ذهب فوراً الى والده وقص عليه القصة كما حدثت وأعلمه بما تم ،وكان والده من أفذاذ الرجال البارزين،لهذا شكر ابنه على هذه العملية، وقال له يجب ان لا تتأخر لحظة عن فعل السبب الذي يمكنك من عقد النكاح لضيفنا العزيز على هذه الفتاة بقدر ما يمكن من السرعة لئلا يفتك به داء الغرام ، وفي الليلة الثانية تزوج بها ، وكانت تلك الليلة اسعد الليالي عند المهادي ، اجل إنها ساعة مملوءة بالسرور والسعادة المتناهية ، هذا بالنسبة للمهادي : اما بالنسبة للفتاة فانها ترى ان هذه الليلة اتعس ليالي حياتها وأشقاها ، بل تعتبر نفسها دخلت في سجن مؤبد وفي نكد عيش جديد، ولا عجب من ذلك فهي المسكينة ادخلت على قرين سيشاركها في حياتها ويقطف ثمرة شبابها ذلك الشباب الذي ترى انه لا يدانيه أي شباب من فتيات عربها بل ربما انها تعتبر ملكة الجمال في عصرها على بنات عرب الجزيرة قاطبة ، ومما يضاعف حزنها وآلامها أن هذا الشاب الذي ادخلت عليه لم يسبق لها به أي معرفة من قبل وهذه اللحظة هي أول مرة ترى فيها شخص هذا الرجل الذي سيكون مصيرها ومستقبلها قبضة بيده مدة حياتها ، وفي الحين الذي خلا كل منهما

بصاحبه عند ذلك قرُب الزوج العاشق الى زوجته المعشوقة وبـــدأ في الحديث ليعلن عن سروره واغتباطه بها ،وكان حديثه مليئاً بالمداعبة والمرح، ولكن زوجته بعيدة كل البعد عن استماع حديثه ،فإن يكن هو عند نفسه في جو من البهجةِ والغبطة والسرور، فإنها تعتبر نفسها في قفص من حديد مع أنها حاولت المسكينة أن تخفي حزنها وتكبت مصيبتها وتواري غرامها بمعشوقها الأَول ولكن فضحتها عواطفها وخانتاهـــا عيناها بالدمع الذي يفيض من مقلتيها ، ويسكب كما يسكب الوابل من السحاب الغزير المنهمر ، والعين اكبر دليل يعبر بدقـــة وصدق عن حقيقة المرء .

كما قال الشاعر :

عيناك قد دلتا عيني منك على   أشياء لولاهما ما كنت أدريها
والعين تعلم من عيني محدثها   إن كان من حزبها أو من أعاديها

فالمحب يستطيع مثلاً ان يستر جميع علامات المودة والحب ويتجلد بقدر ما يمكنه ويتصبر أمام الشامتين او العاذلين ، ولكن هيهات مــاذا يكون موقفه تجـاه العين ، والحقيقة إن واقع هذه الفتاة المنكوبة قـــد عبر عنه الشـــاعر الشعبي كاتب هذه الحروف أمثل التعبير بقوله :

اَلْحُبْ .لَوْ تُخْفِيه خـــانَتْ بِكَ اَلْعَيْنْ

تْكَذِّبَ الجَلَدْ والصَّبْر بْدَمْعٍ يِجِي بِهْ [1]

هذا وقد كان المهادي مرهف الإحساس سريع الفهم لهذا شعر ان هذه العروس ليست مطمئنة إليه فظن انها تجهل سمو منزلته الإجتماعية بين قومه كما تبادر لذهنه ايضاً ان هذه العروس تفتكر انه فقير الحال ، لهذا دنا منها ثانية وافهمها بأنه ليس بالرجل النكرة في عشيرته ، بل انه رئيس قومه وانه فلان المشهور ببطولته والثري بمادته والشاعر الموهوب بادبه ، فهو بعد ان شرح لعروسه هذه العوامل الإيجابية المغرية التي تتصف بهـــا حقيقته ، لم يكن عنده بعد ذلك ادنى شك في قبولها له لأن الأمور التي تطلبها الزوجة من الزوج كلها قد توفرت بـــه من عموم الوجوه الأجتماعية والمعنوية والمادية ، فلم يبق الآن امام هذه العروس شيء من

١ ـ هذه الأبيات من قصيدة لنا قلناها في مناسبة لو تطرقنا لشرحها طال بنـا الطريق ولخرجنا عن بحثنا الذي نحن بصدده والقصيدة تبلغ عشرة أبيـات وهذا مطلعها :

ما في البلاوي والرزايا من الزين   أمر نبين حكمته والحكي به

إلا انها تكشف سجايا الوفيين   وتعلن سريرة من يحب الحبيبه

اعتقد ان هذه الأبيات واضحه في لفظها ومعناها وليست كالقصائـــد الشعبية الغامضه التي نضطر لشرحها .

الأمور المغرية لها إلا توفرت به ، وزيادة على ذلك فان المهادي شاب وسيم الطلعة جميل الصورة عذب المنطق ، ولكن هذه العوامل كلها وإن كانت ذات اثر فعال في نفسية الزوجة ولكنها لا اثر لها في نفسية هذه الفتاة قطعياً بل ازدادت بكاء ، ولم يكن بين العروسين أي تجاوب سوى هذا الدمع الفياض هذا هو الترجمان الوحيد المعبر خير تعبير عن خواطرها، فبعد ذلك ادرك « المهادي » ان قضية عروسه هذه ليست قضية مظهر تهواه من مظاهر الحياة المعنوية أو المادية بل ولا الأدبية ، وإنما ثبت عنده ثبوتاً جازماً أن الفتاة مصابة بأمر نفساني فعلى هذا الأساس دنا منها المرة الثالثة ،وخاطبها بكل صراحة بأنه الآن لا يريد منها شيئاً سوى ان تصارحه بايضاح وتبين له العلة النفسانية التي استولت على شعورها .

وبعد ان ألح عليها وأكد لها انه سوف يمكنها من رغبتها ويبلغها امنيتها مهما كلفه الأمر ، عند ذلك رجت الفتاة الفرج وتوسمت في زوجها المروءة ، وصارحته بما هو آت : « انني فتاة يتيمة توفي والدي قبل ان أبلغ سن التمييز وكان وكيلي عمي الذي عقد لك النكاح وهو شقيق والدي ولقد كان بيني وبين ابن عمي «مُفَيرّج» إلفة زائدة من ايام الصغر فلما كبرنا جميعاً انقلبت إلفة الصبا الى غرام وعشق ، ووصل بنا الشوق الى حد انه لا يسلو عني لحظة واحدة وانا بالمثل ،وقد كان عمي يعلم ذلك وهو عازم

أن ينكحني ابنه ولكن ابن عمي عندما تأكد من رغبتك بزواجي وحرصك على الأقتران بي عند ذلك آثرك على نفسه بصفتك ضيفاً عزيزاً عليه ،فتركني لك وانا اعلم ان حياته اصبحت مهددة بما اعرفه عنه من المودة المتبادلة بيننا ،وان حياتي انا ايضاً مهددة كل التهديد اذا لم يسعدني الحظ باطلاق حريتي وعودتي الى ابن عمي وإني ارجو ان يكون لي من إباء نفسك وكرم خلقك ما يشفع لي ويجعلك تترك سبيلي وأنت ايها الشاب الأمير باستطاعتك ان تجد من بنات العرب من هي خير مني ، وأما انا فلا يمكن ان اجد من هو خير من ابن عمي مفرج » .

فبعد أن انتهت الفتاة من حديثها أجابها المهادي فوراً فقال :

« ابشري إني سأتركك لابن عمك وكوني امينة ومطمئنة أنني لن أباشر جسدك ولن تمسك يدي فانت حرام علي كحرمة والدتي علي وإنما الذي أريده منك أن تخفي الأمر حتى أذهب الى قومي ومن ثم أبعث لك طلاقك بصراحة واشرح لابن عمك هذا السبب الذى تركتك من أجله».

لقد باتت الفتاة وهي هادئة البال فسيحة الآمال ، كما بات المهادي وهو مرتاح الضمير أيضاً ولقد كان شديد الغرام فيما سبق بهذه الفتاة،أما بعد أن وصل اليها وأصبحت زوجة شرعية ومن ثم اتضح له غرامها بابن

غمها ومودتها المتبادلة معه . فقد رأي أن الإقدام عليها وزواجه منها شيء يخالف الشيمة العربية . فلا يسعه إلا العزوف عنها وتركها وشانها لهذا الشاب الكريم الذي بلغ به الكرم لضيفه أقصي حد من حدود المروءة .

لقد مكث المهادي عند العروس الجديدة أياماً قليلة ليستر فيها أمره أمام الناس ، وبعد ذلك ذهب الى قومه فلما وصل اليهم انتدب رسولا من عربه ليبلغ مفرجاً طلاقه لهذه الفتاة ،ويشرح له الأسباب التي دفعته الى طلاقها ويشكره ابلغ الشكر على معروفه الذي صنعه له ويؤكد له أنه أصبح أسيراً لفضله وأنه لا ينسي هذا الجميل مدى الدهر ويزيده تأكيداً أنه لم يطلق الفتاة وبنفسه لها أدنى غرام ويوضح له أن الغرام والمودة قد امحى اثرهما من نفسه .

وأكد لصاحبه أيضاً قائلاً أنني بعدما علمت أن هذه الفتاة مرشحة لتكون زوجة لك يا مفرج ، أصبح عزوفي عنها مائة بالمائة فحسب بل امسى امراً ضرورياً يتحتم على تنفيذه هذا وقد عادت الى اهلها ونكحها ابن عمها ومضت ايام وسنون ومفرج وزوجته في رغد من العيش وبسرور وهناء ليس بعده سرور . استمر هذا النعيم على مفرج وابنة عمه مدة من الزمن واخيرا مال عليهما الدهر وهلكت

ما شيتهما وتشتت شمله وذهب ماله وبقي اجوف خالية يده من جميع متاع الدنيا .

فهذه الفاقة الشديدة والضرورة الماسة اوجدت في نفس مفرج عاملاً قويا يحدوه على ان يلتمس السبيل الذي يلتجىء إليه لينقذ نفسه من قيود الفقر الذي هو اثقل القيود على نفوس البشر وخاصة النفس الكريمة الأبية ، فبعد ان ضاقت الدنيا بوجهه وتعذرت عليه شتى الأسباب الإيجابية فلم ير الآن بدا إلا أن يذهب الى صاحبه « المهادي » الذي يجزم انه في بحبوحة من العيش وحياة مزدهرة وسرور ليس بعده سرور ؛ هذا وقد ذهب «مفرج» الى ضيفه السابق المهادي ونزل بضيافته ليلاً هو وعائلته وأبناؤه الثلاثة فلم ير المهادي ساعة أبرك عليه وأسعد بل ولا أشرف وألذ من زيارة مفرج له لا سيا بعدما رأى أثر الفقر على وجهه ووجوه ابنائه المجعدة الشاحبة وكان المهادي يعتبر مجيء مفرج له من دلائل سعادته ومن علامات توفيقه في الحياة وطيب حظه وأكبر ما يتمناه المهادي أيضاً ان صاحبه أتاه من فاقة شديدة حتى يشاركه في ما يملك ويغدق عليه من الدنيا لينسيه الفقر ويدخل على قلبه السرور ، وظاهر أمر مفرج يعطي المهادي دليلا واضحاً على فاقته ، لهذا بادر المهادي مسرعاً بأمره لإحدى زوجتيه وهي صاحبة البيت الكبير أن تخلي البيت بما فيه

من فرش وأثاث وتتركه لضيفه وصديقه مفرج ليسكنه هو وعائلته وقد نفذت زوجته أوامره فوراً وسلمت البيت وما فيه لزوجة ضيفهم وخرجت بنفسها ولم تحمل معها من البيت قليلاً ولا كثيرا ، وقبل أن تبارح بيتها تذكرت أن ابنها يسهر مع فتيان العرب ولا يعود إلى مضجعه إلا بعد منتصف الليل ، وعادة إذا عاد يبيت على طرف الفراش الذي تبيت عليه والدته . لذلك نبهت والدة الفتى التي هي زوجة المهادي زوجة ضيفهم وأعلمتها أن ابنها الآن يمرح مع الصبيان في مكان بعيد عن منازل العرب و بعد منتصف الليل سوف يعود هذا الصبي إلى البيت وأكدت عليها أن لا تنام حتى يأتي ابنها وتشعره بأن والدته بارحت البيت وذهبت إلى بيت أهلها وقد تعهدت الضيفة لأم الصبي أنها ستظل يقظة حتى يأتي الصبي وترشده بالأمر الواقع ، وقد كانت الضيفة صادقة بتعهدها ، ولكن النوم كما يقول المثل سلطان جائر ، ولكنها سهرت قليلاً ثم غلب عليها النوم فنامت نوماً ثقيلاً وذلك لطول السفر والمسير البعيد فأهملت وصية أم الفتى ، فأتى الشاب كالمعتاد ورفع طرف فراش والدته ونام عليه وبقي نائماً في طرف الفراش والضيفة على طرفه وكلاهما ملتحفان في غطاء واحد وفراش واحد هذا وقد كان « مفرج » يسمر مع صاحبه «المهادي» صديقه القديم ، والمهادي حريص على أن يؤنسه ويسليه ويدخل على قلبه

السرور والمرح بقدر ما يمكنه ، وبعد أن مضى أكثر من نصف الليل استأذن الضيف من صاحبه المهادي ليذهب وينام فأذن له صاحبه وسار يشيعه حتى أدخله على بيته الذي وهبه له ، فلما كشف الفراش وجد زوجته نائمة وبجانبها فتى يناهز العشرين فاندهش من هذا المنظر الشاذ فخبط برجله على قلب الشاب خبطة قوية بغير شعوره فشهق الفتى شهقة فارق بها الدنيا، فاستيقظت زوجته فوجدت هذا الفتى مصروعاً بجانبها ونظرت إلى زوجها وإذا غيرته وحماسته طاغيتان على عقله فصاحت بوجه زوجها « ويلك قتلت ابن الأمير » عندها استعاد الزوج رشده واستفسر من زوجته وهو لا يزال في ثورة الغضب « من هو ابن الأمير ؟ ما الذي يجعل ابن الأمير يأتي إلى فراشي ؟ ومتى عرفت ابن الامير ؟ »

الزوجة « هذا ابن المهادي أخبرتني عنه أمه بأنه يأتي إلى بيت أمه ويرقد على طرف الفراش وقد نبهتني أمه بذلك ولكن استولى عليّ النوم ورقدت »

مفرج : « يا لها من مصيبة كبرى فكيف المخرج من هذا المأزق الحرج »

الزوجة : « مالك إلا أن تذهب إلى المهادي وتخبره بما قدر الله وقضاه » .

مفرح : « لا محيص لي من ذلك » .

ذهب مسرعاً قاصداً المهادي فوجده جالساً في الموضع الذي كانا فيه سوياً فدنا منه وقص عليه الحادثة ، وكان مفرج مرتبكاً عندما قص عليه القصة ، بينما كان المهادي بمنتهى الهدوء ومتانة الأعصاب ، وراح يُطَمْئِن مُفرّجاً بأن الحادثة لا قيمة لها عنده وأنه أمر قدره الله وطلب من مفرج ألاّ يعلم أحدا قطعياً وأن يحذر زوجته ألاّ تبدي هذه القضية لاي شخص كان حتى ولا لأولادها وهب مسرعاً وحمل ابنه على ظهر فرسه وألقـــاه في الموضع الذي يمرح به الصبيان ويلعبون به في ليلهم ، وعاد راجعاً كأن لم يكن شيء من ذلك كله ، فلما تجلى النهار وجد الناس ابن المهادي ميتاً في ملعب الفتيان فكل من رآه سكت خشية أن يتهم ابنه به حتى ارتفع الضحى وشاع الخبر عند العرب جميعاً وتسرب إلى والد المقتول الذي هو أمير القوم ، الآن انفعل المهادي واستمل غضبه المصطنع وصاح على عربه وطالبهم جميعاً بدم ابنه أو أن يخبروه بالشخص القاتل ، ولكنه لم يجد من يجيبه على كلامه ، وأخيراً عقد جلسة حضرها عموم الشخصيات من كبار قومه ودار الحديث فيما بينه وبين هؤلاء الكبـــار وآخر الامر تم البحث على تنفيذ ما يلي :

أن تحصى نفوس العرب جميعاً وخاصة الاغنياء منهم ويجعل على كل

فرد منهم ناقة من أطيب الإبل » . ووافق القوم على ذلك ، فما غابت شمس ذلك النهـار إلا وقد اجتمع ما يقارب ثلاثمائة ناقة من خيرة الإبل عند بيته فساقها القوم وسلموها لأميرهم المهادي دية لابنه ، استلمها المهادي وذهب إلى الضيف الصديق وأشعره بأن هذه الإبل هي ملك له وإنما تبقى الآن مبدئياً بين إبل المهادي حتى تنقشع هذه السحابة المصطنعة . أما أم الفتى التي هي زوجة المهادي فإن المهادي ساق لها عـــدداً من الإبل دِيَةً منه لابنها وبعد مضي مدة من الوقت ادخل المهادي هذه الإبل على صديقه القديم واصبح مفرج من كبار أثرياء البادية ولم يزل لِمُفَرِّج في جوار صاحبه المهادي وبقي الاثنان كالأخوين لا يفترقان ، وإذا جلس المهادي ومفرج في مجلس يضم الإثنين كان صدر المجلس والحـــديث لِمُفَرِّج هو صاحب المكان والمهادي كأنه غريب، مضت سنوات غير قليلة وهما خليلان صادقان .

فإذا أردنا ان نبحث عن أساس الصلة التي بنيت على أساسها صداقة المهادي ومفرج فإننا نجد ذلك ناشئاً عن غرام المهادي بتلك الفتاة وعلى ضوء تلك الحادثة الغرامية توطدت أواصر المودة والولاء بـــين كل من المهادي القحطاني «ومفرح السبيعي» لأنها ولاشك كانت محكاً لأخلاق الشخصين ولقد عبرت عن عراقة أصل وشيم كلا الصديقين .

ولكن الحادثة الغرامية الآتي ذكرها ، تختلف كل الاختلاف عن حادثة المهادي ، وان تشابهت الأسباب والوسائل فإن غاية الاثنين متباينة تبايناً كلياً :

وإليك شرح الثانية الوخيمة القذرة :

كان للمهادي فتاة جميلة الصورة ابتلى بحبها أحد أبناء « مفرج » فذهب يلتمس الوصول إليها بغير السبيل الشرعي [1] فلا يترك فرصة من الفرص

(١) لا اعلم لمـــادا حرص هذا الشاب على الوصول الى هذه الفتاة عن طريق السفاح ؟ ولم يحاول ذلك عن طريق النكاح المشروع . لا بد من ان يكون هناك عوامل اساسية تحول دون الوصول اليها بالزواج الشرعي فقد تكون هـذه الفتاة (محيرة) لابن عمها ومعنى (المحيرة) هو ان ابن عمها الأدنى يقول « اني محير ابنة عمي فلانة » معناه انه منعها منعاً باتاً ان تنكح رجلاً غيره . فعند ذلك لا يستطيع عمه ان ينكح ابنته من اجنبي إلا برضى ابن اخيه . فان زوّجها من غيره بدون إذن منه يصبح مهدداً بالقتل من قبل ابن اخيه ، كما ان الزوج نفسه يصبح عرضة للتنكيل . وهذه العادات لا زال لهـــا بعض الأثر في البادية وهي في طريقها الى التلاشي . المقصود ان ابن مفرج ما سعى وراء هذه الفتاة وحاول الوصول اليها من طريق الفاحشة إلا والسبيل المؤدي اليها بطريقة شرعية غير متيسر . ولا نـدري ايضاً فيما اذا كانت الفتاة غير محيرة وكان بامكان الشاب ان يطلبها من والدها بكل سهولة ولكن نفسه الخبيثة لا ترى لذتها إلا من طريق الحرام .

ونحن نميل الى الرأي الأخير لمـا يظهر لنا من دناءة نفسية الفتى ونجده اقرب للصواب .

التي تكون فيها الفتاة آمنة مطمئنة وفي خلوة من الناس : إلا اغتنم هذه الفرصة مع الفتاة و بدأ يغازلها و يداعبها و يحاول أن ينال من عرضها بقدر ما يمكنه .

هذا و الفتاة تخبر والدتها بالواقع من أول الأمر الى أن تمادى السفيه في جهله وشقاوته وكانت والدة الفتاة أيضا تخبر و الد الفتاة ، وقد كان يوصي زوجته بأن تحرص ابنتها على ألا تفشي هذا السر لأي أحد كان. وأن تحرص ايضا على أن تبتعد عن الشاب بقدر ما تستطيع ، وقد كانت الفتاة منفذة لأوامر والدها ومطبقة لوصيته عملياً قبل ان يأمرها بذلك ، فازدادت بوصيته حرصاً فوق حرص . ولكن حرصها لم يفدها شيئاً امام الشقي ، فكان يزداد تماديا في سفاهته وضلاله .

مضت مدة طويلة وعفة الفتاة مهددة بخطر من هذا الشاب الفاسق . وأخيرا تقلص صبر الفتاة و بكت امام والديها واعلنت لهما بصريح العبارة أن الشاب أصبح منها قاب قوسين أو ادنى ، واوضحت لهما انه على استعداد كامل ان يفترسها عند اول خلوة يخلو بها ؛ و بصفتها انثى بطبيعتها ضعيفة امام الرجل فلا تستطيع أن تدافع عن نفسها اذا همَّ هذا الفاجر بها وان مقاومتها لا تثمر شيئاً .

هذا وقد كان والدها على أحرّ من الجمر فلا يعلم ماذا يفعل ؟ وماذا يتخذ من الحيلة لحل مشكلته؟ فهو إن صرح لصديقه والد الشاب بالجريمة التي ينتوي ابنه تنفيذها فان صديقه سيعاقب ابنه اشد العقاب لا محـــالة ، والمهادي لا يريد أن يصاب ابن صديقه بسوء بسببه ولا بغير سببه لأنه يعتبر ابن صديقه كأنه ابنه بل ربما يرى له من حرمة الجوار ووفاء الصداقة الشيء الذي يفوق حرمة الابن عند والده ، ولكن المصيبة الكبرى ان الشاب لا يراعي للجوار حرمة فهو لا يضع نصب عينيه إلا الفرصـــة التي تمكنه من هذه الفتاة ، ليهجم عليها ويستبيح عرضها بأية وسيلة كانت ، هذه هي أمنية الفاجر التي كان يحلم بهـــا . والمفهوم أن والد الفتاة علم من طريق ابنته العلم اليقين بنية المجرم التي يحوكها لابنته لهـــذا اضطر أن يحجب ابنته عن الخروج ، وان خرجت لطريق ما تولى حراستها بنفسه . ومضى وقت غير قصير والحالة مستمرة على ذلك والشاب المعتدي ليس له شغل يشغله إلا مراقبة الفرصة السانحة التي يثب بها على الفتاة ووالدها يلاحظ حركات المجرم بعينه فما يزيده ذلك إلا حرصاً على حراسة ابنتـــه .

ومضى وقت غير قليل والحالة متواترة على هذا الشكل ، وأخيراً فرغ صبر الشيخ وطالت عليه ليالي الحراسة من هذا المعتدي الغشوم فهب

يلتمس انجع الوسائل والأسباب التي يأمن بها على عرض ابنته . فرأى أن أيسر الطرق وأهداها هو إمـــا أن يرحل عن جاره « مفرج » ويتركه هو وابنه المسيء أو أن يرحل جاره عنه ويبعد عنه الخطر المهـــدد لعرض ابنته . هذا هو المخرج الوحيد الذي ينجو به من آفة هذا الطائش الذي سعى بافساد ما اصلحه الصديقان سنين عديدة .

أصبح المهادي يرى أن فراقه لصديقه أمر لا محيص منه فهب يلتمس حيلة يلمح بها لصاحبه بالرحيل عنه لأنه شق عليه أن يصرح له بذلك فوجد أن هنـــاك لعبة تسمى عند البادية « البيَّه » وهي المسماة عند الحضر « الدامة » فطلب المهادي من جاره ان يتسلى وإياه ويلعبا هذه اللعبة . فلبّى مفرج طلب صاحبه ولعبا معـــاً . وعندما كان ينقل المهادي احدى آلات هذه اللعبة من موضع الى موضع كان يقول لمفرج « ارحل وإلا رحلنا » .

انتبه جاره لهـــذه العبارة لأن المهادي اعادها عدة مرات واندهش دهشة عظيمة لأن المهادي لا يمكن أن يصرح بمثل هذه العبارات الا أن يكون هناك دافع قوي ألجـــأه إلى ذلك ، ومفرج لا ينسى أنه أراد في أول الأمر أن يستأذن من المهادي ويذهب إلى عشيرته (سبيـــع) أراد ذلك بعد أن وهبه المهادي الإبل التي دفعتها عشيرته دية لأبنه . ولكـــن

المهادي أبى ورفض ذلك وأصر كل الأصرار على أن يبقى بجواره حتى يفرقهما الموت . فكأنني بلسان حال مفرج يقول : ما هـــذا الانتكاس الذي جعل المهادي يكرر عبارته « ارحل وإلا رحلنا » ولقـــد أيقن مفرج اليقين القاطع أن هنـاك حادثاً خطيراً اضطر المهادي إلى أن يقول تلك العبارة .

ولما كان مفرج غريباً بين عشيرة المهادي فإنه لم يستطع أن يسر لأحد أمره ويشكو إليه مصيبته التي ألمت به وهي رغبة المهادي بفراقه ، لم يجد مفرج احداً يشكو إليه إلا زوجته التي تبادل معهـــا الرأي فاضطر إلى أن يخبرها بكلمة المهادي له « ارحل وإلا رحلنا » فـاجتمع رأي الزوجين على أن هناك أمراً عظيماً شعر المهادي بضرره فرغب بالفراق حسماً للخطر .

وقد استقر رأيهما على أن يذهب مفرج إلى المهادي ويستأذن منه بأن يرحل إلى قبيلته ، فذهب إليه وقال له : إني مشتاق إلى زيارة أهلي الذين مضى على مفارقتي لهم عدد من السنين. فقال المهادي : حسن ،لك ما تشاء. فلما سمع مفرج جواب صاحبه الذي يدل على عدم الاكتراث بفراقه بل رآه يستقبل النبأ بكل فتور ولا يبدي أي أسف أيقن يقيناً لا ريب فيه أن صاحبه يكتم في صدره أمراً خطيراً وأنه يرغب في الفراق رغبة

أكيدة .

ذهب مفرج وهو يحس بحرارة الألم وأعد رواحله فوراً ورحل . وفي طريقه مر على صديقه المهادي فودعه ثم واصل سيره مولياً وجهه شطر قبيلته، وكل ما يتمناه هو أن يعرف الاسباب التي أثرت على عواطف صديقه الحميم فجعلته ينفر من جواره بعد أن كان يعز عليه فراقه . فكر طويلاً ليعرف هذا السر الغامض . فتكاثرت عليه الظنون وقال في نفسه ربما يكون بعض الأعداء قد وشى بي عند صاحبي ، ولكنه يعرف أن صديقه رجل رزين لا يمكن أن تؤثر عليه وشاية الواشين، فحصر تفكيره بناحية واحدة ، واتجهت ظنونه نحو أولاده الثلاثة، ورسخ في ذهنه أنه لا بد أن واحداً من هؤلاء الفتيان سولت له نفسه بانتهاك حرمة صديقه المهادي . وقد اختمرت في ذهن مفرج هذه الفكرة ولكنه أحب أن يستوثق منها .

وكان مفرج يعرف أن المهادي شاعر مطبوع فقال في نفسه لا بد من أن المهادي ستتفتق قريحته ويعزف على ربابته [1] القصيدة التي تعبر

---

(١) الربابة : آلة موسيقية عند البادية وهي ابلغ شيء يطرب من نغماتها العربي فيما إذا كانت القصيدة يتطرق معناها الى حزن وشكوى وآلام فلا يمكن ان يسمع العربي او يرى ما يثير شجونه وآلامه مثل الربابة والحقيقة ان لها اثرا عظيماً=

عن حقيقة أمره وواقعه الحالي وعلى ضوء هذا التفكير سار مفرج بنفسه وترك زوجته وأولاده وقصد منزل صديقه المهادي حيث وصله ليلاً فبقي متوارياً من خلف رواق البيت ، فلما انتصف الليل وأيقن المهادي أن العرب ناموا جمعاً هناك تناول ربابته وأنشد هذه الأبيات :

(١) يَقُولَ الْمَهادى وَالْمَهْادِي مُهْمل[1] لَوى علّتي جميع الوَرى ما دَرا بْها

(٢) « أَنا إن بينتها بَانتْ لْرَمّاقة العْدا
وَإن كنيْتهــا ضَاق الحَشا بالْتهِا بْها

(٣) ثمان سْنِيْن وَجارنا مُجرم بِنا وَهو كَماواطي جمرةٍ مَا دَرَا بْها

= في نفسية العربي، خاصة إذا كانت القصيدة محزنة .ولا يمكن ان يعرف احد ما للربابة من تأثير في شعور العربي وعواطفه إلا من يتذوق نغماتها ويعرف معـــاني القصيدة الشعبية التي تلحن على اوتارها .

وحذار ان يظن القاريء ان الربابة التي يحملها (النور) المنحطون هي نفس تلك ، ليس كذلك لأن الأولى لا يترنم بها إلا الابطال او من يحذو حذوهم في اندية العرب ومجتمعاتهم ، وتتطرق الى معان جمة في عموم حياة البادية الاجتماعية والحربية والادبية مع انها الآن لا اثر لها خاصة في بادية نجد . اما الثانية فهي آلة هزلية تحترف بها فئة سافلة من حثالة البشر .

(١) عرف عند عموم رواة العرب بأن اسمه (مهمل) لا محمد ولكني ارجح ان اسمه محمد لانه إذا كان (مهملا) فلا معنى لاسمه ، واعتقد انه قلب من محمد الى مهمل .

(٤) رَحلْ جارَنا ما جَاه منَّا زرِية وَلَوْ جتَنا منه ما جَاهْ مِنَّا عتابها

(٥)نرفو خمالَ[1] الجارْإلى داس زلةْ كما ترفو بيض العذارى ثيابها

(٦)ترىْ جارنا القالط[2] على كل طَلْبَهْ ولو كان مَا يَلقَى شُهودٍ غدا بَها

(٧) أَلْأَجوادْ إذا قارَبتَهمْ ماتمَلّهم وَالْأَنذال إذا قاربتها عِفتْ ما بها[4]

(٨) ألاجوادْ مثلَ العِدُ من وَرْدِهِ ارْتوا[3]

والأَنذالْ لا تِسِقّي ولا يِنْسِقَى بها

(٩) الاجوادْ مثل البدْر في ليلةَ الدُّجا

والانذالْ ظَلْما ضَايعٍ من سَرى بها

(١٠) الأُجوادْ مثلَ الزَمل للشيلْ يِترْتِكِي[4]

والانذال مثل الحَشوْ ، كثير الرّغا بها

(١١)وَلّى عجوز من سبيع آل عامر مضَيّعَةٍ غِرّانها في شبابها[1]

(١٢) أَقسمتْ يا ارضٍ خَلَتْ من مُفرّج

مـا أَبغاهـا لَوْ هو زعفرانٍ ترابَها[2]

---

(١) الخمال : العيب . (٢) القالط : الفائز . طلبه : دعوه . (٣) ما بهـا : ما بهم . (٤) العد : البئر .

(٢) الزامل : الجمال القوية . الحشو : اولاد الجمال الصغيرة . الرغا بهـا : الصياح أي كثير الصياح والملل .

(٣) ولي . ابتعدي . غرانها . اطفالها .

(٤) ما ابغاها . لا اريدها .

شرح الابيات

(١) « يَقولُ الْمَهادِي وَالْمهادِي مُهْمَل

لَوى عِلّتي جَميع الملاَ ما دَارا بهـــا »

يقول انني انا المهادي ابتليت بمصيبة عظيمة وقد طويت عليها نفسي ولم يطلع عليها أحد من بني البشر . ومن المسلم بـــه أن أعظم المصائب أثراً في النفس هي المصيبـــة المكتومة التي لا يجد صاحبهـــا من يبديها له .

(٢) « أنا إنْ بَيّنْتَها بانَتْ لِرَمّاقة[1] الْعِدا

وإن كَنّيتها ضاقَ الَحْشا بِالْتهابِهـــا »

يشير صاحبنا الى البلية التي ابتلى بها وهي مراودة ابن جاره لفتاته من ناحية ومفارقته لصديقه العزيز عليه من ناحية اخرى ويقول : إنها علي من أدهى الملمات والرزايا ويعطينا دلالة على شدة تأثره بها فيقول إنه لا يستطيـع أن يفشيها فيشمت به أعداؤه كما أنه فرغ صبره من تحفظـــه وكتمانه لها .

---

(١) الأعداء الشامتون .

(٣) « ثَمَانْ سِنِيْنْ وَجَارَنا مُجْرِمٍ بِنَا
وَهُوْ كَمَا وَاطِي جَمْرَةٍ مَا دَرَا بِها »

يؤكد الشاعر أن هذه الإساءة التي صدرت من ابن مفرج ليست قضية أيام أو أشهر ولا إساءة سنة أو سنتين بل إنها ثماني سنوات والإساءة مستمرة بشكل عنيف ورغم هذه المدة الطويلة يؤكد لنا المهادي أنه لا زال يتجلد ويصبر ، ويقول من المصيبة أن والد المجرم أي صديقه مفرج لا يعلم شيئاً عن المصيبة التي ابتلي بها بسبب ابنه والعار الذي أراد أن يلبسه الإبن أباه . ويصف لنا حالة صديقه مفرج أنه أشبه ما يكون بالمرء الذي وضع قدمه على نار متوارية عن نظره وهو لا يراها ولا يحس بحرّها لسبب ، إما أنه ينتعل نعلاً يقيه أذاها أو بسبب موت جلد قدمه فأصبح لا يتألم وإن كانت النار تأكل لحمه وذلك على رأي أبي الطيب المتنبي في الشطر الثاني من هذا البيت :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وهو إذ يصف مفرجاً بهذا الوصف يعتقد أنه لو علم بالجريمة التي يحاول ابنه ارتكابها لكانت المصيبة على مفرج أكبر وأعظم مما هي على المهادي لهذا يقول :

(وَهُوْ مِثْل وَاطي جَمْرَةٍ مَـــا دَرَا بَهَا)

(٤) «رَحَلْ جَارِنَا مَا جَاهْ مِنَّا رَزِيَّهْ
وَلَوْ جِتْنَا مِنْـــه مَا جَاهْ مِنَّا عِتَابِهَا»

يقول إن جاره رحل من عنده بدون أن تأتيه أذية منه بل يقول ولو فعل جارنا بنا الدنيئة وأساء إلينـــا بجيرته لنا فلا يمكن أن نعاتبـــه على إساءته لنـــا بل نتسامح، ونغض الطرف عن جريمتـــه مهما عظمت وكُبرت.

(٥) «نرْفُو خَمَالْ الْجَارْ إلى دَاسْ[1] زَلّه[2]
كَمَا تَرْفُو بيْض العَـــذارى ثِيابهَـــا»

يزيد تأكيداً في هذا البيت بأن حرمة الجار في نفسه عظيمة عظمة بالغة ويوضح لنا أن جاره لو تمادى في إساءته فإنه يقابله بأحسن منهـــا ويحاول أن يستر هـــذه الإساءة حتى لا يطلع عليها الناس لهذا قـــال «نَرْفُو كَمَا تَرْفُو بيض العَذَارى ثِيَابهَا» أي كمـــا أن المرأة إذا انشق

---

(١) داس : بمعنى إذا فعل. (٢) زلة. بمعنى خطيئة.

ثوبها الذي يستر عورتها وتتجمل به تحرص كل الحرص على أن ترفو هذا المكان حرصاً على تجملها وستراً لعورتها ، وكذلك يقول نحن نفعل ما استطعنا لنستر جريمة جارنا . فيما إذا أخطأ وتجاوز الحد بخطيئته وضرره

(٦) « ترى جارنا القالِطْ [1] عَلَى كلْ طَلْبَهْ [2]

وَلَو كان مَا يَلقى شهودٍ غَدا بهَا »

يقول لنا المهادي إن الجار مقدس عنده وإنه إذا ادعى بقضية ما وطالب بها فإنه يحكم له بصحة ما يدعيه ويعتبر أن دعواه هذه قضية مسلم بها حتى ولو أنه لم يستطع أن يأتي بالبينة التي تثبت دعواه ولا بالشاهد الذي يشهد له بثبوت حجته . ومنطق المهادي يقول : إنه لا يطالب جاره بشيء ، بل يتركه له وهو راض ومطمئن الضمير .

(٧) « ألأَجْوَادْ إذا قَارَبْتَهُم مَا تَملَّهمْ

والأَنذَالْ إذَا قارَبْتَهَا عِفْت مَابهَا

يمتدح الشاعر نفسه دون أن يصرح بذلك فيقول: ان الرجل الطيب المعدن تجذبك خصاله اليه فكلما اقتربت منه ازددت رغبة فيه ومحبة له وإعجاباً به . ويعطينا دليلاً صادقاً بأن الأمجاد والأجواد لا يشعر

---

(١) القالط : اي المقدم . (٢) طلبة : اي دعوة.

صديقهم ولا جارهم بأي سأم ولا ملل مهما طالت أقامته عندهم .وفي الشطر الثـــاني يفيدنا أن الانذال اذا قرب منهم المرء عافهم ورأى أن سلامة عرضه منهم هي الكسب الوحيد لهذا تراه أشار بقوله : (وَالأَنْذَالْ إذَا قَارَبْتَهُمْ عِفت مَا بَهَا) والأصح أن يقول « عفت مـــا بهم » ولكن ضرورة الشعر ألجأته إلى ذلك .

(٨) « ألأَجْوَادْ مِثْلِ ٱلعدّ[١] منْ وَرْدَه ارْتَوى
وَالأَنْذَالْ لاَ تُسْقِي وَلاَ يُنْسَقى بِهَـــا »

معنى هذا البيت منسجم تماماً مع معنى البيت الذي قبله . إلا أنه يوضح أن الأخيار أقرب ما يكونون شبهاً بالبئر الغزيرة المـــاء التي لا ينقص ماؤها من كثرة الواردين منه مهما زاد عددهم وأما الأنذال فهم على عكس ذلك .

(٩) « الأَجْوَادْ مِثْلَ ٱلبَدْرْ في لَيْلَةِ ٱلدُّجى
وَٱلأَنْذَال ظَلْمَا تَايهٍ مَنْ سَرى بها »

وهذا ايضاً قريب المعنى من البيتين الأولين . فهنا يصف لنا مدى فضل الاخيار على الأنذال ويهدينا إلى التباين البعيد بين الطرفين فيقول:

---

(١) العد : البئر الغزير ماؤه .

إن الأخيار لهم علامة فارقة تميزهم عن غيرهم من سائر النـــاس وأنهم أشبه ما يكونون بالبدر في كمال نموه • ثم يعود ويصف الأنذال فيقول: انهم كالليل المدلهم الذي لا يستطيع احد ان يسير فيه . وإن سافر فيــه مسافر للضرورة فإنه سيخطىء الطريق لشدة ظلمته وقلة العلامـــات التي يهتدي بها المسافر .

«١٠» « أَلْاَجْوَادْ مِثْلَ أَلزَّمْل (١) لِلشَّيل تَرْتَكِي

وَأَلأَنْذَال مِثْلَ الحَشو كثير الرغـــا بَهـــا

في رأي الشاعر ان الاخيار مهما تكن المصائب بهم جليلة وخطيرة فإنهم يتحملون صعوبتها كما تتحمل الجمال «الزمل» الحمولة الثقيلة. ثم يذهب بنا الشاعر إلى وصف نفسية الأنذال ويقول: إنها منحطة الى آخر ما يعبر عنها ، فكما انه وصف الأخيار بالجمال لاحتمالهم المشاق فكذلك وصف الأنذال « بالحشو » والحشو هي ابناء الإبل الصغـــار التي لا تستطيع ان تتحمل من الحمولة ما تتحمله الجمال القوية •

١١ « وَلِّيْ (٢) عَجُوزٍ مِنْ سَبيْعِ أَلْعَامِر

مُضَيِّعَتْ غِرَّانهاَ فِي شَبَابَهـــا »

أرى أن هذا البيت أبلغ ما في القصيدة إذ أن فيه حكمة وبياناً قوياً.

---

(١) الزمل : الجمال الشديدة القوية . (٢) ولي : اي ابتعدي .

فالمهادي هنا يريد أن يوضح لنا أن السر الذي جعل ابن جـــاره فاسد الأخلاق إلى حد أنه يحاول فعل الفاحشة بابنته وهو يعلم ان المهادي عند والده بمنزلة أعظم من منزلة الأخ الشقيق ورغم هذه الأخوة الصافيـــة الصادقة المتبادلة بين الطرفين لم يرتدع عن مراودته لأبنته . فالمهادي يؤكد أن السر الوحيد الذي أفقد هذا الصبي المناعـــة الخلقية هو عدم تربية والدته له . فهو يعتقد أن والدته لو أحسنت تربيته أولاً وهذبت أخلاقـــه وأفهمته ما للجار والصديق من حرمـــة وحقوق في نفوس العرب ، لو أرشدتـــه إلى ذلك منذ نعومة أظفاره لما انحطت نفسه إلى هـــذا الحد [1] .

وهو يقصد بقوله « وليّ عجوز » أي قبحك الله من عجوز عندما كنت شابة أهملت توجيه ابنك حتى كانت اخلاقه سيئة بهذا الشكل [1]

---

(١) لقد حمل المهادي المسؤولية كلها على والدة الفتى لاعتبارها الأم ، والأم بلا شك هي مدرسة الحياة الأساسية فان صلحت صلح الابن وبالعكس وهذا ما ذهب إليه الشاعر حافظ ابراهيم بقوله :

الأم مدرسة إذا اعددتها اعددت شعباً طيب الأعواق

(٢) لم أجد المصدر الذي يفيدني عن هذه العجوز التي يشير اليهـا هل هي تلك الفتاة التي اغرته ابان صباها واستولت على لبه . أم هي غيرها ، وبذلك تكون تلك الحسناء قد فارقت زوجها مفرج بموت أو طلاق . انني اجهل الأمر .

وفي هذا البيت دلالة واضحة على ان هـــذه العجوز من غرب سبيع آل عامر يعني بذلك انها من قبيلة سبيع المتفرعة من بني عامر وسبيـع بادية مدينة الرياض .

١٣ « أقسَمْتُ يا ارْضٍ خلَتْ مِنْ مُفرّجْ

ما أبْغاها لو هو زعفرانٍ ترابهَا »

يقسم بطل الحادثة على نفسه بأنه لا يمكن ان يسكن في الأرض التي رحل عنها صديقه مفرج لأنه لا يرى المكان الذي كان يسكنه جـــاره مفرج إلا ويزداد حزنه وشوقه إلى صاحبه . لهذا يقول إن الأرض التي أرى فيها آثار جاري وصديقي يتحتم عليّ هجرانها والنزوح عنها حتى ولو كان ترابها زعفران والزعفران اشبه ما يكون بالورد رائحة وهو اصفر اللون .

والقصيدة اكثر من هذه الابيات وانما تركنا البقية واخذنا ما فيه شاهد ودليل على صحة الحادثة .

لقد ترنم الشاعر في قصيدته ، وانتهى منها ، وصديقه مفرج خلف بيته يستمع لهذه القصيدة ولم يفته شيء من اولها الى آخرها ، فعاد مسرعاً إلى اهله ، ولم تذق عينه النوم حتى اسفر الصبح .

لقد اتضح له بأن احد اولاده اساء الى عرض صديقه المهادي ، اتضح

له ذلك من معنى البيت الثاني عشر الذي يلوم فيه العجوز على عدم تربيتها لأبنائها . وانما الذي اشكل على «مفرج» الآن هو معرفة المجرم من ابنائه وهل هو فرد منهم ام اثنان ام جميعهم ولكنه دبر حيلة استطاع بهـــا ان يعرف المجرم منهم ، وذلك انه ينفرد بكل واحد منهم على حدة ويداعبه مداعبة القرين لقرينه حتى يجرئه على نفسه بحيث يصبح الولد لا يهاب والده ثم بعد ذلك يقول : « إنني يا بني أتمنّى ان اكون شاباً في شبابك وقوتك لكي استطيع ان أغري بعض الفتيات بشبابي ، ثم يستطرد ويقول : « كم كنت اتجرع الغبن والحسرات عندما ارى بنت المهادي تلك الفتاة الجميلة التي لا اتمنى في الدنيا إلا ان اكون شاباً مثلك حتى اتمكن من ان اتمتع بها بأي شكل كان .

بهذا المعنى كان الشيخ يتحدث مع ابنائه كل واحد منهم على حدة . فأما البريء من اولاده فكان يؤنّبُ والده ويلومه بقوله : « هذا يا والدي عيب عليك ان تحكيه كما انه عيب علينا ان تحدثنـــا انفسنا بارتكاب الفاحشة ، فلو حدثتنا انفسنا بعملية كهذه لما فعلناها مع ابنــة صديقك الذي نرى له من الولاء والاخـــلاص والحق والواجب ما نراه لك يا والدنا » .

هكذا كان جواب كل بريء من ابنائه ، عندما يختلي به ، فلما وصل

إلى صاحب الجريمة وداعبه كما كان يفعل مع الآخرين عند ذلك قفز المسيء وقال : « والله يا والدي لو أقمنا عندهم ليلة واحدة لأزلت بكارتها » .

فقال الولد وهو يبتسم ابتساماً مصطنعاً : وهل كان ذلك عن رضاء منها ؟ قال الأبن : لا بل كنت ناوياً أن اغتصبها »

قال الشيخ وهو يكظم غيظه : « ما هي الطريقة التي كنت ناوياً تنفيذها لاغتصابك هذه الفتاة ؟ »

قال الابن : « كنت أترصد الفرصة التي أغتنمها ومن ثم اهجم عليها والخنجر بيدي اليمنى والحبال التي أشدها بها بيدي اليسرى ، وهي بطبيعة الحال سوف تخاف وتسلم نفسها وبهذه العملية استطيع ان أقضي وطري منها بكل سهولة » .

عندما انتهى الشاب من قصته الدنيئة قفز الشيخ وذهب مدبراً عن ابنه ثم استدار من خلفه وفي غفلة من الابن جرد سيفه وضرب عنق ابنه المجرم ثم أدرج رأسه في قميصه ، وترك جثمان ابنه في مسافة بعيدة عن اهله .

عندما وصل « مفرج » إلى أهله نادى بهم أن احضروا لديَّ فحضر الولدان وامها ، فسألهم عن عدم وجود الفتى المقتول

متجاهلاً .

فأجابه أحد ابنائه بقوله : آخر عهدنا به حينما ذهب بصحبتك .

فقال : وهو لا زال بصحبتي الآن . ثم صمت قليلاً فغشي الجميع جو من الهدوء ومن بعد افتتح الشيخ الحديث مع زوجته وأولاده وقص عليهم اسباب صداقته مع المهادى وتاريخها إلى ان وصل إلى الأمر الذى أوشك ان يكون سبباً لانفصام عرى الصداقة .

فقال : إنها لصداقة متينة الأساس، راسخة الأصل ،ساميةالفرع بعيدة المدى، ولكن شاء أن يكدر صفوها ويقضي على كيانها عضو من اعضائي وهو لا شك عضو فاسد إن تركته سرى فساده إلى الجسد كله فأفسده لهذا استسغت قطع هذا العضو كي لا يسرى فساده إلى بقية الجسد [1] .

فبعد ذلك صرح لزوجته وولديه بالأمر الكائن . ثم انتدب أحد ولديه وكلفه ان يحمل رأس اخيه و يذهب به إلى المهادى و يضعه بين يديه

---

(١) ربما اني تصرفت بشيء من لفظ مفرج ولكنني لم اخرج عن جوهر المعنى الذي يرمي اليه.

فلبى الفتى كلام أبيه ، وحمل رأس اخيه حتى وصل المهادى فوجده جالسا في بيته فسلم عليه ثم طرح رأس أخيه بين يديه ثم انصرف حسب ارشادات وتعاليم ابيه .

لقد دهش المهادي من هذه العملية وشعر آنذاك أن صاحبه أدرك السر الذى جعله يلمح له بتلك الجملة « ارحل وإلا رحلنا » .

الآن ازدادت آلام المهادى وعظمت مصيبته عما كانت ، وإني أجهل كما يجهل كثير من الرواة ما فعل المهادى بعد ذلك ٠ هل ذهب إلى صاحبه وأقسم عليه ان يعود الى جواره أم انه لحق به وبقي جاراً له كما كان مفرج جاراً له بالأمس ؟.

هذا واني لا استبعد ان يكون عند القراء شيء من الشك في صحة هذه القصة لما فيها من الروعة والتفاني في التضحية ولكن ليطمئن القراء ان هذه القصة قد بلغت اقصي ما يعبر عنه من الشهرة والتواتر عند ساكني الجزيرة وخاصة عند البادية . وعرب البادية بعيدون كل البعد عن التزوير والإختلاق .

بتر قدم صديقه وفاء بعهده

وقعت بين عام ١١٩٠ و ١٢٠٠ هـ

كانت أواصر الصلة بين كل من « مـاجد الحثربي »[١] وصديقه « مُفَوِّز التجغيف » وطيدة الاساس وثيقة العرى إلى أقصى حد . فكانا متحابين محبة لا تشوبها شائبة من المطامع الفردية ، وكل فرد يرى لصاحبه من الاحترام والتقدير مـا يراه لنفسه ، ويود له من الخير ما يوده لذاته فهما كنفس واحدة لا يفرقهما إلا الموت ، تجمعهما الفطرة العربية . كما ألفت بينهما رابطة الفتوة والفضيلة ، وكان ثمة تبادل وتجاوب بين شعور كل منهما من الطموح والقيم الأخلاقية المثلى ، فكانت صداقتهما صداقة عفيفة شريفة بريئة . ليست كمثل صداقة بعض الشباب المائعين . وقد كان بينهما انسجام كلي بالأخلاق والتربية الأدبية والاجتماعية ، اللهم إلا أن ماجداً يفوق مفوزاً بقريحة نظم الشعر فقط .

ولما كانت الحوادث الطارئة في ذلك العهد تداهم البـادية بين عشية وضحاها ، لذلك فقد انصبت غارة أحد الغزاة على قبيلة شَمَّر التي هي عرب ماجد ومفوز . فركب الفارسان جواديهما قاصدين طلب الإبل وقد كان

(١) كلاهما من قبيلة شمر .

فرس ماجد أسرع جرياً من فرس صاحبه فوصل العدو قبل أن يصـــل خليله . وعندما سمع الغزاة صوت ماجد تركوا الإبل وولوا هاربين . فواصل غارته مقتفياً أثر العدو ، ولا زال يقاتل ويناضل حتى ظفر بفرد من هوءلاء الغزاة « منعه »[1] واعطاه إشارة منه إمـــا عقاله أو شيئاً من ملابسه . وهذه العلامة تكون شعاراً تقي هـــذا الأسير شر (عرب ماجد) فإنهم عندما يرون الأسير متدرعاً بعقال أو عباءة أو ما أشبه ذلك من ألبسة ماجد فلا يتمكن أحد أن يؤذيه قطعياً لأنه أصبح بجوار هذا البطل ، هذا وكان ماجد قد أجار من هؤلاء القوم الغزاة شجاعاً مشهوراً كان فيما سبق قتل أبا مفوز أي صديق ماجد الحميم . وقد كان مفوز يسأل الله بإلحاح أن يهب له غريمه بين يديه . وقد ساق القدر مفوزاً إلى غريمه وهو هذا الشجاع الذي أجاره صديقه ماجد فما ان نظر مفوز غريمه وتأكد منه حتى أخذته سكرة الغضب التي دفعته إلى أن يقتله بدون أن ينظر إلى عقال صاحبه الذي كان متدرعاً به ، وغاية ما في الأمر أنه طعنه برمحه ، وتركه ومضى في سبيله ليدرك العدو ويناضل في جنب رفيقـــه ماجد . أما هذا القتيل فإنه لم يفارق الحياة ولم يفقد حواسه ولا زال على آخر رمق من الحياة . وقد كان حينما طعنه مفوز قريباً من بيوت العرب

---

(١) منفعه . اي اعطاه عهداً بالله ان لا يمسه احد بسوء .

بحيث أتاه الصبيان والنساء ومن بين هؤلاء النسوة أم ماجد التي رأت عقال ابنها على صدر هذا الجريح المحتضر ، فحملته إلى بيت ابنها . وأعطاها الجريح الإفادة بأن قاتله مفوز و بعد مضي دقائق سلم نفسه لباريها.

هذا وقد عاد ماجد من الغزوة منتصراً ولكنه لم يرجع إلا بعد العشاء الاخير . وذهب الى محل بيته فلم ير ذاك البيت المشيد وإنما رأى بيتاً مقطعة أطنابه ومكسرة أعمدته ، وعلى جانبه عجوز تنوح وتدعو بالويل والثبور . أصغى قليلاً ليستعلم عن صوت هذه العجوز واذا به صوت أمه الذي لا ينكره . أقبل عليها منحنياً يقبل رأسها : « لا يا أماه ابشري اني حي شديد منتصر بحمد الله ولم اصب بأي أذى ، من الذي افترى عليك الكذب وازعجك ، قبحه الله .

ـ ام ماجد : اني أتمنى انك ميت حتى يكون ذلك اهون عليّ مصيبة.

ـ ماجد : ما هو الخبر يا أماه ؟ ـ ام ماجد : الخبر هو خبر السوء الذي لا يفوقه سوء . لقد هتك صديقك مفوز حرمتك وألبسك العار الخالد . ـ ماجد : ماذا فعل مفوز يا والدتي ؟

ـ ام ماجد : فعل العملية الشنعاء . لقد قتل منيعك [1] وها هو ذا مجندل تحت رواق البيت .

---

(١) أي الذي عاهدته وأخذ منك الأمان وأجرته بجوارك .

ـ ماجد : لا يا والدتي اتقي الله لا يمكن أن يكون مفوز قد هتك حرمة أخيه الحميم ولكن الذي اخشاه انها مؤامرة من شباب عربنا الذين حسدوني ومفوزاً على ما نحن عليه من أخوة صادقة وقتلوا « منيعي » ليوقعوا بيننا العداوة .

ـ أم ماجد : لا يا بني ليست القضية قضية مؤامرة كما تظن وانما هي قضية صدق وفي ذلك شهود .

ـ ماجد : من هؤلاء الشهود ؟ أنا لا ارضى شهادة كل العرب ولا اصدقهم ابداً إن قالوا إن اخي مفوزاً ينتهك حرمتي .

ـ أم ماجد: يا بني يجب ان تكون اوفر عقلاً من ذلك وتصغي لقولي .

ـ ماجد: سمعاً وطاعة يا والدتي . هاتي ما عندك .

ـ أم ماجد : بينما نحن نساء العرب وصبيانهم نسير على إثركم حاملين الماء لنسقي عطشاكم ونسعف جرحاكم ، لقينا هذا القتيل مطعوناً طعنة أدت الى ما ترى . فظننا أنه من عربنا لا من اعدائنا فحرصنا على ان نعرفه فلم يعرفه منا احد . ولكن روحه لم تكن قد فارقت جسده ، كما انه لم يفقد عقله فحدثنا وهو بحالة النزاع قائلاً: انا فلان[1] وقد « منعني»

---

(١) لم أجد احداً يفيدني بمعرفة اسم الشخص القتيل ولا قبيلته وذلك لطول العهد الذي اسبل اذياله على هذه الحادثة حتى كادت ان تدرس لولا تناقل الاحفاد لها عن الاجداد وقد كانت القصيدة الآتية خير ضامن لخلود هذه القصة .

ماجد الحثربي في وجهه واعطاني أمان الله، كما انه قلدني بعقاله وامرني ان اذهب الى بيته . فأتيت قاصداً أهله ولكن قابلني « مفوز التجغيف » الذي لا انكره فوثب عليّ عندما نظرني وطعنني برمحه، ولم يبرح من عندي إلا وهو يعتقد انني ميت . وهأنذا ميت لا محالة ولكن احملكن يا نساء الحي شهادتي هذه لتبلغنهـــا ماجداً الذي أنزلني بأمـــانه وبعهده ولا زلت بذمته .

كان ماجد يستمع حديث أمه ترويه عن مستجيره والدنيا تسود في وجهه ، وبقي صامتاً مدة كأنه مغشى عليه . ثم أفاق فأصغى الى أمه وتكلم بصوت منخفض وقال : يا والدتي إن المرء عندما يكون في حالة النزع وسكرات الموت لا يملك من عقله وشعوره شيئاً فهو يهذي بالشيء الذي يمليه عليه خياله ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فانني لا استبعد أن يكون المرء الذي طعنه قد قال له انني مفوز التجغيف مضللاً إياه حتى يوقع بيني وبين أخي مفوز الشر ، ثم برهن ماجد على صدق نظريته فقال لأمه : إن الشيء الذي يجعلني لا اصدق بصحة هـــذا الخبر هو أن الذي طعنه تركه حياً حتى يلتبس عليكن الخبر فلو كان مفوز هو الذي طعنه لحز عنقه عن جسده وتركه ميتاً .

صرخت أم ماجد في وجه ابنها وقالت : إنك جبنت عن لقاء مفوز ولن تستطيع أن تقتص منه بإساءته اليك فبقيت تلتمس الأعذار المنجية

من لقائه. ولكنني آسفة على اللبن الذي أرضعتك إياه وعلى حضانتي التي أوليتك إياها [1] .

ـ ماجد : لا يا والدتي أنا ابنك النجيب الذي تعهدين والبطل الذي لا يتسلل إلى قلبه خوف من مخلوق مهما بلغت شجاعته وإقدامه ، ولكن القضية وقعت في مفوز الذي هو كما تعلمين انه روحي وقطعة من فؤادي ، ومفوز يا والدتي مستعد أن أفتديه بنفسي وبما أملك من المال والعيال ولكني لا أرضى أن أفتديه بدرهم من شرفي وحرمتي وكرامتي .

ـ أم ماجد: وأنا هذا الذي أعهده منك يا بني كما أنني أزيدك تأكيداً أن لمفوز عندي من الولاء والمحبة مكانة لا تقتصر عن منزلتك ولكن الأمر أصبح ماساً بالكرامة ومنتهكاً للحرمة ، وكثيراً ما يضحي العربي بابنه وفاء بعهده دون كرامته [2]

---

(١) تذكرنا أم ماجد بالحديث الطويل الحماسي **الذي** تكلمته اسماء ابنة أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير ابان محاصرة الحجاج له بمكة .

(٢) هذا قبل حادثة فلسطين أما الآن فلم يبق لهم من المجد إلا الخطب الرنانة والتغني بمجد الاسلاف الغابرين والتزلف والتملق والنفاق والاطراء لزعمائهم الحاكمين مدة بقائهم على العرش ، أما إذا دهمت عروشهم كارثة فسرعان ما ينقلب هـذا التزلف عتواً وذاك النفاق صراحة بل وقاحة وذلك الاطراء قذفاً ولعناً . ولقد اعطتنا هذه التقلبات العربية صورة سيئة عن انحطاط اخلاق بعض افراد امتنا العربية ولكننا لم نقطع الرجاء ولم نيأس . فأرجو ان تكون هذه الكوارث قد اعطتنا عبرة وعظة فنعمل على استرداد مجدنا الغابر وما ذلك على الله بعزيز .

ـ ماجد : أنا يا أماه الآن احادثــــك وانا اشعر بالخلل يدب في شعوري وعقلي وذلك لعظم الخطب فاهديني برأيـك الذي يجعلني اثق ثقة لا شك فيها بأن (منيعي) قد قتله مفوز.

ـ ام ماجد : الوصول الى حقيقة الامر سهل جداً .

ـ ماجد كيف يكون ذلك؟

ـ ام ماجد :ألسْت تشاركني الرأي بأن مفوزاً فتى صريـــح صـــدوق لا يمكن أن ينكر ويكـذب فيما اذا سألتـه عـن الحادثـة وتحريت منه الإفادة الصادقة ؟

ـ ماجـد بلى انـه لا يمكن أن يكـذب حتى ولو علم أنه ينقاد الى الموت أو يخسر صداقتي التي اعتقد انهـا تعـادل عنـده حيـاته

ـ أم ماجد : اذاً فـابعث له من قبلك رجـــلاً يتحقق عن الامر واني ارجو الله يا بني ألاَّ يكون هو القاتل لمنيعنا والهاتك لحرمتنا

ـ ماجد : سليه أنت يا أماه .

ـ ام ماجد : هانذا ذاهبة إليه .

ذهبت ام ماجد تهرول الى مفوز فلما دنت من بيته نادته فلباهـــا بقوله : من المنادي ؟ فأجابته : أنا ام ماجد . فقال : اهلاً وسهلاً بوالدتي . تفضلي حفظك الله .

ـ أم ماجد : احب يا بني أن تتفضل الى هنا لقضاء امر ما .

ـ مفوز : ابشري يا والدتي خيراً يكون إن شاء الله .

ـ ام مـــاجد : أخوك ماجد يا بني وكل إليّ ان اناشدك الله عن « منيعه » فلان هل انت قاتله ام لا ؟

صمت مفوز قليلاً ثم قال : إذ ان اذهب الى اخي ماجد لأفهمـــه الأمر .

ـ ام ماجد : لا يا بني لا حاجة لذهابك الى ماجد فأنا وكيلته فاخبرني بالأمر كما كان .

ـ مفوز أصر على أن اقابل ماجداً لافهمه القضية .

ـ ام ماجد : انتظر هنا يا بني حتى اخـــبر اخاك ماجداً بطلبك للقائه .

عادت ام ماجد الى ابنها واخبرتـــه قائلة : يا بني ان مفوزاً يود ان يقابلك ويخبرك بما تم في القضية .

ماجد هل اعترف لك يا والدتي ام لم يعترف ؟

ـ ام ماجد : لم ينكر ولم يثبت وهو الى الإعتراف اقرب .

ـ ماجد : ارجو ان تعودي اليه يا والدتي ولا تأتيني منه إلا بالخبر اليقين النهائي واذا اعترف أنه هو القاتل فاحرصي على ألا يأتيني وأن

لا أراه أبداً لأني لا استطيع ان املك نفسي عن الفتك به فيما اذا أعترف أنه القاتل .

عادت ام ماجد مسرعة الى مفوز فوجدته ينتظرهـــا بفارغ الصبر .

ـ ام ماجد : يا بني إن اخـــاك ماجداً يقرئك السلام ويرجو منك ألا تقدم اليه وكل ما يناشدك الله به هو ان تخبره بالحقيقة عن منيعه فلان هل انت قاتله ام لا ؟

ـ مفوز : يا والدتي إن فلاناً هذا هو قاتل أبي وما زلت مدة حياتي وانا انتهز الفرص لأخذ ثأري منه . ولما قاده القدر هذا اليوم إليّ ورأت عيني عين قاتل والدي عند ذلك اصابني شيء افقدني عقلي ولم املك من نفسي شيئاً ، فدنوت منه فطعنته برمحي ولم اعلم في تلك اللحظـــة هل هو (منيع) لأخي ماجد ام لا ، وكل مـــا في نفسي انني اخذت ثأري من قاتل ابي ولم اذهب من عنده إلا وقد تركته ميتاً حسب اعتقادي . ولكن بعد ان عدنا من المعركة سمعت عند قومنا شيئاً من الهمس والهينمة ، التي جعلتني اتوقع خطورة أمر مبهم لم يتضح لي كنهه إلا الآن ، وهكذا يا أم ماجد شاءت الاقدار . وكل ما ارجوه منك ان تبلغي اخي ماجداً وتعودي إلي بالأمر الذي يأمرني به اخي فإني مستعد لتنفيذه على نفسي

مهما يكن .

عادت ام ماجد الى ابنها وقصت عليه القصة كما كانت .

هناك تشنجت اعصاب ماجد وانتفخت اوداجه وبقي ساعة وهو يكظم الغيظ ثم يزأر كما يزأر الليث في غابته ، ثم هدأ بعد ذلك شيئاً فشيئاً ونادى شخصاً من عربه صديقاً للاثنين أو هو صديق لمفوز أكثر منه لماجد فقال له : اذهب الى مفوز وقل له : يقول لك ماجد أرجو ان ترحل حالاً واحرص على ألا تبيت بين عرب اجتمع بك عندهم في مناخ واحد . واعلمه أنه إن لم يمتثل لهذه الأوامر فلن يأمن صولتي .

تبلّغ مفوز هذه الأوامر فرحل فوراً بليلته، اما «ماجد» فبقي بين عربه تعس الحياة كاسف البال مكسور الخاطر .

ولا عجب ان يكون ماجد على هذه الحالة فلقد فارق صديقه الحميم الذي كان يشاطره حياته في بؤسه ونعيمه . والمصيبة الكبرى التي حلت بماجد هي ان الامر ليس فراق صديقه فقط ولكنه (قطع وجه) [1] وقطع الوجه عند العرب أكبر شيء يعاب عليه الرجل فهي عندهم

---

(١) اي خفر ذمة . وذلك لأن ماجداً أعطى ذلك الرجل عهداً بالأمان فجاء وخفر ذمة ماجد وهذا يطلق العرف عليه اسم (قطع وجه) .

تبقى وصمة عار ابدية حتى يغسلها الرجل بأخذ الثأر من المرء الذي ارتكب هذه الجريمة وسود وجهه بين عربه .

بقي ماجد يتجرع الغبن مدة طويلة ، وإنما الشيء الذي يعزي نفسه هو أنه قد فرض إرادته على غريمه وأبعده عن وجهه ونبذه عن عربه .

هذا وقد حكمت إرادة الله أن تأتي ظروف تجمعهما سوياً في منزل واحد ومشرب واحد، ومرعى واحد، لقد وقع ذلك بدون اختيار الطرفين .

والسبب الداعي لجمعهما هو ان اراضي شمال نجد أجدبت بوجه عام ما عدا موضع فسيح معين يسمى « فيضة الأديان » (١) هذا المكان هو اخصب الاراضي مزدهراً « اقحوانه » عذباً ماؤه مريئاً مرعاه، ولكن هناك علة تحول دون ان يتمتع برعيه قبيلة من القبائل وهى آمنة مطمئنة وذلك أنها تخشى غارات هجوم القبائل الاخرى . لهذا بقى هذا النبات وافراً متراكماً ، ذلك أنه حماه بعضهم من بعض .

هذا وقد عظم الأمر على عموم رؤساء عشائر شمال نجد جميعاً

---

(١) سمي بفيضة الأديان من ذلك العهد (والأديان) معناه الأحلاف أي مكان المعاهدات .

ورأوا أنه لا بد أن يلجأوا الى طريقة محمودة تمكنهم من رعى ماشيتهم في هذه الأرض الخصبة . لهذا أوفد كل رئيس قبيلة رسولاً من عنده الى رئيس العشيرة الأخرى . وتم الإتفاق على أن يعقدوا مؤتمراً يحضره كل من رئيس عشيرة « عنزة » ورئيس «شمر » ورئيس « الظّفير » .

هــذا وقد عقدوا المؤتمر في الوقت المعين ، وأسفرت نتيجته عما يلي :

المادة الاولى : عقد صلح فيما بينهم

» الثانية : كل قبيلة يكفلهـــا رئيسها على ألاّ يبـــدر من أفرادها أي حـادث من الحوادث المخلة بالأمن

المادة الثالثة : أن ينتخب هؤلاء الرؤساء واحداً منهم ليكون كفيلاً لعموم رؤساء العشائر على ألاّ يحــدث من أفرادهم ولا من زعمائهم أمر يخل بالاتفاقية [1]

المادة الرابعة : أنه لايمكن بوجه من الوجوه أن يجير المستجير

---

(١) لقد انتخب هؤلاء الرؤساء رئيساً لهم اميرقبيلة شمر الشيخ« مطلق الجرباء» الفارس المشهور المتوفي سنة ١٢١٢ هـ ثمة رواية تفيد ان كل رئيس عشيرة يكفل افراد قبيلته ولم يكن مطلق كفيلا لرؤساء العشائر كمـــا ذكرنا ، وإنما الرواية الأولى التي تفيد ان مطلقاً كفيل لهم هي الأشهر المتواترة .

واحدٌ منهم ، أي لايصح ذلـــك لا للكفيل العام ولا لرؤســاء العشائر ولا لأفرادهم .

إن هـــذه المعاهدة فيها فوائد جمة منها : أنها جعلت مجـــالاً فسيحاً لمواشي هؤلاء العشائر لترعى في هـــذا المرعى الخصب والغدير العذب ، كما ان فيها من الضمان ما يقي بعضهم شر بعض ، بحيث لايستطيع أي فرد منهم أن يعتدي على الآخر حتى ولو رأى قاتل أبيه فإنه لا يتمكن أن يمسه بسوء .

كان مجمع هؤلاء العشائر بطبيعته يجمع ماجداً ومفوزا في صعيد واحد ولكن مفوزاً لا يهمه ذلـــك لأنـه أصبح في ضمانة شيخه « مطلق الجرباء » الذي هو المسؤول عن قبيلته ولكن الذي ابتلي ووقع في البؤس هو ماجد الذي كان من الأصل لايهـــدأ له بال ولا يطيب له عيش . أما الآن بعد أن علم أن مفوزاً سيجتمع بـه في مكان محدود فلا شك أنه ستتضاعف حسراته أو ربمـــا أنه سيفتك به داء السل الذي كثيراً ما يتولد من القهر وضعف البنية . والواقع أن حالة هذا التعس قد وصلت الى حد يؤسف له فقد أصبح هيكلاً أجوف عظاماً وجلداً وأعصاباً ترتعش

لقد احتارت أسرته وأبناء عمه في أمره الذي أدى به الى انحطاط

جسمه، فبقوا يضربون آخماسا بأسداس يتحرون معرفة السر الذي أنهك صحة فتاهم. والمشكل الذي زاد أسرته حيرة في أمره هو أن ماجدا هذا صامت لايعاشرهم ولا يبادلهم الحـــديث ولا يشكو لهم شيئاً من الأمور التي من اسبابها يرون صحته تنقص يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

فكر عميد أسرته المسمى «عمرو» وقال في نفسه : ربما ان ابن عمي هذا عاشق احدى فتياتنا الجميلات وفتك به الغرام وهو خجلان من اسرته ومستحى لا يستطيع أن يفشي لنا سره هذا . هكذا كان ظن ابن عمه . لقد اختمرت في ذهنه هذه الفكرة وكان له اخت من اجمل فتيات العرب فاستدعاها واوصاها ان تتجمل وتلبس احسن ما عندها من البسة والزمها الا تدخر وسعاً من اغرائها لماجد بجمالها ومداعبتها اياه كي تكشف سر نفسيته الكامن ليصل «عمرو» الى النتيجة التى يعلم منها عن آفة ابن عمه، فان كانت الآفة آفة غرام بنساء فهذا عنده شيء يسير ادراكه وباستطاعته ان ينكحه أجمل بنت يريدها من عرب قبيلته. هذا وقد كان ماجد يميل الى الخلوة بنفسه دائماً فهو كثيراً ما ذهب الى الصحراء حاملا (ربابته) [١] معه فيفتش عن كهف أو رأس

(١) راجع شرحنا للربابة صفحة (٤٢) .

جبل يتسلى هناك وهو حريص على آن يبعد كل البعد عن مجتمعه ليتبادل الآلام هو ونفسه ويتجاوب الألحان مع صوت ربابته التي أصبحت نديمه الوحيد، وأنيسه الفذ، في حين لا يرى احداً من عربه ولا من أسرته يفشي إليه شكواه لأن نفسيته العظيمة وإباءه وشممه وكبرياءه وحياءه، ذلك كله يمنعه من أن يبدي شكواه لفرد من البشر، فترى شخصيته الفـــذة كثيراً مـــا تصور لنا واقعها، بل تنفذ عملياً قول الشاعر السوري « بدوي الجبل » :

وأسر الشكوى حياء وكبراً ‏ ‏ ‏ ‏ رب شكوى إسرارها اعلان

هذا وقد ذهبت الفتاة تقتفي أثر ماجد حينما خرج من عند عربـــه قبيل طلوع الشمس يحمل ربابته قاصداً مـــأواه الذي يقضي فيه نهاره الى الليل كما جرت به العادة، فلما استقر بمكانه المعتاد هناك اقبلت عليه هـــذه الفتاة الغنوج تتبختر وتتمايل كما يتمايل غصن البان اذا حركته الريح فألقت عليه تحيتها الرقيقة، فصمت قليلاً ثم نهرها قائلاً : ما الذي أتى بكِ الى هذا المـــكان ؟ شاءتَ ان تداعبه وتجيبه برقة وغنج وهي واقفة تتهيأ للجلوس عنده، ولكنه لم يتركها تتحدث كما انه لم يتركها تجلس فطردها من عنده حالاً ورجمها بالحجارة.

عادت الجميلة من عند مـــاجد ولم تتوفق في استكناه الخبر الذي يصل به اخوها الى نتيجة .

أما ماجد فقد أخذ ساعة وهو يفكر يمتحن تفكيره وعقله محاولاً أن يعرف قصد هذه الفتاة بمجيئها اليه الى هـــذا المكان النائي عن « قطين[1] » العرب .

وبعد أن اجهد تفكيره وحكم العقل والمنطق بات عنده مئة بالمئة أن هذه الفتاة لم تأته إلا بدافع قوي وإنما الذي يهمه الآن هو معرفة كنه هذا الدافع : لبث يحلل أسراره الإيجابية : ناقشه من الجهـــة الغرامية كما هو ظاهر الفتاة فلم يجد له سبيلاً معقولاً لأنه يعرفها معرفة جيدة فهي بعيدة كل البعد من أن تبذل نفسها وترخص عرضها له بهذه الصفة التي شاءت أن تتظاهر بها لولا أنه زجرها . فهو لا يشك بنزاهة عرضها وعفتها ومتانـــة أخلاقها كما انه لا يخامره الشك أبداً بأن للفتاة رجـــالاً ذوي غيرة على أعراضهم ومحارمهم ، فلو قدر أن الفتاة أخلفت ظنه بها من قبل عفتهـــا الصادرة عن نفسها فلا يمكن أن تخلف ظنه من قبل رزانة عقلهـــا الذي يمنعها من ارتكاب العار لأنها تعقل أن خلفها رجـــالاً يضحون بأنفسهم وأولادهم وما يملكونه من المال دون دنس العار ، إذن انحصر تفكيره بجهة

---

[1]) القطين ، بيوت الشعر التي يسكنها العرب

معينة فقال لنفسه : لا شك ان عميد اسرتي «عمرو» أشفق على صحتي التي يراها تنقص اليوم بعد اليوم فشاء ان يدفع هذه الفتاة ظانـــاً أني مصاب بداء الغرام والعشق الخفي .

لا ريب أنه أصاب عين الحقيقة بفراسته هذه . لهـــذا تراه تفجرت قريحته وفاض شعوره بهذه القصيدة :

(١) « يا عمرو يا لِمدْلاَة يـــا نازْل الَخوْفْ
أَوْذيتني وانتَهْ تُنَشّدْ من العـــامْ » (١)

(٢) « يا ُخو فهيدَ اِلّي ْبكَ الطّيبْ موصوفْ
يا زَبِنْ مضهودٍ لجـــا ليك مِنْضامْ» (٢)

(٣) «لو زّينوا لي هاْفَي الخصرْ بِشْنوُف (٣)
ما اْبغيهِ لَو إنّه على النّفْس َعزّامْ »

(٤) « والله لو انه ْيوَّمْنْ مِن اَلخوفْ
في مـــنزل ما فيـــه كُفْرٌ ولا اْسلامْ »

(٥) «وما كِلْ ، وَلَوْ زِيّنْ لي الزاد بالحْوفْ
لَوْ ُبـــه َفقَارْ وسيّح الرّزْ بايدامْ »

(١) المدلاة ، الفتى الفاتك . تنشد ، تسأل .
(٢) زبن ، مأوى . مضهود ، مغلوب على أمره . لجا ، التجأ .
(٣) الشنوف ، قصب تزين به العباءة .
(٤) الحوف ، العناية . الفقار ، السنام . سيح ، سايل . الايدام ، يقصد السمن

(٦) « لو حِنْطِة البَلْقَا ، وتَمرْة أَهَلِ الُجوفْ

مـــا تقبُلُهْ نفسٍ عَليها الطنَّا زامْ

(٧) « ما تشُوفُ حالي كِنَّهَا حال أبا العوف

أَو حـــالْ محجـــوبٍ عن الزَّاد صَوَّامْ

(٨) « شَفِّي مفوزّ نَقْوِة الغو

لمن من بين عثعثْ ورُضامْ »

(٩) « أَقْلُطْ عَلِيْه والنَزِلْ طوف ورا طوفْ

اقْلِط عليـــه بْرْبَعَـــةَ البيتْ قِدَّامْ »

(١٠) « ثم اضْرِبُـــهُ بسِّلةٍ تَلْهبَ الجوفْ

ما زينتْ عندَ الصَّنانيعْ بِلْحـــامْ »

(١١) « إمَّا عليه البيضْ يَصْفِقِنْ بِكْفوفْ

وإنـــ عاش مـــا يمشى على كل الاقدامْ »

---

(٦) الطنا ، الشمم . زام ، زاد وتجاوز الحد .

(٧) ابو العوف ، دويبة اكبر من النملة . ما تشوف ، أما ترى . حالي ، جسمي .

(٨) شفي ، قصدي . نقوة ، صفوة . الغوش ، الفتية . منقوف ، أبي النفس بين عثعث ورضام ، بين السهل والوعر .

(٩) أقلط ، أقدم . النزل ، البيوت . طوف وراء طوف ، صف وراء صف

(١٠) السلة ، نصل الخنجر . الصنانيع ، الحدادين .

(١١) البيض ، النسوة .

(١٢) « ألّلي كساني ثَوْبٍ اَسود وأنا شوفْ
خَلُّـــهْ يَقَعْ في سَهَرْ عينى وانـــا نامْ »

(١٣) « من عقِبْ مَاني قنّبِ حطِّنّي صوُف
خــلاًّنْ للحَضْرَ المقيمين فحّـــامْ [١] »

وإليك شرح الأبيات :

(١) يَا عَمرو يَا لمَدلاة يَا نَازِل الخوفْ
أَوْذَيتَني وأَنْتَــهْ اَتنَشّدْ من العَـــامْ

يوجه بطل الحادثة مسوؤليته وكلامـــه إلى ابن عمه (عمرو) فهو يقول ياعمرو يالمدلاة ياتازل الخوف ، (المدلاة) هو الشجاع المغوار المبالغ في اقدامه الذي لا يتقدمه بفروسيته احد ويقال (المدلاه) ايضاً بدون التاء المربوطة يقصد بها الرجل المؤنس للقوم اي الشخص الاجتماعي الذي لا يُمل حديثه ولا يتكلم إلا عن حكمة هذا معنى ولكن المعنى الأول بقصد الشاعر اقرب وذلك بدلالة نعته له بقوله (يا نازل الخوف) اي ايها الشجاع الذي تختار المنزل

١) من عقب : من بعد . ماني ، ما أنا . حطني ،صيرني . خلا"ن" ، جعلني

الخصب لماشيتك حتى ولو كان هذا المنزل بطبيعة حاله مخيفاً ومرهوباً من قبل صولة العدو الجائم لك بعدته ورجاله ولكنك يا عمرو تقطن هذا المكان المخيف ولا يتخلل الى قلبك الخوف من هذا العدو القوي ·

وفي العجز يقول :

آذيتني ياعمرو بالحاحك علي وكثرة سؤالك لي وذلك من العام الماضي وأنت تبحث عن أسباب ضعف صحتي ·

٢ ــ يا خو فْهيَدَ اللّي بْك الطيب مَوْصوفْ

يا زَين مَضهودٍ لجاليكْ مِنْضَامْ »

يكرر الشاعر المدح لعمرو ويكنيه بأخيه فهيد (يا اللّي بك الطيب موصوف (اللّي) دائماً تكون بمعنى الذي فهي اسم موصول وقوله (بك الطيب موصوف) أي انك مثال أعلى متصف بجميع القيم الأخلاقيــــة والطيب معنى شامل لجميع السجايا الحميدة فإذا قال قائل بلغتهم الشعبية ان فلاناً اطيب من فلان معناه ان مجموع سجايا الأول الجميلة اكثر من الثاني ·

يا زين مضهودٍ لجاليك منضام : زين بمعنى مأوى مضهود أي مقهور . لجاليك : استجار بك يمدح عمراً ويقول يا أيهـــا البطل الذي تؤوي وتجير الرجل المستجير بحماك ولا يستطيع احد أن يخفر ذمتك مهما كانت جريمة مستجيرك

٣ « لَوْ زَيّنُوا لي هَافي الخَصْر بْشنوفْ

مـا أبْغيه لو انـه على النّفْس عَزّامْ »

يشير الشاعر إلى الفتاة التي بعثها « عمرو » اليه ويقول : لا تظن انكم اذا زينتم لي هذه الفتاة الناعمة الخصر ،المجملة بلبس الشنوف ، والشنوف نسيج حرير ينسج على ثياب نساء العرب وعباءاتهن فهو يؤكد لعمرو بأنه ليس في نفسه أقل شيء ، من الميول إلى ما يظنه به من الغرام بالنساء فتراه يزيد تأكيداً بقوله : ما أبْغيه لَو انّه عَلىَ النّفس عزّامْ . أي انني لا أريد هذه الفتاة الحسناء قطعياً حتى ولو انها رمت نفسها عليّ . وراودتني عن نفسي فلا يمكن ان تستفزني مهما فعلت من مداعبتها لي ومهما يبلغ بها الجمال فإنها لا تستطيع ان تصرف همتي عن مغزاها الأسمى .

٤ وَلا آكل وَلوْ زين لي الزّاد بالحوفْ

ولَوْ بُه فقَار اوْ سيّح الزّاد بإيدامْ

يفيدنا انه لم يكن لديه رغبة بالأكل ولو كان الأكل معتنى بـه عناية كاملة. وهنا يوضح لنا الشاعر ان لحوم الإبل هي من ألذ مأكولات البادية ولا سيما ظهر الناقة السمين خاصة اذا طبخ مع الرز وصب عليـه السمن كما وصفه لنا بقوله : لوبه فقار ، أي لو في الأكل ظهر ناقة ثم قال: لو سيح الزاد بايدام ، أي صب على الرز والخبز السمن والمرق فهو يقول: لو أتيتني بالطعام من هذا النوع فلا يمكن ان آكل منه شيئاً .

(٥) « لو حِنْطَةَ البَلقَا و تَمْرَةَ أَهل الُجوفْ

مــــا تَقْبَله نَفْسٍ عَلَيهـــا الطنّا زَامْ »

بهذا البيت يعطينا الرجل صورة صادقة عن أجود وألذ ما يقتات به رجال البادية وهي كما قال ؛ حنطة البلقاء ، والبلقاء هذه هي الأرض التي بحدود شرقي الأردن وهي أرض زراعية من جملة زراعتها الحنطة الطيبة كما قال الشاعر . ثم يقول : وتمرة أهلِ الجوف ، الجوف : بلاد تعرف قديمـــاً بدومة الجندل التي هى احد أسواق العرب في الجاهلية تقع بين الشمال والغرب عن نجــــد وهى مشهورة بحسن وجودة التمر ، لهذا ترى الشاعر يقول : لو قدم له مع ظهر الناقة المطبوخ على الرز والسمن ايضاً حنطة البلقاء وتمرة الجوف لا يمكن أن تقبله نفسه الأبية كما وصف حاله بقوله : مـــا تقبله نفس عليها الطنا زام ، الطنا ، الشمم والإباء والغضب ، وزام ، بمعنى طاف وتعدى الحد فهو يقول أن نفسه بلغت من الهم والغضب الشيء الذي تجاوزت به الحد المعتدل حتى انها اصبحت ترى هذه المآكل الشهية اللذيذة الطعم في طبيعتها : أَمرّ من الحنظل على نفسه الجبارة الأبية :

«٧» « مَا تشُوفْ حَالي كانها حال أَبا العوفْ

أَوِ حال مَحْجوب عَن الزّاد صوّامْ »

يعود الشاعر يخاطب ابن عمه عمرو بقوله : ما تشوف حالي كأنها حال أبا العوف ، أَبا العوف : دويبة صغيرة اكبر من النملة قليلاً هو

يشبه النملة كثيراً ، ويقال له في جنوب نجد الْقِعْس ، فالشاعر يشبه رقة حاله ونحول جسمه بهذه الدويبة التي هى من انحل الدواب ، او حال محجوب عن الزاد صوّام ، يقصد ان جسمه وصل من الهزال الى حد لا يصل اليه إلا الرجل الذي أصيب بمرض مزمن ومنعه الطبيب من اكل الطعام قطعياً فلا يأكل من القوت إلا ما يمنعه من الموت فقط والمقصود انه يخاطب ابن عمه عمرو ويقول له انك حينما رأيتني بهذه الحالة الصحية السيئة ظننت ان نحولي هذا من اسباب مرضية أو بات عندك بالأكثر ان ذلك من دافع عشق وغرام بالنساء ولكن نحول جسمي هذا بعيد جداً عما تتصوره وتظنه فيّ يا ابن عمي الذي اخطأت نظريتك فيّ خطأً عظيماً .

وهذا المعنى من الشاعر ماجد الحثربي هو طبق الأصل لأبيات على بن مُقَرَّب الأحسائى القائل :

يظن نحولي ذو السفاهة والغبا	غراماً بهند واشتياقاً الى دعد
لعمرك ما هند بهمى وان دنت	ولا لي بدعد من غرام ولا وجد
ولكنَّ وجدي بالعلا وصبابتي	بعارفة اسدى ومكرمة اجدى

٨) شَفْيِ مْفوزّْ نَقْوَةَ الغُوش مَنْقوفْ

خيّالهِنْ من بين عَشْعث ورّضامْ

الآن الشاعر أعلن وصرح بالسر الذي جعله يهجر أجمل الفتيات ولا يلتفت إليها وتعاف نفسه ألذ المآكل واشهاها اليه والذي جعل جسمه يفتك به الهم والآلام حتى بقي هيكلاً اجوف وعظاماً عارية من اللحم وعروقاً خالية من الدم ، ينبئنا الشاعر ان هذا كله من اسباب قهر مفوز له . أما تراه يقول: (شفى مفوز نقوة الغوش منقوف) ، اي قصدي وغاية ما تتمناه نفسي هو القضاء على (مفوز) وقوله : نقوة اي صفوة و الغوش الفتيان الباسلون أما قوله منقوف فـ « المنقوف »هو منتهى ما تبلغ به نفسية المرء من الإباء والشمم أي السميذع الذي لا تلين له قناة ولا يستطيع احد أن يخفر له ذمة. وكل هذا الاطراء صادر من ماجد لصديقه السابق مفوز فهو يثنى على مفوز بالشيء الذي يعلمه منه ويشيد بما يعتقد أنه موجود فيه من السجايا الحميدة وهذا من شيمة العربي فلا يمكن ان ينكر ما لخصمه من الفضائل والمزايا الحميدة مهما بلغت العداوة بينهما حتى ولو وصلت الى حد سفك الدم ، وها هو ذا يؤكد لنا بعجز البيت ثناءه على شجاعة مفوز وفروسيته ايضاً. خيّالهن ما بين عثعث ورضّام ـ خيالهن ـ اي فارس الخيل العظيم ـ ما بين عثعث ورضام ـ اي انه متدرب على ركوب الخيل سواء كانت الخيل تجري بأرض رملية سهلة او بأرضٍ صخرية خشنة فهو لا يهمه ذلك بحكم فروسيته ومهارته وممارسته لركوب الخيل .

(٩) « أقْلُطْ عليه والنزل طوفٍ ورا طُوْف
أَقلط عليه بْرَبْعَةَ البيت قدّامْ »

هنا يوضح لنا الشاعر البطل قوة ارادة نفسه التنفيذية ويرسم لنا العملية التي سوف ينتقم بها من (مفوز) (اقلط عليه والنزل طوف وراء طوف) أي اني سوف اقدم على مفوز وان كانت بيوت البادية مطوقة بيته ومتراكماً بعضها فوق بعض فهذا بزعمه لا يجعله يخشى من الأقدام على (مفوز) والفتك به (اقلط عليه بربعة البيت قدام) هذا زيادة تأكيد لما سبق في صدر البيت الأول .

(١٠) « ثم أضربه بْسَلّةٍ تلهب الجوْفْ
مَا زيّنَتْ عندَ الصَّنانيع بلحام »

يصف الشاعر انه سوف يقدم على (مفوز) وسيضربه بسيف أو خنجر وهو معنى قوله (سلة تلهب الجوف) أي أن هذا السلاح الذي سوف يضرب به مفوزاً سيخرق أمعاءه كلهيب النار (ما زينت عند الصنانيع بلحام) أي ان حديدة هذا الخنجر أو هذا السيف ليست بحاجة الى الحداد ليصقلها أو ليسنّها فهي بطبيعتها مصقولة مسنونة .

(١١) « إمَّا عَلَيْه البيضْ يَصْفِقِن بكفُوْف
وانْ عاشْ مَا يَمشي على كلّ الاقْدَامْ »

يقول أنه سوف يضرب (مفوزاً) الضربة القاضية فأمـــا أن يقتله وهذا معنى قوله (إما عليه البيض يصفقن بكفوف) ذلك أن نساء البادية ينحن ويندبن على الشجـــاع إذا قتل (والبيض) يعني النساء يصفقن بكفوفهن على القتيل . (وإن عاش مـــا يمشي على كل الأقدام) يقول ماجد أنه سوف يضرب مفوزاً الضربة التي إما ان تقضي على حياته مرة واحدة وإما ان يقطع بها ساقيه فلا يستطيع بعدهـــا أن يمشي على رجليـــه سليماً . وهذا معنى قوله : وان عاش مـــا يمشي على كل الأقدام .

(١٢) اللّي كســـاني ثوبٍ أَسْوَدْ وانا شُوفْ
خـــله يَقَعْ في سهر عَيْنـــي وانا نَامْ

ي ، أي الذي سود وجهي بين عشيرتي وألبسني العار وجعلني سهر الليل من الهم وهو مع ذلك هادىء ومرتاح وينام مطمئناً لا يشغل باله شيء مني : خله يقع في سهر عيني وانا نام ، أي سأدعه يسهر من الغم والغبن كما كنت ساهراً حزيناً بسبب عمله ثم يقول : وانا نام ، اي اني بعد ذلك يطيب لي النوم .

(١٣) من عِقِبْ مَا انَا قَنَّبٍ صِرْت انَا صُوفْ
خلاّنْ للحَضْرَ المقِيْمين فَحّام

يقول إن مفوزاً اراد بعمليته هـــذه ان يغير مجرى حياتي ، فتراه يقول : من عتب ما انا قنب صرت انا صوف ، اي جعلني اسود بعدان كنت ابيض، و يعبر عن ذلك بطريق التمثيل فالقنب هو الحبل الأبيض والصوف اسود وهو يريد ان مفوزاً نال من شرفه وصيره اسود بعد ما كان ابيض : خَلانْ لِلْحَضْرَ المقيمينْ فحّامْ ، ولما كان رجال البادية يزدرون كل الازدراء الرجل الذي يبيع الفحم منهم ، فإننا نجد هذا الشاعر يقول : إن مفوزاً جعلني بمثابة الرجل الذي يبيع الفحم لأهالي المدن .

لقد سمع عمرو هذه القصيدة بأذنه وذلك انه بعدما فشلت سياسته بدفعه للفتاة هنـــاك ، قال في نفسه : إن مـاجداً شاعر سريع البديهة ولا بـــد من أن تجود قريحته بقصيدة يترنم بهـا ويغنيهـــا على « ربابته » .

ولقد أصاب عمرو بظنه هذا حيث هب من الصباح الباكر يقتفي اثر ماجد حتى دنا من مكانه الذي يختلي به عن الناس وهناك بقي مختفياً بالموضع الذي لا يتمكن ماجد من رؤيته ، عند ذلك قـــام البطل الشاعر يلحن قصيدته على ربـابته ولقد سمعها عمرو بأذن واعية ولكن ماذا يفعل ؟

هذا وقد كان ماجد راسماً خطته التي سيقضى بها على صاحبه (مفوز)

وبينما كان (مفوز) يسقي فرسه من الغدير أتاه ماجد من الأمام وطعنه بسيفه طعنة بتر بها إحدى ساقيه فوراً ، ثم امتطى فرسه والتجأ إلى بيت آل هذال الذين هم شيوخ قبيلة عنزة فسرعان ما هب (مطلق الجرباء) ورؤساء العشائر معه يطالبون ابن هذال بتسليم هذا المجرم الذي خرق اتفاقية المعاهدة بعمليته هذه .

لقد أحرج موقف ابن هذال بهذا الملتجىء ؛ ذلك أنه إما أن يفعل ما تقتضيه معاهدة المؤتمر التي تنص على تسليم المجرم ، فيسلم مستجيره وهذا عمل يخالف ما تقتضيه شيمة العرب ، وإما أن يمتنع عن تسليمه ويحميه فينكث بذلك العهد وهذا شيء قبيح أيضاً . فبقي ابن هذال لا بدّ له من ارتكاب أحد الشرين إما نكث العهد أو تسليم مستجيره الذي لم يسبق لأحد من العرب أن سلم مستجيره .

اجتمع رجال اسرة آل هذال عن بكرة أبيهم وتداولوا الرأي ، وكانوا بين رأيين هذا وكان ماجد يسمع كل البحث الذي دار في صدده واتضح له أن رأي أكثرية القوم يرجح الوفاء بالعهد تنفيذاً لاتفاقية المؤتمر ومعنى ذلك تسليمه (لمطلق الجرباء) الذي لا شك أنه سيضرب عنقه وذلك لأمرين : أولاً أنه « شمري » ومطلق هو رئيس عشيرة شمر قاطبة وهو الضامن لها عن مثل هذه الحوادث. ثانياً : أنه الكفيل العام لعموم القبائل

فأصبح ماجد بعمليته هذه قد خفر ذمة رئيسه مطلق أكثر من غيره من رؤساء العشائر . وماجد يعلم هذا لأنه ما التجأ إلى ابن هذال شيخ قبيلة عنزة إلا خوفاً من شر (مطلق الجرباء) .

هذا وقد رأى ماجد أن ابن هذال سيفي بعهده ويتخلى عنه ، لذلك مال إلى رئيس آل هذال وقال: يظهر لي أنكم ستفون بعهدكم ولكن أريد منكم أن تتركوا سبيلي حتى التجىء إلى غيركم .

عندها رأى ابن هذال أن في هذا الرأي خلاصه من المأزق الحرج. فقال : لا بأس نخلي سبيلك .قال ماجد: إنكم يا آل هذال أصحاب راي وعقل فأريد أن ترشدوني إلى رئيس العشيرة الذي باستطاعته أن يجيرني ويخرق الاتفاقية .فأشاروا عليه أن يذهب الى بيت(دُغَيِّم[1] بن سُوَيْط) ويستجير بـه . فامتطى فرسه وهرع إلى بيت ابن سويط مسرعاً . وكان رئيس عشيرة آل سويط في ذلك العهد هو الرجـل الذي نوه الشاعر بذكره في قصيدته الآتي شرحها في آخر هذه القصة . هذا وقد علم مطلق الجرباء وروساء العشائر معه بأن ماجداً استجار بابن سويط. وهناك اجتمع رؤساء القوم من عموم القبائل المتحالفة وذهبوا لبيت ابن سويط مطالبين إياه باللين تارة وبالغلظة تارة اخرى من أجل ان يسلمهم هذا المعتدي ولكن

(1) دعيم بن سويط هو رييس عشيرة الظفير

ابن سويط ضرب بكلام القوم عرض الحائط وكانت مطالبتهم بتسليمه ضرباً من العبث رغم ان مطلق الجرباء ورؤساء عشائر البادية كلهم اصبحوا ضده فاتفقت قبيلة عنزة وقبيلة شمر كلتاهما على محاربته فيما اذا رفض تسليم المجرم ، اضف الى ذلك انه سيحرم ماشيته المرعى وذلك حسب الاتفاقية التي ابرمت في المؤتمر. كما انه يعتبر بعمليته هذه ناكثاً بعهده . وكان ابن سويط شجاعاً لا تلين له قناة ولا يهمه ان تتفق عليه القبيلتان بل ولو اجتمعت العرب كلهم عليه قاطبة ، ما أهمه ذلك ، كما انه لا يهمه حرمان ماشيته من المرعى الخصب ، وهذه العوامل وان كانت مهمة لا يمكن ان تجعله يسلم مستجيره حتى ولو تلف هو وعشيرته وماشيته ولكن العقبة الكؤود والمشكلة التي هي أم المشاكل هي قضية العهد ، تلك المشكلة التي جعلت ابن هذال لا يقبل ان يجير ماجداً ، هذا وقد اجتمعت اسرة آل سويط قاطبة منفردين لوحدهم يحاولون معرفة الطريقة التي يخرجون بها من نقض العهد وهم حريصون ان يجدوا لهم المنطق الصريح والحجة المقنعة أو شبه المقنعة التي اذا احتجوا بها كانت عذراً مرضياً موافقاً لقوانين العرب وعاداتهم ويكونون بالتماسهم لهذه الحجة قد انجوا انفسهم ولم يعتبروا ناكثين للعهد حسب المنطق القبلي[1] بينما آل سويط

(١) لأن أهل البادية لهم انظمة خاصة ودساتير معتبرة كما ان لهم قضاة لا محيص لهم من تنفيذ الأمر الذي يحكم به هؤلاء القضاة .

يدرسون الأمر ويفحصون بشدة عن السبيل الذي يمكنهم من حماية مستجيرهم ولا يجعل للعرب عليهم سبيل ملامة في نكث عهدهم ، عندما كانوا ينقبون عن الطريقة المنجية دخلت عليهم العجوز التي هي أم شيخ القبيلة « دغيم بن سويط » وهم في هذه الحالة فصرخت في وجه ابنها وقالت : أراك حيران في أمرك وكأني أرى ان لديك من الوهن ما يجعلك تسلم مستجيرك ، والله لئن فعلت ذلك لأقطعن الثدي الذي رضعت دره .

ـ دغيم : معاذ الله يا والدتي ، كيف تظنين بابنك النجيب هذه الظنون ؟ وهل من المعقول اني أسلم من استجار بحماي ولاذ بجواري ؟ هذا شيء من المستحيل عليّ فعله وإنما الأمر الدي نحن في حيرة منه هو قضية العهد الذي تعاهدنا عليه في المؤتمر الذي تنص إحدى مواده على ان لا يجير أحد من رؤساء العشائر احداً من المعتدين ، هذه القضية يا والدتي هي التي بقيت حجر عثرة في حل مشكلتنا العويصة ولما كنت تعرفين من قوانين العرب اكثر مما نعرفه نحن الشباب كما انك مشهورة وموفقة دائماً بالرأي السديد لهذا نرغب بأن تهدينا السبيل الرشيد الذي نسير على ضوئه ونصل به الى الطريقة التي تقينا شر وصمة عار نكث العهد .

ـ أم دغيم : الأمر سهل يا بني ولا يحتاج الى كل هذه الحيرة وهذا العناء .

ـ دغيم : ليس هو بالسهل بل انه مشكلة المشاكل يا والدتي فان كنت تعرفين حلاً لمشكلتنا فارشدينا فاننا بأمس ما يكون من الضرورة الى الطريقة المعقولة التي تشفع لنا بهذا الموقف الحرج .

ـ أم دغيم : ابشر يا بني سآتيك بالحجة التي تجعلك تجير مستجيرك وانت ناصع الجبين ابلج الوجه مرفوع الرأس .

ـ دغيم : هاتِ يا أماه فإنه فرغ صبري .

ـ أم دغيم : ألستم يا بني عقدتم مؤتمركم هذا وتعاهدتم في الوقت الذي كنت ذاهبة في سبيلي الى الحج وأخذت بويتي[1] الصغير هذا معي .

ـ دغيم : بلى يا والدتي حفظك الله .

ـ ام دغيم : وهل كان هذا البيت وصاحبته حاضرين لمعاهدتكم تلك ! . أم أننا كنا في الحجاز و بعيدين عن هذه المعاهدة كل البعد .

ـ دعيم : بل إنك كنت و بويتك في الحجاز ونحن أبرمنا معاهدتنا في

(١) تصغير بيت .

شمال نجد .

ـ ام دغيم : وهل كان في المؤتمر المعقود أو معاهدتكم المشؤومة مادة تنص على ان هذا البويت الغائب تشمله المعاهدة ٠

ـ دغيم : لا ليس فيه شيء من ذلك عفا الله عنك .

ـ ام دغيم : وهل في معاهدتكم مادة تنص على أن المستجير يسلم فيما إذا استجار ولاذ في أحد بيوت النساء دون الرجال ؟

ـ دغيم : لم يكن ثمة مادة تنص على ذلك ابداً في المعاهدة .

ـ ام دغيم : إذن سلمني مستجيرك هذا لأدخله في بويتي الصغير الذي لم يحضر المعاهدة لا هو ولا أنا ، فإذا استلمت المستجير بيدي فيكون قد تخلى عن بيتك والتجأ إلى بيتي ، فاذا فعلت ذلك لم تكن نكثت بالعهد وذلك من وجهتين أولاً : أن هذا البويت وصاحبته لم يحضرا المعاهدة ، ثانياً : أنه لم يكن في معاهدتكم ما ينص على أن المستجير في بيوت النساء من عجائز وفتيات يسلم .

ـ دغيم : بارك الله فيك من أم حكيمة رشيدة. لقد حللت الاشكال وهذا هو المستجير فخذيه بيدك وادخليه بويتك[1] ، هرعت العجوز

(١) آخذ آل سويط ميزة خاصة عند العرب بعمليتهم هذه فاصبحوا ينعتون بأهل البويت من ذلك التاريخ حتى الآن .

وأخذت ماجدا وادخلته بويتها الذي لم يحضر المعاهدة لا هو ولا صاحبته ومن ثم هرع أمراء القبائل وعلى رأسهم الشيخ مطلق الجرباء الذي كان أشد القوم حرصاً ومطالبة باستلام هذا المجرم الذي خرق القوانين وانتهك حرمة المعاهدة ولكن هذا المجرم التجأ الى حصن شديد البـــأس صعب المنـــال. فأصبح لديه من الحصانة ما يحميه من استلام (مطلق الجرباء) له .

واشتد النزاع وحاول الجرباء بشتى الوسائل أن يستلم هذا المستجير ولكن محاولاته باءت بالاخفاق الذريع . وأخيراً هـــدد الجرباء آل سويط بسوء ما ينجم من عاقبة سيئة وخيمة نتيجة نقضهم المعاهـــدة واصرارهم على حماية المجرم، ولكن آل سويط قوم لا يقعقع لهم بالشنان، فقد أصروا على عدم تسليم مستجيرهم، واحتجوا بحجة العجوز وتمردوا على مطلق الجرباء ورؤساء العشائر جميعاً .

هذا وقد كان عمل آل سويط هذا سبباً إيجابياً لنقض المعاهدة، وفعلاً قد انتقضت هذه الاتفاقية بسبب هذه الحادثة . وها هو ذا بطلهـــا ماجد الحثربي يمتدح آل سويط بقصيدته هـــذه ويهجو آل هذال الذين لم يجبروه فيقول:

١ « يَلْعَوْن ما سَرّوْن أوْلَاد وايِل

عيون الصّخُولْ ، ْمرَضّعِـــين الأسِلَّهْ

يقول ماجد : أن أولاد وائل الذين هم آل هذال ما أجاروني وما أدخلوا في قلبي الأمان والسرور كما فعل آل سويط وهو في البيت التالي يوضح هذا المعنى فيقول:

(٢)«ما َظلّ لي غير السّويطاَت ْ ظايِل
أَدْغيم َثنىَ بالسَّيفْ ُدوني ْوسَلَّهْ »

يقول ان الذين أجاروني هم آل سويط ويخص من آل سويط أميرهم الشيخ ُدغيم ويقول انه لم يبق لي من رجال القبائل القاطنين على هذا الماء مجير غير آل سويط فلا شمر ولا غيرهم .

٣ « ْسوَيْطَات ُيعْطُونَ ا ْلمهارَ الأَصايِلْ
َوالِمعْرَقَهْ وعـْنَاَنهـا ِتبْعَةً َلهْ

الشرح : يمدح الشاعر آل سويط ويقول إنهم علاوة على ما فيهم من نجدة وحماية للجار فهم مع هذا كله كرماء اسخياء يهبون الخيل الجياد الأصائل والعرب يعتبرون أن الرجل أو الأمير الذي يبلغ به الكرم إلى أن يهب الفرس الأصيل فهذا يكون عندهم قد بلغ الذروة القصوى في الكرم لأن الفرس في ذلك الوقت ولا سيما الأصيل بمثابة الاسطول الجوي في العصر الحاضر . وهنا نأتي بالقصيدة بعد شرحها .

قال ماجد الحثربي :

١ - بِالْعَونْ مَا سَروّنْ أوْلادْ وايِل

عْيُونَ آلصَخُولْ مْرَضّعِين الاسِلَّه

٢ - مَا ظل لي غَيْر السّوَيطاتْ ظائِلْ

ادْغِيّمْ ثَنى بالسيْفْ دُوني وسلَّهْ

٣ - سُوَيْطات يُعْطونَ المهارَ الأَصايِلْ

وَالْمِعْرَقَة وعَنَانَها تِبْعَةً لَهْ

وفاءه بالعهد

اضطره أن يقتل أخاه

قصة نهار [1] الاحمدي مع أخيه صالح وقعت بتاريخ ١٣٣٠ هـ على وجه التقريب

قبل أن يوحد الجزيرة العربية المغفور له البطل عبد العزيز آل سعود ، كان لا يستطيع أن يمشي بالصحراء إلا القوم الكثيرون الأقوياء بعدتهم الحربية ، وإلا فيكون الماشي بها لقمة سائغة لعرب البادية ، ولا سيما طريق مكة والمدينة ، فان ثمة لصوصاً لا معيشة لهم إلا

---

(١) نهار من قبيلة حرب .

من هذا السبيل، فهم كما قالوا بمثلهم الذي يعبر لنا عن حياتهم الاجتماعية أوضح تعبير « رزقنا على الحاج ورزق الحاج على الله » • والذي يهون الأمر نسبياً هو أن لهم تقاليد عرفية كان فيها من المناعة ما يتقي بها عابر السبيل شر بعضهم ببعض . مثال ذلك ان المسافر اذا شاء ان يذهب الى جهة ما يتحتم عليه ان يأخذ شخصاً من هؤلاء العرب الذين يمر بسبيله على ارضهم ، ويسمى هذا الشخص (رفيق) ، فهم يعطونه من المال ما جرت العادة به . وهذا (الرفيق) يتحتم عليه أن يحمي دماءهم وأموالهم ولا يستطيع احد ان يمسهم بسوء ، لا سيما اذا كان رفيقهم شجاعا قوي الشخصية ، او عميد اسرة، أو له اخوان وابناء عم شجعان منيعو الجانب، فاذا توفرت هذه الشروط بالرفيق ، كان المسافرون في أمان لا يزعزع ، وكلما كان الرفيق ضعيفاً في شخصيته كان الخطر على المسافر اكثر .

وهذا الرفيق لا يقدر أن يحمي المسافر إلا من عرب عشيرته فقط • وكثيراً ما يحتاط المسافرون للأمر فيكون معهم من كل قبيلة رفيق ، لا سيما اذا كان الطريق بعيداً وتلزمهم ضرورة السفر أن يمروا على عشائر متعددة . وهكذا كانت الجزيرة في العهود الغابرة •

هذا وقد كان فريق من أهل نجد وهم من بلدة حائل أدّوا فريضة الحج وزاروا المسجد النبوي — على ساكنه أفضل الصلاة والسلام — واستعدوا للعودة الى اوطانهم، فاضطروا الى ان يأخذوا معهم « رفيقاً » من بادية المدينة الذين هم قبيلة حرب . فساقهم القدر الى شخص يسمى «نهار الأحمدي» . فتم الأمر بينهم وبينه حسب التقاليد المرعية ، وخرج القوم ورفيقهم من المدينة قاصدين اهلهم . وقبل ان تتوارى عن أعينهم جدران المدينة ، هناك اصطدم القوم « بصالح الأحمدي » شقيق رفيقهم « نهار » . فطلب صالح هذا من القوم ان يعطوه « حقته» ومعنى ذلك أن له حقاً واجباً على المسافر الذي يعبر هذه الأرض التي يقطنها . فعليه أن يسلم له من المال . وهذا المبلغ حسب الاصطلاحات الجارية فيما بينهم أنه « حق » له ، يأخذه منهم جبراً . ولكن على شرط ألا يكون معهم رفيق من قبيلة صالح هذا أو من عشيرته، اما اذا كان احد من اولئك فلا يكون له حق، لوجود الرفيق الذي قد تعهد حمايتهم . أما وقد كان رفيق القوم نهاراً أخا صالح الشقيق فأصبح ليس من واجبهم ان يدفعوا شيئاً كما انه ليس من حقه ان يطالبهم بشيء . ولكن يظهر انه شاء ان يتمرد على القوانين ويأخذ «حقته » كما يــــدعي من هؤلاء القوم سواء رضي أخوه أو لم يرض .

والذي يتبادر لنا من ظاهر أمره أنه لا يرى للعهود وزناً في نفسه ـ ودائما ما يرى المرء الناس بالعين التي يرى بها جبلته ـ لهذا تراه اعتقد ان اخاه لن يرعى للعهد قيمة . ولكن اخاه اخلف ظنه .

حاول نهار مبدئياً أن يقنع اخاه بالتي هي احسن ومن طريق المنطق، مؤكداً له بأن هؤلاء القوم اصبحوا في جواره وبعهدته وضمانته، وانهم لم يخرجوا من المدينة إلا بعد ان اعطاهم عهداً وثيقاً ، فعلى هذا الأساس لا يمكنه إلا ان يفي بعهده ويحمي جواره مهما كلفه الأمر . بهـــذه العبارات الرقيقة كان رفيق القوم يلتمس رضى اخيه، ويحاول إقناعه . ولكن أخاه صالحا لم يقنع .

هبَّ نهـــار مرة اخرى يلتمس رضاء أخيه قاصداً إغراءه بالمادة فقال له : يا اخي إن كان يرضيك ان اتجرد عن كل مـــا أملك من المال وأهبه لك بما فيه هذا المبلغ الذي أخذته من القوم مقابل حفظي وحراستي لدمائهم واموالهم، إن كان يرضيك ذلك فقد وهبتك إياه رغبة لا رهبة وذلك حرصاً على ألاَّ تسيء الى رفاقي بالشيء الذي من شأنه أن يمس كرامتي ويخفر ذمتي . فأجابه الباغي بعنف وسخرية قائلاً : انا لست بحاجة الى ان تحسن إلي من مالك، انا اغنى منك مالاً ونفساً، وانا إن طالبت بشيء فلا اطـــالب إلا بحقي الذي سآخذه رغم أنفك وأنف

روفقائك .

طفق نهار آخر الأمر يناشد أخاه بالله والرحم فقال : ناشدتك الله والرحم على أن تخلي سبيل رفاقي ولا تخزني بين قومي بنقضك عهدي ، وهتكك لحرمة جواري . فلم تزد مناشدته هذه أخاه إلا تمرداً وطغياناً. فابتلى نهار وامتحن بمخاطبة هذا السفيه الذي عبر عن امثاله المتنبي :

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

لقد رأى نهار أنه بذل شتى الوسائل وأنجع الأسباب المجدية التي تجعل أخاه يترك سبيل قومه : محاولاً بذلك استثارة عاطفته واستفزاز شعوره ولكنه لم يلن له قلب . اذن فستضطره حماقة أخيه أن يقيل نصيحة الشاعر القائل:

إذا كنت بين الحلم والجهل ناشئاً

وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً

ولم يرضَ منك الحلم فالجهل أمثل

عند ذلك حذر نهار أخاه سوء عاقبة تمرده هذا بطريقة التلميح والإشارة . ولكن الباغي لم يردعه التحذير ولم يأبه له ، لقد فرغ الآن صبر نهار وعمد إلى تنفيذ أمر كان يضمره في نفسه لحلّ المشكلة ولكنه

أمر ليس باليسير عليه تنفيذه وإنما الذي أرغمـــه على الإقدام عليه هو أخوه الطائش.

الآن خاطب نهار أخاه صالحاً بالصراحة الجلية فقال: يا ابن أبي وأمي إنه قد فرغ صبري وأنا أرجوك ، ولا شك أنك ستجبرني على ارتكاب أحد أمرين إما أن اترك شأنك لتنقض عهدي وتهتك حرمة جواري وهذا شيء مستحيل عليك ما دمتُ حياً سليماً ، الشيء الثـــاني انك ستضطرني الى قطع رحمي وبتر ساعدي الأيمن وتيتيم أبناء أخي وهذا ليس من شيمتي احتماله ولكنه اهون الشرين عندي .

كان نهار يخاطب أخاه وهو في تلك اللحظة شاهر السلاح بوجه أخيه ، وقد كانت رصاصة البندقية في بيت النار ولم يبق سوى التنفيذ . ومع هذا كله لم يرتدع أخوه بل هجم على القوم ليسلب منهم مالهم بالقوة فلم يسع نهار إلا اطلاق الرصاصة التي خرقت رأس أخيه فخر ميتاً . أمـــا نهار فهب يواري جثمانه فوراً ، ثم واصل سيره مع رفاقه حامياً لجواره وفيـــاً بعهده ، حتى أوصلهم الجهـــة التي تم الاتفاق بينه وبين القوم ان يوصلهم إياها .

ثم عاد الى اهله لم ينكث عهداً ولم تخفر له ذمة[1] .

---

(١) القصة مشهورة .

وفاء وتضحية بالمال والجاه والاهل

قصة عجمي بن سعدون مع كوكس [1] الانجليزي
وقعت ابان الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ

عندما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى كان عجمي [2] باشا ابن سعدون يحارب بجانب الأتراك وذلك بدافع عقيدته الاسلامية ولم ينخدع بالثورة العربية التي استمدت قوتها من الانكليز كما انخدع غيره من ساسة العرب بل كان عجمي منتبهاً لهذه الناحية وقد ادرك ان الانكليز لا يمكن ان يغدقوا المال على قادة العرب ويمدوهم بالعتاد رحمة بهم ومودة لهم ، وإنما أرادوا ان يتخذوهم مطية لهم كما كان الأمر . وقد حاول الماكر الانجليزي كوكس أن يغري عجمياً بالمال ليستغل بطولته وزعامته كما أغرى غيره ، ولكن عجمياً كان وفياً لمبدئه الى ابعد حد من الوفاء ، وليس للمال ولا للجاه قيمة عنده امام ايمانه بعقيدته ووطنيته ، ولو كان ممن يشترى ضميره بالأحمر الرنان لاستطاع الحاكم السياسي كوكس أن يستولي على كيانه بمئات ألوف الجنيهات التي بذلها له ، فرفضها ، ولم

(١) هو الحاكم السياسي للعراق آنذاك .
(٢) يعتبر من أعظم زعماء العرب في العراق ومن الأبطال البارزين بالفروسية، واسرته اسرة عريقة في مجدها التاريخي وزعامتها العربية .

يقبلها بوجه من الوجوه .

لقد كنت من النفر المعجبين بشخصية عجمي إلسعدون لا من ناحية بطولته الخارقة وكرمه المتناهي (١) فحسب وانما من اجل وفائه الذي أدى

---

(١) كان شاعر الحماسة الشعبي محمد العوني المتوفي سنة ١٣٤٣ هـ من المتفانين بالولاء والاخلاص لعجمي ومن المعجبين بشخصيته إعجاباً ربما يبلغ بصاحبه حداً من الاسراف ، وليس ثمة مجال لسرد ما قاله الشاعر من القصائد السرمدية الحافلة بالاطراء والثناء العاطر به . وانما اغتنم هذه المناسبة لاستشهد بثلاثة أبيات جادت بها قريحة الشاعر عند مناسبة اثارت شعوره فقال .

الفاطر الزرقا ترزم مع السوق حنينها اودع بقلبي هوايا
تبكي ولدها فارقه عاقها عوق وأنا ابكي الصنديد ذيب السرايا
مدري حدر والا قعد أو ذهب فوق او وين تدوي به ، ربيع الهفايا

هذه الأبيات الثلاثة قالها الشاعر بصورة ارتجالية ولم يزد عليها وذلك عندما كان جالساً في الشارع الرئيسي لمدينة حائل . وفي اثناء جلوسه مر امامه ناقة فاطر أي « مسنة » وكانت تحن حنيناً شديداً على فراق ابنها . والشاعر عندما رأى هذه الناقة اهتز شعوره وعواطفه . وذكر صديقه عجمياً وذلك سنة ١٣٣٨ هـ وكان عجمي آنذاك لا يعلم الشاعر عنه شيئاً . إذ لا مواصلات بين الاثنين . والشاعر بالبيت الأول يصف نفسه ويضعها بموضع هذه الناقة التي تحن على ابنها . ويقول انها أثارت حزني الكامن وجرحت فؤادي بحنينها عليه . وفي البيت الثاني يقول انها تحن على ابنها « وانا ابكي الصنديد ذيب السرايا » الصنديد . البطل المغوار . ذيب السرايا . أي قائد الجيوش والجحافل . يقصد بذلك انه يبكي على فراق عجمي الذي توفرت فيه هذه الشروط .

مدري حدر والاقعد أو نهج فوق أو وين تدوي به ، ربيع الهفايا

يقول الشاعر لست ادري اين ذهبت به الدنيا « ربيع الهفايا » أي مطعم العاجزين عن طلب المعيشة من أيتام وأرامل .

به الى ان بقي بتركيا لاجئاً سياسياً أشبه ما يكون بالمشرد وقــد فارق أملاكه في العراق وسيادتــه ، كل ذلك في سبيل الوفاء الذي هو من افضل سجايا بني الانسان وأنبلها ، هذا وإن اعجابي لا زال يتضاعف بشخصية هذا البطل الوفي ، وكم كنت مسروراً عندما ساقه القدر لزيارة « دمشق » وهو في سبيله لتأدية فريضة الحج وذلك في ٢٨ ـ ١١ ـ ١٣٧٤ هـ وقد أقام في عاصمة بني أمية مدة لا تقل عن اسبوع وكنت كثير الاتصال به وهو شخص دمث الخلق كثير الصمت .

وقد حرصت أن انقل شيئاً عما حدث له من الحوادث التي تستحق التسجيل ، ولكني لم أجد عنده تلك الرغبة بالأحاديث عن نفسه ، وفي جلسة من تلك الجلسات التي قضيتها معه كان الحديث بيننا يدور حول الانكليز ومــا يبذلونه من المال تجاه تنفيذ مآربهم ، وأظن اني كنت البادىء بالحديث بهذا الصدد .

وبهذه المناسبة سرد عليّ البطل حــادثة وقعت بينه وبين الحاكم السياسي في العراق المدعو « كوكس » الذي حاول ان يغري عجمياً بالمال فأعياه ذلك .

كان رسوله الى عجمي شخصاً عربيـاً من قبيلة عجمي اشترى ضميره بالمال يدعى « فرحان الرحمه» حدثني عجمي بأن هذا الرسول ابلغه رسالة

الحاكم شفهياً وهذا نصها :

« ان الحاكم الانكليزي على استعداد أن يدفع ثلاثمائة الف جنيهاً ذهباً انكليزياً لحضرة عجمي باشا على شرط أن يتخلى عن ساحـــة الوغا ويترك محاربته للانكليز » .

لاشك ان العرض مغر اضعفاء النفوس ، ولكن عجمياً اكبر نفساً وأعف يداً وأعز جانباً من أن يشترى ضميره بشيء من مظاهر الدنيـــا الفانية مهما حاول المستعمر أن يغريه فإن وفاءه وإباءه يرفضان ذلك وفعلاً قد رفض هذا العرض بكل اباء وشمم .

عندما شعر كوكس بأن صاحبه ليس من أولئـــك النفر الذين يصطادهم بمغرياته ، هناك هب يلتمس سبيلاً آخر ليصطاده من قبله فبعث اليه رسولاً ثانيا يدعى « هادي الشنين [1] » ليأخذ وعـــداً من عجمي « لكوكس » شريطة أن يكون تعيين الزمن والمكان شيئـــاً متروكاً اختيـــاره لعجمي ، كما أن « كوكس » اشترط على نفسه أن لا يرافقه اي فرد من الجنود الانكليز . واليك جواب هذا البطل الوفي للمستعمر المحتال :

« إن من دواعي شرفي واغتباطي ان يتنازل لي المستر « كوكس »

١) هادي من المنتفك عرب الشيخ عجمي

الى حد ان يطلب مني تعيين الزمان [٢] والمكان الذي نجتمع به ، اذ أني وإن كنت زعيماً من زعماء العرب ، ولكني أرى منزلتي بسيطة بالنسبة لسمو منزلة المستر كوكس وعلو قدره ، ثم استرسل الشيخ بكلامه الى ان قال : ولكنني أناشد المستر كوكس باسم بريطانيا العظمى التي هو قطب من أقطاب ساستها . فهل يقبل حضرته أن يجتمع معي او ينظرني بعينه فيما لو كانت الغلبة للعرب والاسلام كما كانت بالأمس . ومن ثم أسعدني الجد الى أن اتيته غازياً لوطنهُ لندن كما أتاني غازياً لوطني الآن ؟وطلبت منه الاجتماع كما يطلبه هو مني فسله « يا هادي أيقبل هذا لنفسه؟ » أم يرى أن لا كلام بيني وبينه إلا السيف كما اعتقده الآن ؟

حفظ هادي هذه العبارات الوجيزة في لفظها المليئة في معناها ومن ثم القاها كاملة امام كوكس .

وقد سألت عجمياً وماذا كان الجواب من صاحبه ، فقال :

انه لم يعد اليه الرسول بجواب ايجابي ، وانما أفاده بأن كوكسا

(٢) يقول الشيخ عجمي اني سألت «هاديا رسول المستعمر فقلت كيف يثق بي هذا الانكليزي الى حد انه يأتيني بمفرده ؟ فقال هادى لعجمي : لقد استغربت هذا الامر منه حتى اني صارحته بنفس هذا المعنى الذي كلمتني بصدده فأجابني بقوله « اني لا اخشى الغدر على نفسي من امثال هذا فيما إذا اعطاني وعداً حتى ولو كنت بمفردي . لأن الوعد من الوفي كهذا يقوم مقام العهد . »

عندما تبلغ هذه الرسالة الشفوية وجم قليلاً ، وفي هذه الحالة اصفر وجهه واحمر حتى بدت عليه ملامح الكآبة جلية ظاهرة.

ماذا يا ترى في وجمته هذه كان يحدث نفسه ؟ اتراه يقول لنفسه ان كان زعماء العرب وقادتهم كلهم من نمط هذا الرجل فإن سياسته وحكومته سوف تفشل في الاقطار العربية؟

هذا وقد كان داهية الأتراك وزعيمهم مصطفى كمال يعرف مدى رجولة الشيخ عجمي وبطولته وحاجته اليه لهذا اتجه يخطب وده ويلاطفه وينعته بما هو له أهل . والى القارىء نص رسالة مصطفى كمال التاريخية الموجهة منه الى الشيخ عجمي .[1]

وقد ترجمها لنا بالعربية الدكتور امين رويحة بما يلي :

حضرة شيخ مشايخ العراق عجمي باشا . استبشرت بتشريفكم الى ديار بكر ، وكنت قد سمعت عن سجاياكم ورجولتكم وارتباطكم بمقام الخلافة المقدس ، وانا عندما كنت في الحرب المنصرمة في قيادة الجيش الثاني في ديار بكر وقيادة الجيش الرابع في حلب مما أحدث لكم في قلبي محبة كبيرة . ان افتراق الأمتين العربية والتركية وهما عينا العالم الاسلامي أوقع كلاً منهما في ضعف . وقد اصبح من فرض العين علينا الجهاد في

١) أثبتنا صورتها في الطبعة الأولى ليرجع اليها من شاء .

سبيل حرية واستقلال أمة محمـــد (١) ، وإنني أعلن أني بجانبكم في جهادكم للخلاص من أثر الكفار والالتفاف حول مقام الخلافة المقدس مع صيانة الصفات والعنعنات العنصرية ، واني اترك لشخصكم النجيب بيان مطالعاتكم في هذا الشأن بواسطة قيادة الجيش الثالث عشر لتبادل الأفكار واقدم لكم فائق الاخلاص .

١٥/حزيران/١٩٢٥   التوقيـع — مفتش الجيش الثالث
مصطفى كمال

والشيخ عجمي الآن يقطن البلاد التركية حيث أدى به وفاؤه الى ان ناضل في صف الأتراك الى آخر لحظة ، ولم يقف به وفاؤه الى ان قاتل بجانبهم في بلاده العربية فحسب بل ذهب يناضل بجانب الجيوش التركية في قلب بلادها الى ان هجر وطنه العراق

وهكذا ذهب البطل ضحية لوفائه حيث خسر زعامتـــه في العراق واملاكه التي لا تحصى وبقي في تركيا لاجئاً ، وقـــد تجنس بالجنسية التركية :

---

(١) اني لاعجب من هـذا الماكر التركي الذي استفز شعور هـذا السميذع بالعقيدة الاسلامية كما استفز شعور الكثير من المسلمين وذلك عندمـا كان ضعيفاً في بداية أمره . وبعد أن بلغ مـا بلغه من العز والنصر أعلن كفره بمحمـــد ودستور محمـــد ﷺ .

ومما لا جدال فيه أن نفسية عجمي الأبية ترى أنهـا سعيدة في وضعها الراهن، فهو وإن خسر شيئاً من زعامة وثروة، فقد ربح الحمد الخـالد والمجد الأبدي ، وكأني بنفسه الجبارة تلحن قول الشاعر ابن الاطنابة :

أبت لي شيمتي وأبى وفائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
واقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي[1]

(١) وأعظم المصائب على الشيخ عجمي السعدون هو أن الحكومـة التركية التي كان يقاتل بجانبها بدافع الرابطة الاسلامية قد تجردت عن ذاك المبدأ المقدس وذهبت بجانب الانجليز الذين يعتبرونه عدواً لهم رقم واحد . وعلى هـذا التقدير أصبح بطل القصة منكوباً وغريباً من شتى الوجوه ولا غرو فهذا شأن كل من أشرأبت نفسه لأنفس المعاني وأسماها . وهذا ما ذهب اليه الشاعر العربي :

غريب عن الأوطان في كل موطن ألا كل من رام النفيس غريب

من أروع أمثلة الوفاء بالعهد

وقعت عام ١٣٣٥

لا شك أن الوفاء بالعهد عند العرب من أهم المثل العليـــا ، فنجد العربي يتمسك به حتى مع أشد أعدائه ومن المستحيل أن يغدر و ينكث بعهده ولو ظفر بقاتل أبيه ومما يؤيد لنا صحة ذلك قصة (رفاع بن ركب[١]) من قبيلة مطير التي وقعت له مع عدوه اللدود (جذيل بن لغيصم الأسلمي الشّمري) ذلك أن (جذيلاً) غزا قبيلة مطير وحصلت بين الغـــازي والمغزو مقاتلة عنيفة ، كان من نتيجتها أن وقع قتلى بين الطرفــين ومن هؤلاء القتلى (أبو رفاع بن ركب) وكان (رفاع) شجاعاً لا ينام على الضيم . طلب من قبيلته أن تغزو قبيلة شمر خاصة عرب جذيل[٢] من أجل أن يأخذ بالثأر وكأن لسان حال رفاع يحدثنا أنه لا يريد بغزوه هذا اكتساب ابل من قبيلة شمر ولا طمع له إلا برأس (جديل) الفـــارس الذي اشتهر بقتل أبيه .

ذهب غزاة مطير برآسة هابس بن عشوان الفارس المشهور[٣] ومن

(١) رفاع : فارس من مشاهير فرسان قبيلة مطير .
(٢) جذيل : من فرسان قبيلة شمر .
(٣) هابس بن عشوان من زعماء قبيلة مطير ومن فرسانها البارزين الأفذاذ توفي رحمه الله في معركة وقعت بين قبيلته وقبيلة العوازم عام ١٣٤٨ وكان البطل ضحيتها .

بينهم رفاع الذي كان أحرص القوم على لقـــاء قبيلة شمر ليأخذ بالثأر منهم سواء (بجذيل) أو بمن يضارعه أو يفوقه من قبيلته ، لأن العرب ولا سيما أهل البادية كثيراً ما يعملون بالعرف الجاهلي الذي ينافي قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر اخرى) فالبدوي لا يهمه إلا ان يأخذ الثأر بأكبر شخصية في الأسرة فهذا هو كمال الغاية وإن كان ثمة أكبر منه فلا يزال يطلب الثأر وينتهز الفرصة التي يحاول بها قتل هذا الكبير حتى يظفر به ، فإن تعذر ذلك بسبب من الأسباب كان مرجعه على القاتل، ولقد كان جذيل هو عظيم اسرته ، فعلى ذلك توفرت فيه الشروط وأصبح إذا ظفر به عدوه لا نجاة له البتة ، يضاف إلى ذلك أن رفاعاً كان شديد الحقد والحرص على أن يقتل جذيلاً بيده ، ذلك أنه طلب بإلحاح من كل فرد من قبيلة مطير الغازية راجياً منهم جماعة وأفراداً أنه إذا ظفر احد منهم بجذيل أن لا يقتله بل يسلمه له حتى يقتله بيده أسوأ قتلة .هذا غاية ما يتمناه رفاع ويطلبه من قومه ولكن قومه ردوا عليه بقولهم: إنا لا نعلم أيكون النصر والغلبة لنا أم للعدو ؟ ثم انه لو قدر لنا النصر على العدو فان « جذيلاً » ليس بالرجل الجبان الذي نتمكن من استلامه من دون مكافحة ومناضلة ، بل انه رجل مشهور بفروسيته فعلى ذلك من المستحيل ان نظفر به إلا بأحد أمرين : إما قتيلاً بعد قتال عنيف ومعركة دامية بيننا وبين قومه ، وإما أن نأخذه (منعاً) أي بعهد فان أخذه أحد منا بعهد فليس من المعقول

أن ينكث بعهده ويسلم لك من اجل أن تأخذ بثأرك منه. هكذا كان جواب القوم اجمعين، كان هذا مدار حديثهم وهم في مسيرهم فظلت غزاة مطير تحث السير قاصدة قبيلة شمر، ولكن قبيلة مطير ما علمت أن قبيلة شمر ايضاً تحث السير قاصدة غزوها حتى انكشف لها الأمر حينما اصطدم الغزاة بالغزاة. وكانت شمر أقل غزاة من مطير. لقد حصل بينهم تبادل حديث، عند ذلك عرفت كل قبيلة منهما الأخرى وحمي الوطيس آنذاك. وبعد ان اشتد الوغا وطالت المعركة كانت الغلبة لقبيلة مطير ولكن هذه الغلبة كانت «منعاً» لا «شلعاً» والفرق بين «المنع» و «الشلع» هو أن الأول بعهد والثاني بدون قيد ولا شرط. كما أن معاهدة المشاة غير معاهدة الفرسان الذين يقاتلون وهم على صهوات الخيل أو ظهور الإبل وإن كان الحكم واحداً في منطقه وإنما تختلف المعاهدة الأولى بحكم تجمعهم بحيث تكون المعاهدة معاهدة جماعة لجماعة بينما تكون الأخرى معاهدة أفراد لأفراد، ويكون وقتئذ لكل فرد من الغالبين أن يمنع الذي امامه من المغلوبين. ولعل قدرة الله ساقت جذيلاً حتى كان منيعاً لرفاع الذي لا شيء في الدنيا أحب اليه من ان يظفر بجذيل قاتل أبيه. وأروع ما في هذه القصة هو ان جذيلاً يعلم انه وقع في قبضة عدوه رفاع الذي لا رحمة له عنده ولا شافع تقبل شفاعته لديه. انه كان يعلم ذلك قبل ان يقع في قبضته. والسبب ان تقاليدهم في هذا الموضوع تقضي بأن الفارس الغالب

عندما يطرد المغلوب ويرى أنه لا يستطيع ان يستولي عليه شلعاً أي بالقوة وبدون قيد ولا شرط يلجـــأ عند ذلك الى ان يستولي عليه بالمنع أي بالمعاهدة ، فيقول الغالب للمغلوب : انزل بوجـــه فلان ، فيجيبه بقوله : سمعني الله ، أي اعطني عهد الله . فيجـــاوبه الغالب بقوله : عليك الله وأمان الله والخاين ينتقم منه الله . هذا هو المنع عند العرب لفظاً ومعنى وقد يكون ثمة اختلاف باللفظ غير أنه لا يخرج عن هذا المعنى. لهذا نعود فنقول ان جذيلاً يعلم أنه وقع في قبضة عدوه رفاع ذلك لأن رفاعاً خاطبه باسمه الصريح وقال له : انزل في وجه وأمان رفاع . الذي لا يتمنى شيئاً في الدنيا أعظم من أن يظفر به ليقضي من حياته . ولرب قائل يقول: ولِمَ يسلم جذيل نفسه لعدوه رفاع، ولا يقاتل حتى يقتل حراً عزيزاً لا أسيراً مقهوراً أو ينجو ؟ وكثيراً ما ينجو المقاتل المستميت كما قال أبو بكر رضي الله عنه : إطلب الموت توهب لك الحياة . وجوابنا على ذلك هو ان جذيلاً يعلم أن عدوه لا يستطيع ان يقتله بعد ان اعطاه العهد وذلك لما يعلمه من عظم شأن الوفاء في نفسية العربي ، خاصة كرفاع الشهم الكريم الذي يعلم انه لو نكث بالعهد وقتل «جذيلاً» لكان أول من ينبذه ويمقته بنو عمه بل ربما أنه لا يستطيع أن يقطن بين كل قبيلة مطير ، كما انه لا يمكن ان يقبل بالزواج من نسائه رجل من العرب يرى في نفسه أنفة وإباء وشمما . فعلى هذا الأساس كيف يرتكب هذه الجريمة الشنعاء ؟ ولو أنه ارتكبها

لشفي غليله وأخذ بثأره ولكنه يكون قد وقع بما هو أكبر وأعظم عند العرب وهي وصمة العار الخالدة لا عليه فحسب بل وعلى ابنائه وأحفاده.

لهذا لم ير رفاع بدأ من أن ينفذ اتفاقية المعاهدة لا من قوة تجبره وتخضعه على ذلك ولكن قوة إيمانه بقوله تعالى: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» إن إيمانه بذلك من ناحية وتأنيب ضميره ووجدانه له من ناحية أخرى واحترامه ايضاً لقوانين العرب ودساتيرها، كل هذه العوامل هي التي كانت سداً منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه البتة. لهذا ترك «جذيلا» يرجع إلى أهله شديد القوى سليم الجوارح موفور الكرامة. وربما يكون جذيل بمنزلة الأخ الشقيق لرفاع وذلك حسب الاصطلاحات المرعية فانه كثيراً ما يكون الأعداء كالأخوان الأشقاء لا سيا إذا صدقت حادثة كهذه [1]

(١) القصة مشهورة.

فصل الامانة

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا
(قرآن كريم

لا إيمان لمن لا امانة له . ولا دين لمن لا عهد له .

حديث صحيح

تحدث الاستاذ محمـــد جاد المولى ، في الجزء الرابع من كتابه « الخلق الـــكامل » صفحة ١٥٦ عن أثر الأمانة في اعلاء شأن الأفراد والأمم وقـــال : « الأمانة هي ينبوع السعادة ومصدر الفلاح » ..
والحق ان كتاب الاستاذ تحفة يجب على الاديب ألا تخلو مكتبته منه .

لقد حث الاستاذ جزاه الله خيراً على الاستمساك بالامانة والمحافظة عليها ، الى ان قال : اعتصم الغربيون بها ففازوا ، واستضاءوا بنورها فاهتدوا ، وترددوا في اسواقها فكسبوا ، وجمعوا بها الاموال ، والفوا عليها الشركات فأقاموا في بلادهم الاعمال الجليلة . واوجدوا المستحدثات النافعة حتى صيروها جنة الدنيا وبهجة الناظرين .
ثم استدرك الاستاذ فقال :

لا شك ان الاستاذ جاد المولى لو اتيحت له الفرصة التي تمكّنه من العلم بالحياة العربية على الوجه الصحيح ، لما جاء بعبارته هذه القاسية ، بل لبات عنده على ما اعتقد من الايمان الراسخ والقناعة الكافية ما يجعله يطمئن الى ان نفراً من ناطقي الضاد ، قد بلغت نفوسهم الزكية من التمسك بالأمانة والتدرع بها الى اقصى ما تبلغه نفوس بني الانسان .

ان في فصل الامانة من كتابنا هذا نوادر حدثت من بعض افذاذ العرب وحقائق محسوسة مؤكدة ، ربما لا يتصور العقل حدوثها الا من طبقات الأنبياء أو من حذا حذوهم .

ولو بلغ هؤلاء الأمناء الأتقياء من العلم بالصناعة الحديثة والثقافة العصرية بشتى فنونها ومعانيها ، ما بلغه رجال الغرب لسادوا مشارق الارض ومغاربها ، ولعادوا إلى قيادة الركب من جديد كما كانوا بالامس ذلك لأن مواهبهم الكامنة الأصيلة وجوهرهم العريق ومعدن نفوسهم

(١) ليس كل الشرقيين كما يزعم الاستاذ ، ولعله يرى في هذا الفصل ما يسره ويجعله يعلم ان الغربيين لم يتقدمونا بأمانتهم ولكن بسعة اطلاعهم على اسرار العلم الحديث، وكان الأحرى به أن يحث على العلم ويرغب فيه فنحن صفر اليدين منه . حقاً ، لا من الامانة كما يتخيل الاستاذ .

الطيب الخصب ، صالح للانتاج .

اذن فليس العرب بحاجة الى شيء في الدنيـــا أكثر من حاجتهم الماسة الى العلم الذي يصقل العقول وينير البصائر و يشحذ الهمم، ويذكي شعلة الطموح و يخلق في نفس الفرد و الجماعة قوة تؤمن بالحرية التي هي أسمى وأنبل وأشرف ما في الحياة .

وهب أن أمة ما ، بلغ أفرادها من الفضيلة والنبل أقصى مـــا يصفه الواصفون ، ولكنها حرمت من العلم ، فأنى لها ان تستوفي مجدها كاملا وتناضل الاستعمار الفكري والاقتصادي بايمان راسخ وعزيمة صادقة إلا بقدر ما تستلهمه من نور العلم واليقظة والوعي .

ضحى بماله دون كرامة رفاقه

قصة عايد التميمي الأولى حدثت عام ١٢٨٨ هـ

يعتبر عايد من أفذاذ شخصيات بلاده وهو كثيراً ما يمارس حرفه التجارة ، فيتاجر تارة بالجوهرات ، فيذهب بحراً ليشتريها من ذوي الاختصاص بها ، ويتاجر طوراً بالإبل والغنم فيسافر براً ليبتاعها من البادية .

وقد دعته الحاجة هذه المرة ليشتري إبلاً من بادية سورية فيذهب ليتاجر بها في بلاد مصر . فقصد قبيلة « السبعة » (١) حيث حل ضيفاً على رجل يدعى (حمد بن شتيوي) واشترى ما شاء الله ان يشتري من ابل ، ثم رحل من عند مضيفه قاصداً مصر .

كان عايد قد ابتعد عن العرب وقطع مسافة غير قصيرة ، بعد ذلك هب مضيفوه وركبوا خيولهم وساروا خلفه يقتفون أثره . ولما ادركوه رحب بهم عايد ، وقد ادهشه لحاقهم بـه . ثم ساد الصمت حتى شربوا القهوة (١) .

---

(١) عايد من ساكني مدينة عنيزة وهو تميمي النسب .

(٢) هي احدى قبائل عنزة التي تقطن شمال سورية .

(٣) من العادات المتبعة عند العرب أن المرء أو الجماعة اذا قصدوا شخصاً لغرض ما لا يتحدثون به حتى يشربوا القهوة .

وبعد ذلك اشعروا عايداً انهم فقدوا خمسمائة ريال كانت مخبأة في صرة لونها كذا وموجودة في مكان كذا ، وواصلوا كلامهم الى ان قالوا : وإنه لا يخامرنا الشك في امانة شخصكم الكريم وإنما أنت رجل في معيتك عشرات الرجـــال من الرعاة والمستخدمين فنخشى أنها وقعت بيد فرد من هؤلاء السوقـــة . لهذا نرجو منك أن تسمح لنـــا فنفتش جميع قومك .

ـ عايد : اطمئنكم أن هذا المبلغ محفوظ لدي بكامله ذلك ان احد رعاة ابلي ناولني اياه وهو يزعم انه وجده بين امتعتي فأخذته واحتفظت به وقلت في نفسي امران لا ثالث لهما : إما أن يكون هذا المبلغ لأحـــد عربكم ، أو انه امانة وضعت معي لفرد نسيت ان اسجل اسمه . وقلت إن كان الأمر الأول فلا بد من ان يأتي صاحب المال ويسأل عنه . ولكن مضت مدة طويلة ولم يأت من قبلكم أحد . عنـــد ذلك نفضت الصرة واحصيت ما فيها من الدراهم ثم اضفتها الى ما عندي من الأمانات وقد صح عندي الأمر الآخر (١) . أما الآن وقد بان لي خطأ رأيي الأخير فتفضلوا باستلامها .

قام الرجل وسلم المدعين المبلغ كاملاً ثم انصرفوا الى اهلهم ، كما ان

١) أي انها امانة مرسلة معه لتكون على سبيل المضاربة

عايداً ادلج قاصداً مصر ليبيع بضاعته فيها .

أما المدعون فقد اتضح لهم خطأ رأيهم بعد مضي مدة قليلة من الزمن وذلك أنهم وجدوا دراهمهم بصرتها ملقاة في موضعها وعندما وجدوها هناك شعروا بخطئهم مع ضيفهم . كما ادركوا ان الرجل سلم هذا المبلغ من ماله ستراً لعرض حاشيته وحفاظاً على كرامتهم ان يفتشوا واحداً واحداً . فضحى الكريم بهذا المبلغ صيانة لكرامة النفر الذين في معيته . وخير وسيلة ركن اليها اؤلئك الذين ظلموا ضيفهم عن غير قصد هو ان اشتروا بهذا المبلغ غنماً باسم (عايد) وتولوا رعايتها والعناية بها كما لو كانت اموالهم ، وبعد مضي ثلاثة سنوات قدم اليهم عايد ليشتري منهم ابلاً . هناك قام مضيفه الاسبق « حمد بن شتيوي » وطرح نفسه بين يدي ضيفه عايد واعتذر عما بدر منه، ثم اكد له ان المال الذي أخذه منه قد اشترى به غنماً وهذه الغنم قد طرح الله بها البركة حتى ربت وزادت .

ـ عايد : أنا لا استلم الغنم كلها وانما استلم رأس مالي فقط .

ـ حمد : انها ليست ملكاً لنا بل هي ملكك وقد بارك الله بها بسبب نيتك الطيبة .

واخيراً كان الوفاق على أن تثمن تلك الأغنام فيطرح منها خمسمائة ريال رأس مال عايد فيأخذها وما تبقى يقسم بينهما على التساوي وتم الحكم بذلك ورضيه الطرفان .

وفاء وامانة

قصة صالح المجراد حدثت عام ١٢٨٩ هـ

(صـــالح المجراد) شخص من حاشية الأمير بندر [١] بن طلال ابن عبد الله بن رشيد . وفي الحين الذي قتل الامير محمـــد [٢] العبدالله ابن أخيه بندراً كان صالح هذا غير موجود في تلك اللحظة ولكنه عندما بلغه الخبر ذهب فوراً الى قصر الإمارة الذي فيه اخوان بندر المحاصرون وهذا القصر من الاساس فيه بندر وإخوانه باعتباره قصر الحكم ولكنه عندما قتل بندر تخلى عن إخوانه كثير من حاشيتهم لأن الرأي العام الشعبي كانت أصواته مع محمد العبدالله القاتل لبندر .

أما صالح المجراد فقد أراد اخوته أن يحجزوه لئلا يذهب الى اخوة بندر المحاصرين بقصر الامارة ولكنه اصر على أن يذهب الى ولاة نعمته وفي رواية أن اخوته عندما رأوا اصراره أرادوا أن يستعملوا القوة معه ويمنعوه قهراً ولكنه عندمـــا رأى ذلك منهم قابلهم بالمثل وانتضى سيفه

---

(١) هو الأمير الرابع الذي تولى الامارة الرشيدية ١٢٨٥ هـ والتاريخ يعتبره أول مـسؤول اعتدى على قطع الرحم بين الأسرة الرشيدية .

(٢) محمد تولى الامارة سنة ١٢٨٩ هـ وتوفي ١٣١٥ هـ وعهده يعتـــبر العهـد الذهبي الزاهر بالنسبة لأمراء آل رشيد .

وقـــال : إني سوف اذهب الى القوم الذين لا زال معروفهم وفضلهم بعنقي واني عازم على ان اربط مصيري بمصيرهم حتى الموت . فلما رأى اخوته اصراره وشدة عزمه تركوا سبيله فذهب للقصر ورفاقـــه في أشد الحصار : ولما طال عليهم الحصار وليس ثمة معين ولا ناصر هناك اضطروا أن يهربوا من القصر : وعندما قرروا ذلك قال لهم صالح : اذن اكون آخر من يفر من القصر من أجل أن اشغل العدو عنكم في المقاومة حتى تبلغوا مأمنكم ، فهربوا وبقي الى آخر لحظة في القصر . ومما تجدر الاشارة اليه انهم عندما يئسوا من المقاومة بل يئسوا من الحياة في تلك الحـــالة الضيقة احضروا عقد لؤلؤ ثمين وقالوا هذا أمانة عندك ليكون لذريتنا من بعدنا فيما اذا أصابتهم الدنيا ، وبقي العقد عند هـــذا الوفي الأمين ، وأبى أن يسلمه لأولادهم عندما كانوا دون بلوغ سن الرشد . وشاءت قدرة الله ان يتوفى أولادهم جميعاً وهم احداث وكانت النتيجة ان يهلك جميع ورثة بندر ولم يبق لهم عاصب يرث تركتهم من الوجهة الشرعية اقرب من الأمير محمد العبد الله الذي هو عم لبندر الطـــلال لهذا كان من وفاء صالح المجراد وأمانته أن أخذ العقد وسلمه بيد الأمير محمد واعلمه ان هذه أمانة عنده وضعها اخوة بندر في تلك الساعة الضيقة عندما أرادوا الفرار ، واستلمت منه الأمارة هذا العقد ولكن الأمير محمـــداً كان

حاقداً عليه من الأساس بصفته موالياً متفانياً بمحبة الأمير الأسبق بندر واخوته ، لهذا وصل الحقد والغضب بالأمير محمـــد الى أن جعله لا يولي صالحاً عملاً من اعمال الأمارة مع انه لو ولاه لوجده وفياً امينـــاً وذلك وفقاً لحكمة العربي المشهور « معن بن زائدة » الذي تولى الأعمـــال في خلافة بني أمية كما تولاها من بعد في خلافة العباسيين وقد عاتبه الخليفة المنصور العباسي بقوله : « انك يا معن اسرفت بوفائك للأمويين » فقـــال معن : يا امير المؤمنين ان الذي يفي مع الذي لا يُرْجى جدير به أن يفي مع الذي يُرْجى .

أمـــا صاحبنا صالح المجراد فقد توفي منبوذاً ومبعداً عن الحكم ولم يتول أي عمل من أعمال الأمير محمد ، ولكنه كان مرتاح الضمير مطمئن القلب، فإن استطاع الأمير أن يجرده من جاهه ، فـــان اساطير التاريخ الخالدة ستكسو صالحاً حللاً قشيبة أبدية لا تزول بزوال اصحاب السلطة الفانية .

أجل، ان جاه السلطان سيزول يوماً من الدهر سواء طال الزمن أو وصر ، أما القيم الاخلاقية فإنها ستبقى أبدية خالدة [1] .

(١) رويت هذه القصة عن اكثر من واحد

أمانة ورباطة جأش

قصة عايد التميمي الثانية حدثت عام ١٢٩٥ هـ

سافر التميمي هذه المرة بحراً قاصداً المتاجرة بالمجوهرات وكان معه نفر من التجار زملائه في المهنة . وقد اشترى كل فرد منهم ماشاء الله له من هذه البضاعة وعادوا جميعاً بإحدى السفن البحرية .

وفي اثناء مسيرهم هذا ظل كل فرد منهم يتحدث عن طيب بضاعته التي اشتراها وجودتها ، وكان التميمي معجباً ببضاعته فجاء بمجوهراته واطلع رفاقه عليها ثم هم أن يعود بها الى حقيبته ولكن خادمه وضع بساط مائدة الطعام أمامه فأخذ التميمي المجوهرات ووضعها فوق الخوان[1] ومضى يتغدى ، وبعد أن انتهى من غدائه ذهب لغسل يديه وترك بضاعته كما كانت على طرف الخوان .

وبعد ذلك أتى خادمه وجمع اطراف الخوان وحمله بما فيه من فضلات الطعام والقاها في اليم . عاد التميمي ليأخذ مجوهراته فلم يجدها فسأل خادمه عنها فقال الخادم : لا اعلم شيئاً سوى انني اخذت الخوان والقيت ما فيه من فضلات الطعام في البحر .

---

(١) الخوان ، سفرة المائدة .

ـ عايد : اذن اكتم الأمر ولا يطلع على ذلك احد .

ـ الخادم : امرك يا سيدي .

رجع عايد الى زملائه بكل هدوء ورباطة جأش . وبعد أن مضى ساعة على الحادث ذهب يسوم بضاعة رفاقه بمكسب ثلاثة بالمئة فأطلق الأول عليه البيع فالثاني فالثالث إلى ان اشترى جميع مجوهرات رفاقه في السفينة .وتسليم الثمن طبعاً سيكون بعد وصوله البلاد فكان بعمليته هذه حجز جميع اصناف المجوهرات عنده . ومن حسن حظ التميمي أن حصل للمجوهرات موسم عظيم فكان ربحه بها مئة بالمئة ، وبعد ان كان رأس ماله عشرة آلاف جنيهاً ذهباً [1] أصبح الآن يملك اربعين ألف جنيه ذهباً . ومما يدلنا على صفاء نفس التميمي وحسن نيته ذلك أنه ذهب الى محمد العسافي [2] صاحب الألفي جنيه حيث سلمه ستة عشر ألف جنيه :

دهش العسافي من هذا المكسب الذي لم يحلم به ولكنه سرعان ما عزفت نفسه الطيبة الطاهرة عنه ، ذلك عندما شرح له التميمي الأمر :

(١) اعني رأس مال مجوهراته التي القاها خادمه في البحر كان عشرة آلاف ومن هذه العشرة الفا جنيه لصالح العسافي استلمها التميمي من العسافي على نية ان ان يتجر بهما التميمي والمكسب بينهما.

(٢) وهو ايضاً من ساكني مدينة عنيزة .

هناك رفض قبول المكسب كما رفض أيضاً قبول رأس ماله الأساسي لاعتقاده أن ماله الأسبق هو ضمن الجوهرات التي القاها خادم التميمي في اليم[1] .

حاول التميمي أن يقنعه ليقبل المـــال ولكن العسافي رفض ذلك كما أن التميمي ايضاً رفض ابقاء المال عنده . وطفق الاثنان يتنازعـــان كل منهما يود أن يتجرد من هذا المال . وانتهى الأمر بأن ذهب المتنازعان الى القاضي .

ادعى العسافي بدعواه وقال : ان هذا المال لا يحل له منه قليل ولا كثير وأن ماله الأساسي القاه الخادم في البحر ، فقـــال التميمي : نعم إن مـاله ألقي في البحر ولكنني عندمــا اشتريت المجوهرات من زملائي التجــار اشتريتها على اساس ان مالي باق وعلى هـــذا الأساس باع التجار بضـــاعتهم لي . ولو علموا ان رأس مالي القاه الخادم في اليم لاعتبروني مفلساً ولـــكان من المستحيل ان يبيعـــوني من بضاعتهم شيئـــاً .

حكم القاضي بصحة ما ادعاه التميمي وامر العسافي باستلام المـــال وهكذا يبلغ سمو النفس والعفة بافذاذ الرجال . ولست أدري ايهما أعف نفساً ؟ وغاية ما اقول انهما فرسا رهان رحمهما الله .

(١) القصة مشهورة .

اعادة اللقطة الى ورثة الميت

حدثت في سنة ١٣٠٧

ذهب علي العبيد [١] إلى بيت الله الحرام ليؤدي فريضـــة الحج وهم بالعودة إلى بلاده «حائل» وفي أثنـــاء ذلك وجد في أسواق مكة تركة تباع لشخص من بلاد «طهران» قدم إلى مكة ووافاه أجله فيها ، وتولى مبيع متاعه جماعة من رفاقه الإيرانيين بمحضر من «مطوفه [١]» ساكن مكة الذي أجهل اسمه .

هذا وقد ابتاع علي من حوائج هذا الايراني متاعاً ، وضمن هـــذا المتاع كيس طحين . وعندما غادر مكة وشخص الى بلاده حائل ، دعته الحاجة وهو سبيله أن يخبز من هذا الطحين فلما فتح الكيس سقطت منه صرة ضخمة فيها مبلغ من الدنانير ، عندما شعر علي بذلك وذهب ونادى جميع رفاقه في هذه السفرة وقال : أشهدكم على نفسي بأني وجـــدت بهذا الكيس دنانير وهذه الدنانير ليست إلا ملكاً لورثـــة الإيراني

(١) علي العبيد هو رجل من جبل طي ، من المدينة المسماة الآن (حائل) .
(٢) المطوف هذا هو شخص يسكن عنده الحجاج ويتولى العناية بهم، وسكناهم في مكة وفي منى وعرفات كما يتولى توجيه الحجاج في زياراتهم المواضع المقدسة .

الكيس ، وقد ترك علي هذه الأمانـــة كما كانت حتى أتى موسم الحج في السنة الثانية ، فذهب إلي مكة واتصل بمطوف الإيراني وأخذ يسأله عن اسم الإيراني وبلدته واسرته . وذهب المطوف بدوره يسأل الحجـــاج الإيرانيين فوجد من يهديه عليه ولست أعلم هل كان بين هؤلاء الحجيج أفراد من أسرة الميت الذين يحق لهم وراثة تركته أم أنهم بعدما عـادوا لبلادهم أخبروا أسرة الميت ومن بعد ذلك أتى الوارثون واستلموا الأمانة من علي . هذا أمر يخفاني تفاصيله كما أنه يخفاني أيضاً مقدار المال الموجود بهذه الصرة وإنما الذي عرفته أن المال مبلغ مغري . وأن علياً سلم هـــذا الجراب وما فيه لورثة الإيراني [1] .

(١) رويت هذه القصة عن السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رحمـــه الله وهي مشهورة خاصة عند أهل بلدة حائل .

أمانة متناهية

وقعت بين عامي ١٣٢٨ ــ ١٣٣٢

قصد حج بيت الله الحرام شخص يدعى ابن جليدان [١] عنزي النسب من الدهامشة ، فرمى به الفال الى ان مر بشخص يقطن قرية صغيرة تسمى (الحليفة) [٢] فوجد بها شخصاً يسمى ابن لويشان وهو عنزي النسب أيضاً ومن عرب السبعة ، فاحتاج الاول الى مخيط فأعطاه صاحب الحليفة مخيطاً بغية أن هذا المخيط (عدولة) معناه أنه يكون كأمانة عنده يبتاعه وينميه وهذه العملية اكثر ما اشتهر بها ونجح هم أفراد قبيلة عنزة لأنه امتاز نفر منهم بسلامة النية وشدة الأمانة .

أخذ ابن جليدان المخيط فلما قضى حاجته منه ابتاعه على فرد من عشيرته (بجزة) من الصوف ثم ابتــاع الصوف واشترى بثمنه سخلة فكبرت السخلة وانجبت سخلة اخرى مثلها الى ان تناسلتا وبلغ المجموع

(١) القصة مشهورة وانما لم اوفق لمعرفة اسم الرجل المؤتمن ، وغاية مـا هنالك انه يقال له ابن (جليدان) .

(٢) (الحليفة) قرية تقع شمال المدينة المنورة وجنوباً عن مدينة حائل .

رعيتين من الغنم[1] ثم ابتاع بعضاً من هذه الغنم واشترى ابلاً فبارك الله بالابل ايضاً الى أن بلغت رعيتين، ونهاية الأمر بلغ مجموع هذه الأمانة رعيتين من النوق وثلاثين جملاً وخمساً من الخيل الجيـــاد ورعيتين من الغنم. والجدير بالذكر ان هذه الأمانة بلغت ما بلغته اليه من البركة ولا احد يعلم عنها شيئاً ابداً إلا الرجل الذي أمن عنده المخيط، وعندما بلغت هذه الأمانة الضئيلة ما بلغت من النمو والبركة آنذاك جمع المؤتمن أولاده ونخبة من عشيرته وقال لهم: اني اشهدكم الله على أن هذا المـال الذي ترونه من ابل وأفراس وغنم كله ليس لي منه قليل ولا كثير وإنما هو ملك لفلان ساكن قرية الحليفة وأصله مخيط ابتعه ونميته حتى بارك اللّٰه به هذه البركه، وأردف الشيخ كلامه الى ان قال: اني اخشى ان يتوفاني اللّٰه قبل أن يستلم صاحب الأمانة امانته لهذا فاني عازم بعد الاعتماد على اللّٰه على أن أذهب بنفسي لأسلم الأمانة الى اهلها.

ولما كانت الحروب بذلك العهد قائمة على قدم وساق بين القبائـــل فقـــد كان من الصعب أن يؤدي العنزي هذه الامانة الى اهلها بدون ان يخاطر بنفسه ويعرضها الى المغـــامرة والتهلكة، لأنه كان يقطن

(١) الرعية من الغنم من مائة وعشرين وما دون

(٢) الرعية من الابل هي من ستين ناقة وما فوق

في الأراضي السورية وصاحب الأمانة في أرض نجد وبينه وبين صاحبه مسافة بعيدة وهناك قبائل معادية لقبيلته ، ولكن رغم هذا كله لم يعقه عائق من ان يرسم لنفسه خطة تدل على منتهى أمانته ووفائه ذلك أنه ترك هذه المواشي عند أهله وذهب بنفسه على ظهر راحلته حيث اخبر أهله بأنه مسافر من اجل ان يتصل بصاحب الأمانة فيخبره بماله ، واكد لأهله قائلاً : « اني معرض نفسي للتهلكة ولا أعلم هل أتمكن من الاتصال بصاحب الأمانة ، أم اصادف غزاة تقتلني فان قدر الله علي شيئا من قضائه وقدره ، فانكم يا بني مسؤولون عن هذه الأمانة حتى تؤدوها الى صاحبها» . بعد أن بلغ بنيه هذه الوصية ذهب مسافراً بمفرده قاصداً صاحب الأمانة ليخبره بها ، وعندما كان سائراً في سبيله صادفته غزاة من قبيلة شمر فوجدته لقمة سائغة فأخذت راحلته وتركت سبيله فرجع الى اهله راجلاً . والعجيب انه لم تنثن عزيمة هذا الامين بل كر مرة اخرى قاصداً صاحب الأمانة ، ولكنه في عودته هذه قد احتاط لنفسه بالأمان والحماية أكثر من سفرته التي أخذت راحلته فيها ، ذلك أنه في هذه المرة عاد بصحبة المحمل « الشامي » (١) فأصبح الآن بحصن منيع لا خوف

---

(١) « المحمل الشامي » هو كناية عن جماعة يحجون من القطر السوري ، وكانت تتولى حمايتهم الدولة العثمانية بفيلق من جيشها بحيث لا تستطيع العرب ان تمسهم بسوء حتى يؤدوا مناسكهم ويعودوا راجعين الى اهلهم .

عليه، ولا زال برفقة هذا الجيش حتى وصل قرية صاحب الامانة ولست أدري هل وجد الشخص نفسه الذي أمنه « المخيط » أم أن ذاك توفاه الله ووجد ذريته ، هذا أمر لم أتأكد منه رغم اجتهادي وحرصي وإنما الرواية المؤكدة الذائعة تفيد أن الامين بلغ صاحب القرية بما له عنده من المواشي التي نمت وتفرعت من ذلك الاصل الضئيل .

وقد كان صاحب القرية قنوعاً كريماً حيث انـــه رفض قبول جميع هذه الابل والافراس والغنم لنفسه ، بل انه قال للرجل المؤتمن : ان هذا الرزق قد ساقه الله بسبب نيتك الصالحة وجهودك الموفقة فعلى ذلك يجب ان نتقاسمه بيننا سوياً ، فتقاسما الابل والغنم والافراس فيما بينهما (٢) .

(٢) القصة مشهورة .

امانة وورع

قصة عُقلي[1] بن شبيب حدثت بين عامي ١٣٣٧ ــ ١٣٤٣ هـ

كان لعقلي جار[2] فرحل عنه ونسي عنده زناداً[3] فبقي محتفظاً بزناد جاره . وصدفة سافر ونفر من عربه ليكتالوا من احدى المدن[4] المجاورة لهم . وعندما نزلوا عن رواحلهم وشاؤوا أن يطبخوا لأنفسهم طعاماً يقتاتون به احتاجوا للزناد ليشعلوا نارهم ولكنه لم يكن مع هذه القافلة زناد سوى الزناد الذي ترك شبه امانة (عند عقلى بن شبيب) :

وأراد القوم أن يأخذوه من عقلى فلم يرض بصفته أمانة عنده فألحوا عليه لحاجتهم الماسة اليه فرفض إلا أن يشتروه منه فقبل القوم ذلك. فطلب عقلى ان تكون قيمة الزناد ضريبة موزعة

(١) عقلى عنزي النسب ، من قبيلة السبعة ومن فخذ القمصة القاطنين شمال دمشق ، وصاحب الترجمة يمت بصلة رحم لزعيم قبيلة السبعة ونائبها في البرلمان السوري الحالي الشيخ راكان بن مرشد.

(٢) لم أوفق لمن يدلني على اسم جاره .

(٣) الزناد ، هو أداة تستعمل لايقاد النار وكان يقوم مقام الكبريت قبل اختراعه .

(٤) ربما كانت مدينة حمص إذ انها اقرب المدن لمنازل قبيلة السبعة .

عليهم اجمعين .

وتم شراء الزناد على أن يدفع كل فرد من هـــذه القافلة حفنة من طحين البر .

لقد كانت القافلة كثيرة العدد ، لهذا توفر عند عقلى كمية لا يستهان بها من الطحين فباعها واشترى بثمنها شاة وبارك الله بهذه الشاة وزاد بعد ذلك مـــال الأمانة حتى بلغ ستين نعجة وعشرين من الابل ، هذا وصاحب الأمانة لا يعرف شيئاً عما تم بها ، وربما كان نسي زناده ولم يخطر له ببال .

ولكن «عقلى» كان امينـــاً ورعاً حيث ذهب يسأل عنه حتى وجده فسلمه الابل والغنم وذلك بعد مضي عدة سنوات من تركه للزناد عنده [1] .

(١) رويتها من الشيخ مقحم بن مهيد رئيس عشيرة الفدعان حاليـــاً وولداه نواب العشيرة في البرلمان السوري وهما النوري وتركي .

سلم الامانة لاهلها وهم له اعداء

قصة غنام الشبباطي [1] الغريري حدثت عام ١٣٣٨ هـ

أودع عبد العزيز [2] العريفى غنماً عند الشبباطي فنمت هــــذه الغنم وكثرت وشاء المؤتمن أن يسلم الأمانة لصاحبها ، ولكنه لم يتمكن من الاتصال به إذ أن بلده حائل كانت مطوقة من قبل المغفور له الملــك عبد العزيز وجنوده الاخوان . [3]

وكان الشبباطي ممن يؤمن بمبدأ الاخوان فهو على هذه الحالة أصبح لايستطيع أن يأتي للبلاد التي فيها العريفي صاحب الأمانة فحار الرجل بالأمانة لايعرف كيف يفعل بها . وبينما كانت حيرته على أشدها هجم عليه أفراد عشيرته قاصدين نهب هذه الغنم على اعتبار أن العريفي الآن أصبح في الجبهة المعادية لعشيرته فتكون هذه الغنم على رأيهم غنيمة لهم يتقاسمونها وكل يأخذ نصيبه منها .

(١) غنام من قبيلة شمر .
(٢) عبد العزيز من سكان بلدة حائل واسرته من الاسر المشهورة في البلاد توفي رحمه الله عام ١٣٥٢ هـ .
(٣) الاخوان اسم اطلق على مجموعة من البادية انضوت تحت لواء الملـك عبد العزيز رحمه الله إبان قيامه لانشاء المملكة وتركت حياة البادية وسكنت الهجَر

فلما رأى الشباطي عزيمـــة قومه على سلب الأمانة ، لجـــأ إلى الحيلة ، فلم يبد لهم أية معارضة لرأيهم بل تظاهر بأنه مستعد أن يسلم الغنم إليهم ليتقاسموها غنيمة كما يزعمون ، ثم أسرع فساق الاغنام وشخص الى مدينة حائل ليسلم الامانة لصاحبها . فلما دنا من المدينة قبض عليه جنـــود أمير حائل وعذبوه أشد العذاب حيث اتهموه بأنه جاسوس لعشيرتـه على إمارة الرشيد . وبعد التعذيب والتنكيل شفع له صاحبه العريـــفي من بطش الامير الذي سجنه وهدده بالقتل . وبعد أن سلم أمانته لصاحبها عاد إلى عشيرته فلقي منهم الجفاء والهجران واتهم عندهم بالنفاق . ولكنه لم يبال بأقوال هؤلاء ولا اولئك وإنما كان همه ان يؤدي أمانته ليطمئن ضميره العفيف الورع الطاهر (١)

(١) رويت هذه القصة من السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رحمه الله كما حدثني بها سليمان بن عبد العزيز العريفي صاحب الغنم

ضحى بماله دون كرامته

وقعت بين عامي ١٣٤٠ و ١٣٤٥ هـ

شاء بدوي من بادية بلدة « الرياض» أن يضع أمانة من الدراهم تبلغ خمسمائة ريال فرنسي فاختار شخصا يسمى ابراهيم البصري من أهالي « مدينة الرياض » فوضع هذا المبلغ عنده . ثم ذهب الى أهله في البادية وبعد مضي مدة من الزمن عاد البدوي الى الرياض وذهب الى شخص بجوار دكان صاحبه يطالبه بالمبلغ معتقداً أنه هو صاحبه الذي وضع عنده الامانة ، وهذا الشخص يسمى (عبد الرحمن بن محمد آل الشيخ) ، حاول ابن الشيخ أن يقنع البدوي و يوضح له غلطه ولكن البدوي يزعم أنه لايشك ابداً بأن المبلغ عنده ورآى ابن الشيخ ان محاولته شيء يجعل البدوي يشك بأنه يحاول ان يوهمه بغير الحق ليختلس امانته .

هناك فكر ابن الشيخ فرأي أنه بين أمرين : إما أن يطول الجدال بينه وبين هذا البدوي وينتهي بأن يذهبا إلى القاضي ويتخاصمان عنده وهذا شيء لاتقبله شيمة عبد الرحمن ابن محمد بصفته من احفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد الدعوة الاسلامية في نجد ولا يليق بمكانته العلمية والاجتماعية ، ولا يرضى ان يتحدث عنه مجتمعه انه اتهمه بدوي بانكار

امانته مع علمه اليقين بأنه سوف يدحض حجة البدوي وذلك ان الحكم الشرعي في مثل هذه الامور صريح فالمشرع عليه الصلاة والسلام يقول « لو يعطى الناس بدعواهم لا دّعى رجال دماء قوم واموالهم ولكن البينة على المدعي واليمين من انكر » فعلى هذا لايستطيع البدوي ان يثبت علي ابن الشيخ ما يدّعيه كما ان ابن الشيخ لايطالب بغير القسم ؛ ولما كان يعلم من نفسه البراءة فانه كان بامكانه ان يقسم اليمين ويخلص نفسه من هذا المأزق الحرج. ولكن نفسه الكريمة ابت ذلك لان فيه مجالاً لأقوال الفضوليين من قيل وقال ،والشاعر العربي يقول :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذبا

فما اعتذارك من قول إذا قيلا

إذن كان يتحتم عليه الأمر الثاني وهو أن يضحي بماله دون كرامته سداً للذريعة واتقاءً للشبهات والمشرع عليه السلام يقول : « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » فعلى ذلك استحسن أن يسلم البدوي خمسمائة ريال وهو طيب النفس مع العلم أن هذا المبلغ في ذلك العهد يقابل عشرات الألوف في عهدنا الحاضر لأن اكتساب عشرات الألوف في عهدنا الحاضر أمر يسير خاصة في مدينة الرياض التي تضاعفت فيها أرباح التجارة إلى حد لا يسعنا التعبير عنه بحال من الأحوال ، لا سيما

في الأراضي والعقارات ، لهذا أقول : إن هذا المبلغ الذي سلمه هـذا الرجل البريء الكريم لهذا البدوي ربما يكون نصف رأسماله إن لم يكن كله .

ذهب البدوي إلى عشيرته وبقي في صحرائه سنة كاملة لم يأت فيها الى الرياض . وبعد مضي هذه المدة عاد إلى الرياض وبينما هو مار في قلب الشارع الذي يقع فيه دكان صاحبه ، ناداه صاحبه الأول وقـال له : « ألست فلاناً الذي وضع عندي الأمانـة في سنة كذا ؟ قال البدوي : نعم . قـال : ولم تركتها عندي كل هذه المدة ؟ أرجو ان تستلمها مني وتريحني منها لأن مدتها طالت عندي والمرء في هذه الحياة عرضة للآفات والحوادث الطارئة وإنني أخشى ان يأتيني أمر أو أن يحدث بهذه الأمانة شيء لا أرضاه لنفسي ، كما أنك لا ترضى أن يكون مالك عرضة للخطر والحوادث المفاجئة » .

دهش البدوي من حديث صاحبـه ، وخرج فوراً إلى صاحب الدكان الثاني ليتحقق من خطيئته فوجد الشخص الذي أخذ منه المبلغ في العام الماضي جالساً في دكانه ، عند ذلك تيقن أنـه ارتكب خطأً كبيراً بعمليته تلك وافترائه على هذا الرجل الكريم . ولكن ماذا يفعل ؟ فقد مضى الأمر وانقضى .

أخذ بيد صاحبه الأول وهو ابراهيم البصري وقال : « أرجوك أن

تسلم أمانتي هذه لجارك لاني اقترضت منه ما يقابلها » .

اخذ البصري الأمانة وسلمها لابن الشيخ وقال له : إن هذا المبلغ أمرني البدوي فلان أن أسلمك إياه مقابل سلفة اقترضها منك .

لم يذكر ابن الشيخ أنه أقرض بدوياً هذا المبلغ ، فرّد على جاره وقال: إنك مخطىء أنت والبدوي لأني لا أذكر شيئاً من هذا القبيل.

و بينما ابن الشيخ وجاره يتداولان الحديث ، في تلك اللحظة دخل البدوي[1] عليهما وانحنى على رأس ابن الشيخ يقبله و يعتذر منه، هذا والبصري لا يعلم ما هو الأمر ولكنه قد اتضح له فيما بعد .

أقول : من صلاح نية عبد الرحمن بن الشيخ وتوفيقه ان قضيته كانت مع بدوي أمين ولو لم يكن البدوي صاحب أمانة لأخذ المبلغ من البصري وسكت عليه ولكن شاء الله أن يرد البدوي مال هذا الشريف الأمين عليه، كما شاء أن يبقى له ذكرى عمله الطيب خالداً أبداً . ومن التوفيق أيضاً ان البصري أمين ورع ولو لم يكن ذلك لسكت .

حينما ذكرت هذه القصة للشيخ عبد العزيز بن زيد[2] اسمعني قصة

---

(١) كنت اتمنى لو عرفت اسم البدوي أو اسم عشيرته على الاقل ولكنه قد تعذر علي ذلك . والحادثة مشهورة عند ساكني الرياض القدامى .

(٢) سفير المملكة العربية السعودية في دمشق ، توفى رحمه الله عام ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .

من نوعها حدثت بين ضابط من ضباط الأتراك في العهد (العثماني) وبين تاجر من تجار دمشق .

دخل الضابط التركي الى احد الحمامات العامة ، وكان يعتقد أن في جيبه ثلاثمائة (غازي) [1] مربوطة في منديل أحمر ، ثم نزع ألبسته وتدرع بمناشف الحمام فلما استحم وانتهى ، ذهب بعد ذلك الى ألبسته وأخذ يبحث قبل كل شيء عن الغوازي التي كان يظن انه دخل الحمام وهي موجودة في جيبه . فتش في جيوبه فلم يجد شيئاً ، فصاح في صاحب الحمام قائلاً : إني سرقت . فسأله صاحب الحمام : ماذا سرق منك ؟ قال : كذا مبلغاً من المال مربوطاً في منديل أحمر . قال صاحب الحمام : اننا سنتخذ التدابير التي تمكننا من إدراك ما فقد ، وهذه التدابير هي أن لا يخرج أحد من الحمام إلا بعد التفتيش الدقيق له . ومما زاد إيمان صاحب الحمام بأن هذه العملية كفيلة بالوصول الى الغاية ، ذلك انه متأكد أن هـذا الضابط من حين دخل الحمام لم يخرج من الحمام أحد كما انه لم يدخله من بعده إلا رجل واحد وهو شيخ السروجية المدعو محمد سعيد ، ولما خرج الشيخ السروجي من الحمام وجد عند صاحب الحمام ضجة غير طبيعية . فسأل عن السبب فأفيد أن الضابط التركي سرق من جيبه ثلاثمائة (غازية) ومن

(١) الغازي في ذلك العهد هو بمثابة نصف جنيه عثماني حسب ما يقال

المصادفة الغريبة أن السروجي كان يحمل معه نفس المبلغ فوقع في نفسه ما وقع • ولكنه قال : لعلي أسأل الضابط عن لون المنديل الذي صر فيه المبلغ . فسأله فأفاده الضـــابط بوصفه واذا هو صورة طبق الأصل للمنديل الذي يحمله .

شعر السروجي بعد ذلك أنه وقع في التهمة لا سيما وهو داخل بعد الضابط كما أنه نزع ألبسته بقرب ألبسته ، فلم ير بداً من أن يأتي للضابط فيقول له: ابشرك إن دراهمك عندي وذلك أني وجدتها واقعة على الأرض فالتقطتها واحتفظت بها .

وسلم للضابط المبلغ صيانة لشرفه وذهب الضابط الى ثكنته ليضع هذا المبلغ الذي ضاع منه في مكانه.

ولكن عندما فتح صندوقه ، وجد المبلغ بمكانه كما يعهده . عند ذلك ادرك أنه مخطىء وأن السروجي سلم هذا المبلغ حفظاً لشرفه وسمعته ، فذهب فوراً الى السروجي وسلمه ماله واعتذر منه •

وهكذا التاريخ يعيد نفسه . ولكني اعتقد ان حادثة عبد الرحمن ابن محمد بن الشيخ اعظم من هذه الحادثة . وإن كانتا متشابهتين من حيث المعنى ولكن الأولى تمتاز على الأخرى بشيء واحد وهو ان البدوي لا يستطيع ان يدين ابن الشيخ بالبينة الشرعية فيما لو ذهبا الى القاضي

وابدى كل منهما حجته . اما السروجي المسكين فإنه مرغم على عمليته هذه ، فإنه لو لم يفعلها مختاراً فان الشارع ربما يرغمه إرغاماً بحكم القرائن التي تدينه من شتى الوجوه[1]

اجرة الاجير

حدثت سنة ١٣٤٠ هـ

هذه قصة فرهود بن هَنْدَا مع راعي غنمه « الحديدي » وفرهود هذا عنزي الأصل من « السبعة » عرب سورية لا سبيع عرب نجد ، من فخذ يسمى « الدوام » وهذا الفخذ يتفرع من « العبدة » والعبدة[2] قبيلة كبيرة تتفرع منها السبعة . وقد استأجر فرهود شاباً من عشيرة الحديديين[3] من فخذ يسمى «الأبرز» ليرعى غنمه مدة معينة يدفع له عليها جعلاً معلوماً إما من المال او من الماشية .

---

(١) أخبرني أحد الاخوان أن حفيد شيخ السروجية الذي جرت له القصة هو الاستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي واستاذ اللغة العربية في كلية الآداب وقد زرته في بيته فأكد لي القصة ورواها لي بالتفصيل كما وردت في السياق وأفادني بأن القصة جرت في سنة (١٢٥٠ هـ) والحمام الذي جرت فيه هو حمام « السلسلة » الباقي الى الان في دمشق .

٢) العبدة : يقدرون بألفي بيت يرأسهم ابن هد

(٣) الحديديون : يرأسهم ابن كرخ .

ولقد رعى الحديدي غنم فرهود مدة لا اعلم مداها من الأيام وإنما الذي علمته من الشخص الذي روى لي القصة وهو « جوال ابن وايل [1] » : إن الأجرة التي استحصلها الحديدي من « فرهود » عبارة عن حملين صغيرين ، وذهب الحديدي وترك هذين الحملين عند « فرهود » (عدولة) أي أمانة ومضت سنون وهذان الحملان ينموان وما زالت تتضاعف بركتها [2] مع الأيام حتى بلغ العدد سبعين نعجة وتسعاً من الابل وذلك بعد مضي مدة لا تتجاوز خمسة وعشرين سنة .

فلما نمت عند فرهود هذه الماشية ما وسعه آنذاك إلا ان يسعى سعياً حثيثاً للبحث عن صاحب هذه الأمانة . وظل فرهود ينقب عنه وما برح يسأل بإلحاح حتى تأكد أن الشخص توفي الى رحمة الله ، عند ذاك سأل عن ورثته فوجد لصاحبه أخاً فما كان منه إلا أن سلمه جميع الغنم والابل .

وهذه القصة تذكرنا بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن

(١) هو الذي روى قصة كليب الدهمشي مع صاحبه السبيعي . راجعها في صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) من الواضح أن هذين الحملين لا يزيدان نمواً فيما لو تركهما « فرهود » كما هما . ولكنه كان عندما يكبر الواحد منهما يبدله بشاة او يبيعه ويشتري عوضاً عنه شاة من اجل النسل والنمو وهكذا دواليك حتى وصلت الغنم الى ما وصلت اليه من الوفرة والنمو .

رسول الله ﷺ : « أن ثلاثـــة نفر انطلقوا حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا : إنـــه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم » فدعا الأول ببره بوالديه فانفجرت الصخرة شيئاً لا يستطيعون الخروج منه ، ودعـــا الثاني بعفافه اتقاء لله فانفجرت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : « اللهم إني استأجرت أجراء واعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منـــه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبدالله أدّ إلي أجري فقلت : كل ما ترى من أجرك : من الابل والبقر والغنم فقال : يا عبدالله لا تستهزىء بي ! فقلت : لا استهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منـــه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون » .

لقد رسم رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف لأصحابه بقصة هؤلاء الثلاثة أرفع مثل في البر والعفة والأمانة .. فما أروع أن يصل أحد افراد أمتـــه في عصر متأخر في الأمانـــة الى مستوى ذلك المثل الرفيع[1] .

(١) رويت القصة من جوال بن وايل السبيع

قاتل الله الطمع

وقعت بين عامي ١٣٤٨ ــ ١٣٤٩هـ

يوجد قرية من قرى مدينة « حائل » اسمهـــا « فيد » وأكثر سكانها من بني تميم ، أودع أحد سكانها حملاً من الضأن عند شخص يدعى «سلمان الصل » من قبيلة عنزة من الدهامشة وقد وضع المؤتمن هذا « الحمل » ضمن غنمه ورعاه بعناية لا تقل عن عنايته بماشيته إلى أن بارك الله بهذا الحمل حتى كبر وصار كبشاً فبدل الكبش بنعجة فأنجبت هذه النعجة غنماً بلغت بركتها إلى حد أن ابتاع منها الرجل المؤتمن عدداً كثيراً ووضـــع مكانها « نوقاً » فتناسلت هذه النوق إلى ان بلغت خمساً وسبعين ناقة كما بلغ ثمن أوبارها وثمن بعض ما ابتاعه منها مقدار مائة وستين جنيهاً عثمانياً .

وبعد ان بلغت البركة إلى هذا الحد لم يسع هذا الأمين إلا الذهاب إلى صاحب الأمانة أي ساكن القرية حيث سلمه سبعين ناقـــة كما ذكرنا وخمساً وستين جنيهاً عثمانياً .

ومن المؤسف أن صاحب القرية[١] لم يعامل هذا الأمين الورع بما ستحقه من التقدير والانصاف ولم يهبه شيئاً يقابل جهوده وأمانته من هذا

(١) لم أوفق لمعرفة اسم ساكن القرية

المال الذي أتاه وهو لا يحلم به وربما وهبه بعضاً منه .

عاد الأمين إلى أهله وبينما هو في سبيله عائداً مر على بلدة « حائل » ودار الحديث بينه وبين أحد سكانها فقص الأمين قصته عليـــه فأرشده الرجل إلى أن يقيم دعوى على صاحب القرية وفعلاً رفع الأمر إلى أمير البلاد « عبد العزيز بن مساعد » والأمير بدوره أحال الدعوى إلى القاضي الشرعي وهو في ذلك العهد المرحوم « الشيخ عبدالله بن بليهد »[1] فاستدعي صاحب القرية من قريته وجرت المحاكمة بينه وبين صاحبه الامين فحكم القاضي بأن يأخذ البدوي الأمين نصف الابل والجنيهات مقابـــل أتعابه ويترك النصف الأخير لصاحب القرية .

(٢) « ابن بليهد » من علماء الجزيرة توفي غفر الله له عام ١٣٦٩ بمدينة الطائف

أمانة بلغ أجلها قرناً

في عام ١٢٥٨ هـ أودع امير بلدة «بريدة» المدعو عبدالعزيز المحمد ناقة عنـــد شخص يدعى (طلق الشعيلي) من قبيلة عنزة من فخذ يسمى السويلمات وذلك في الحين الذي كانت قبيلة (طلق) تقطن اراضي نجد وقد اتت ظروف كان من شأنها ان نزحت هذه القبيلة واستوطنت الاراضي العراقية فبعدت اراضي صاحب الأمانة عن المؤتمن ، هـــذا والمؤتمن لا يزال معتنياً بأمانته أشد العناية الى ان بارك الله بها ونمى الخير منها نمواً سنذكر مقداره في آخر القصة ٠٠ وقد توفى كل من عبد العزيز صاحب الأمانة وطلق الذي أودعت عنده الناقة ، ولم يبق إلا احفادهما ، وبعد ذلك قدم أحفاد (طلق) الى (بريدة)حيث وجدوا أحد أَحفـــاد عبد العزيز صاحب الأمانة المدعو عبد الله بن عبد المحسن بن عبد العزيز فسلموه ثمانين ناقة وثلاثاً من الخيل الجياد ، وفي عام ١٣٥٠ هـ سلم احفاد المؤتمن لأحفاد صاحب الأمانة عشرين ناقة واربعين نعجة .

(١) بريدة احدى مدن نجد والقصة رويتها عن عبد العزيز العبـد الله الصقير ، وهو يزعم انها مشهورة . ولئن كنت أشك في صحة رواية الراوي فانني لا اشك في صحة وقوع القصة .

من مصادفات الحديث

قصة كليب العنزي الدهمشي من فخذ آل عياش
مع صاحبه السبيعي

هذه القصة تلقيتها مبدئياً من الشيخ (راكان[1] بن مرشد) في السفارة السعودية في تاريخ ١٥ـ٦ـ١٣٧٤ هـ ــ ٧ـ٢ـ١٩٥٥ م وقد كان الحديث بين السفير (عبدالعزيز الحمود بن زيد) وبين الشيخ (راكان بن مرشد) يدور حول أخلاق العرب وما يتصفون به من صفات سامية كالأمانة والوفاء بالعهد وحسن الجوار وما الى ذلك . وقد كان السفير يروي للشيخ (راكان) قصة [2] عنزي من فخذ الدهامشة وقعت له مع (راعي الحليفة[3]) وفيها بلا شك ما يدل على احترام الأمانة في خلق العربي . وعندما انتهى السفير من رواية القصة بإيجاز ، قال الشيخ راكان : أريد أن اروي لك قصة قريبة العهد فأصغى السفير لاستماع ما يرويه الشيخ فقال (راكان) : من مدة اسبوعين كنت في صحراء المملكة السعودية اصطاد غزلاناً على متن السيارة . وفي أثناء مسيري هذا وجدت (خرجاً) مطروحاً في

(١) راكان رئيس عشيرة السبعة ونائبها بالبرلمان السوري حالياً .

(٢) هي قصة مشهورة راجعها في هذا الفصل صفحة « ١٢٥ » .

الصحراء فأوقفت السيارة وأمرت السائق أن يأخذ هذا الخرج فأخــذه فإذا به خرج بدوي فيه أشياء تافهة تدل على أن هذا الخرج لفرد ما من البادية . قال ثم سرنا قليلاً فوجدنا (شداداً) مطروحاً ايضاً في الأرض قال ثم تابعنا المسير ولكن ضميري كان غير مرتاح لمسيرنا هذا لأنني خفت ان يكون صاحب هذه الأشياء رجلاً طرحته مطيته في الأرض كما طرحت هذا الشداد والخرج عن ظهرها . قال : فعند ذلك امرت قائد السيارة ان يعود من حيث اتى ، فلما وصلنا الموضع الذي وجدنا فيه الخرج بقيت انا ورفاقي في السيارة يمد كل فرد منا بصره وننقب عن الشخص صاحب الخرج والشداد فرأينا بياضاً يلوح على البعد فلما دنونا منه وجدنـاه شخصاً مرمياً على قفاه فاقد الشعور . قال الشيخ : فحاولنا ان نبحث معه لنعلم من هو ؟ ومن أي قبيلة يكون حتى نحمله ونوصله الى عشيرته ؟ ولكن الرجل لم يكن لديه من القوى العقلية ما يجعله يفيدنا بشيء مما نريد وذلك لشدة ما اصابه من الألم .

يقول الشيخ وبينما نحن على هذه الحال نظر إليه أحد الرفــاق وهو المدعو «جوال بن وايل» وقال له ألست فلاناً ؟ قال المنكوب: بلى ، بصوت خافت ضئيل. يقول راكان: قلت لصاحبي: متى كانت معرفتك به؟ فأجابني بأنه عرف هذا الرجل منذ ستة أشهر . وذلك أنه ساقه القدر ونزل ضيفاً عنده أي عند (جوال) وكان في أثناء ضيافته يسأل عن شخص من عرب

السبعة وهو رجل كأن اشترى منه عنزين من مدة تزيد على ثلاثين سنة . وبعد أن دفع ثمنهما انطلقت واحدة منهما وضاعت من يد المشتري فبقيت الثانية قلقة لفقد رفيقتها . فخشي المشتري أن تضيع الأخرى وتلحق سبيل الأولى . لهذا اضطر إلى ان يترك العنز الثانية عند صاحبها البائع لتكون «عدولة» [1] .

لقد كان الشيخ راكان يسرد هذه الحادثة على مسمع من السفير ابن زيد وكان كاتب هذه الأحرف جالساً ، فالتفت إليّ السفير فأشار بقوله: إن هذه الحادثة من الأمور التي يحرص على تدوينها فلان - يعنيني - وكنت قد أعددت الورقة والقلم لكتابة القصة لأنها من الحوادث التي من واجبي أن أسجلها في حقل (شيم العرب)، وعندما انتهى الشيخ راكان من رواية الحادثة طلبت منه اسم الشخصين المؤمن والمؤتمن . كما طلبت منه أن يفيدني عن مقدار ما بلغ نمو هذه الأمانة في هذه المدة فأجاب الشيخ (راكان) بأنه لا يعرف عن ذلك شيئاً غير انه ارشدني الى الرجل الذي يعرف القصة من

(١) العدولة هي شبه أمانة توضع عند فرد ما من عرب البادية إما نعجة أو عنز أو أقل من ذلك أو أكثر . المقصود أن هذه الأمانة يضعها صاحبها عند الشخص الذي يكون مظنة للامانة وهـــذا الشخص يحرص على حفظها وتنميتها أكثر من حرصه على ماله . والمؤتمن يكون من حقه أن يتمتع باستغلال لبن وسمن وصوف هذه الامانة ابلاً كانت أو غنماً .

أساسها . وهو المسمى (جوال بن وأيل)[1] المقيم حالياً بدمشق في فندق الأندلس الكبير . وبما أني كنت ولم أزل شديد الشغف والحرص على تسجيل أمثـــال هذه الفضيلة لذلك ذهبت في الغد الى الفندق المذكور . فوجدت به رجلاً غريباً جالساً في صالة الفندق وعلى محياه طابع الصدق والوقار . كما وجدت الشيخ راكان الذي أرشدني إلى (جوال) . فدنوت منه وسألته عن القصة فراوها لي كما رواها لنا من قبل الشيخ راكان . فعدت أسأله عن اسم الشخص المؤتمن ـ أي الذي اودعت عنده العنزان ـ قال اسمه كليب ولا علم لي باسم أبيه كل ما أعرفه أنه يدعى كليب من أصل عنزي [1] من الدهامشة . ومن فخذ يسمى آل عياش . سألته عن عدد الماشية التي نمت وترعرعت عنده من الأصل الذي كان أساسه تينك العنزين . قال جوال : إن كليباً عندما ضافني كان معترفاً لي ان تينك العنزين نمتا إلى أن بلغتا خمسين نعجة وخمسة عشر من الإبل ودراهم لا يذكر جوال عددها .

(١) جوال هو من عشيرة عنزة من فخذة العبد وهو رئيس عشيرة الرمـاح . ويبلغ عدد العرب الذين يرأسهم تسعين بيتاً .

(٢) هي في الأصل عنز واحدة على اعتبار أن الثانية ضاعت . ولكن يروى جوال عن كليب أن تلك العنز لما ضاعت وجدها عند فرد من عرب قبيلـته وأراد الذي وجدها عنده أن يبيعها لنفسه ولكن كليبا ادعى أنها امانة عنده فأخذها منه بالقوة بعد مقاتلة عنيفة .

عدت استفهم جوالا عن اسم الرجل السبيعي الذي أودع هاتين العنزين عند كليب الدهمشي قال جوال : إنه لا يعرف اسمه لأن كليباً عندما ضافه ما استطاع أن يهتدي إليه لأن القضية كما أسلفنا لها ثلاثون سنة وكليب في الأصل ما كان يعرف اسم صاحب الأمانة وغاية ما يعرفه أنه من عرب السبعة ولديه فرس حمراء . هذا كل ما يعرفه عن صاحب الأمانة ٠

يقول جوال: لا أستبعد أن كليباً إلى الآن لم يهتد إلى صاحب العنز فهو لا يملك أدلة قاطعة يستطيع على هداها أن يصل إليه ٠

وقد سألت الشيخ راكان عن الرجل المدعو كليباً الذي وجده ملقى على الأرض، سألته: ماذا تم في أمره ؟٠

قال راكان: إننا حملناه معنا في السيارة حتى وضعناه عند عشيرته و ذلك آخر العهد به ٠

فائدة لم نسع اليها

في تاريخ ٧ ـ ٦ ـ ١٣٧٥

عندما كنت في دائرة عملي في السفارة العربية السعودية في دمشق في تمام الساعة الحادية عشر فرنجياً من التاريخ المشار اليه هنـــاك دق جرس الهاتف فتناولت السماعة لأستوضح من هو المتحدث؟ فإذا به الأَخ سليمان الإبراهيم القاضي [1] وبعد تبادل الحديث افادني الأَخ أن لديه عزيمة سفر الى مدينة جدة في صبـاح الغد ، كما أبدى لي شعووه الطيب فيما إذا كان لدي حاجة هناك ، فإنه الأَخ المتواضع الذي يقوم بقضاء حوائج إخوانه بضمير مطمئن ونفس متواضعة ، ولقد شكرت الأخ القاضي على نبله وتواضعه الذي لا يستغرب منه كما أفدته بأن لا بد لي من حـــاجة عند شخص ما في (جدة) وأكدت له بأني سأمر عليه في مكتبه مساء لأوضح له حاجتي ، وتنفيذاً للوعد ذهبت اليه وسلمته رسالة مفتوحة ، وطلبت منه أن يقرأها ليفهم ما تحتوي عليه من الغاية ليتولى تنفيذ مضمونها فيما اذا وصل « جدة » وكانت الرسالة موجهة لتاجر في جدة وهو الأخ عبد الله

(١) سليمان من مدينة عنيزة ومن اسرة القضاة الذين نبغ منهم الشاعر الشعبي المشهور محمد العبد الله القاضي المتوفي عام ١٢٨٥ وهم تميميو النسب واسرته من اشهر الأسر العريقة في بلادها ، وسليمان حالياً مقيماً في دمشق يمتهن حرفة التجارة .

العلي البسام الذي أستوضح منه إفادتي عن قصة أمانة تستحق الذكر كان لها صلة بين البسام و بين شخص آخر ، وحيث أن الشخص الذي رويت عنه القصة غير ملم بها من الناحية التاريخية ولا عن تفاصيلها . لهذا رأيت أن استفسر من البسام بحكم علاقتـــه المباشرة بالقصة حسب ما رويتها من الراوي .

عندما قرأ القاضي رسالتي وفهم ما فيها من غاية أصبو اليها ، انحرف إليّ وقال (اني أحدثك عن قصة قريبة العهد . وفيها من الأدلة الناصعة والبراهين الواضحة على امانة فاعلها الشيء الذي يسترعي الانتباه ويجدر بالكاتب ان يسجلها بمداد من الذهب) ، ثم استرسل القاضي وقـال : وإن لدي من الوثائق الخطية ما يؤكـد صحة القصة من الناحيتين التاريخية والواقعية .

هذا وقد كنت أصغي لاستماع حديثه بكل لهف وشوق .

فقال القاضي : ثمة شخص يدعى (سليمان المحمد الخليف [1]) كان يتعاطى مهنة التجارة بين المملكة العربية وبين بادية سورية ، وقـــد ذهب بتجارته الى قبيلة السبعة [1] وذلك من مدة خمسة عشر عاماً فحل

(١) سليمان من مدينة عنيزة وهو لا زال على قيد الحياة

(١) هذه القبيلة من عشيرة عنزة .

عندهم مدة ابتاع ما ابتاعه من بضاعة واشترى ما شاء الله أن يشتري من المواشي عوضاً عن بضاعته ثم رحل عن هؤلاء العرب ولم يعد اليهم بعد ذلك .

وقد نسي (منديلاً) في منزله الذي رحل منه ، وبعد ذهابه عن المنزل أتت حرمة من نساء القبيلة فوجدت هذا المنديل مطروحاً في الموضع الذي رحل منه التاجر : فايقنت اليقين القاطع بأن هذا المنديل للتاجر الذي رحل من عندهم ، فأرادت أن تلحق به لتسلمه أمانته ، ولكنه قد بعد بعداً لا يمكنها الوصول اليه ، فرأت أن خير وسيلة تلتمسها هي أن تحتفظ بهذا المنديل أمانة عندها بل إنها لم تحتفظ به كأمانة مجمدة ومعطلة الفائدة ، بل قررت أن تتصرف به وتستثمره بقدر ما تستطيع من الجهد ، لعل الله يبارك به ،وينمو ريعه وتنتشر بركته [٢] .

ولما كانت الأعمال كما ورد في معنى الحديث الشريف مقروناً بنجاحها بصدق نية صاحبها ، فلا عجب إذ لقيت هذه المرأة نجاحاً باهراً في حسن تصرفها في هذا المنديل التافه ذلك أنها ذهبت به وباعته بكمية من الصوف وغزلته ونسجته حبالا . ومن بعد باعت الحبال بدراهم . وبدورها

(٢) اشارة الى قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » الخ . هذا الحديث يعتبره رجال السنة من أبلغ الأحاديث

ذهبت واشترت بهذه الدراهم سخلة ، عند ذلك كرست الانثى التقية جهودها نحو العناية بهذه السخلة حتى وضع الله البركة في ذرية السخلة ، بل قل في مساعي هذه الانثى الطاهرة القلب الصادقة النية ، الى أن تفرع من هذا الجزء الضئيل الاصل عدد جم من الغنم [1] .

وعلى الفور كلف ابنه حمداً ان ينقب عن هذه الوثيقة لعله يجدها بدفاتره التي في دمشق ، ولحسن الحظ أن (حمداً) كان واضعاً للوثيقة في قلب الصندوق التجاري ومتذكراً موضعها الذي وضعها به .

يالله !! كم تراني مسروراً ومبتهجاً عندما تناولت هذه الوثيقة ذلك أني وان كنت لا اشك بصحة عموم القصص التي سجلتها هنا . وانما هذه القصة لديها من البينة والبرهان ما يجعلنا نزداد ايماناً لا من ناحية صحة هذه القصة بالذات ، فهذه شاهدة من نفسها على نفسها بحكم وجود هذه الوثيقة الآتية ، وانما ازددت سروراً من أجل ما فيها من تأييد واضح على صحة القصص العربية التي أوردناها هنا ولم يتيسر لنا العثور على وثائقها كعثورنا على وثيقة هذه القصة وغيرها التي يطلع القارىء على نصها موضحاً .

واليك نص الوثيقة بنفس التعبير الذي جاءت به طبقاً للأصل :

(١) للقارىء ان يرى صورة الكتاب الآتي آخره يتضح له المجموع كاملاً من غنم وشيء من الجمال والحمير .

بسم الله الرحمن الرحيم

في ٢٨ ربيع آخر ١٣٧٣

بسم الله وحده عن بيان ما عند سالم بن الهنيدي من ادوام السبعه لنا عدد ١٣٣ عنده ماية وثلاثة وثلاثين رأس غنم منهن ثمان معز والباقي ماية وخمسة وعشرين ضان عدد ١٢٥ وبيان الضان ٧٧ سبع وسبعين ضان جلايل[1] شياه[2] فقط منهن ٥ خمس كباش ومن الضان ٢٦ ستة وعشرين شات جذعات[3] ومن الضان ٢٢ طلي[4] جذعان قراقير عدد ١٢٥ فصح عدد الضان كما هو مذكور اعلاه ماية وخمسة وعشرين والمعز ٨ ثمانية منهن ٥ خمس معز كبار وتيسين ٢ جذعان ووحده صخله الجميع ٨ وبيان وسم الغنم ١٣٣ وبيانهن ومعهن زمال[5] ابيض وزماله سودا وبيان وسم الغنم الشلقة بالإذن اليمنى وايضاً شلقة صغيرة بالأذن اليسرى من قدام هذا عدد الغنم واوصافه ووسمه وأيضاً لنـــــا عند المذكور سالم ثلاث بعارين[6] جمل خصي اصفر وقعود[7] لقي اصفر وناقة صفراء ويزعم سالم

(١) الجلايل ، الكاملة السن .
(٢) شيان ، جمع شاة .
(٣) جذعات ، المراهقات .
(٤) الطلي ، الذكر من الضأن الذي بسن المراهقة .
(٥) الزمال ، الحمار .
(٦) أي جمال .
(٧) قعود لقي ، المراهق من الابل .

ان لنا عند واحد من الدوام خمسين ليرة سوري قيمة شاة هذا الذي عند سالم لنا وداعة ثم بعد واجهنا بامليص في ٢٦ صفر ١٣٧٢ طلب منا سـالم انحنا نقوم عليه الغنم ١٣٣ رأس والزمايل اثنين والجمل الخصي انقومهن عليه بتثمين بضاعة تكون عنده شركة[٣] عضم ومنه قومنا عليه بتثمين ما يسون وهن ١٣٣ رأس غنم وزمالين[٤] والجمل الخصي في مبلغ ستماية واربعين دينار عراقي ومنه يورد علينا قيمة صوفها وسمنها وخرافينها والذي ينباع من شيان ويورد علينا ويقيد الوارد دينار حتى ان شاء الله يبلغ الوارد المذكور ستماية واربعين دينار تكون الغنم ونسله والجمل والزمايل بيناحنا وسالم انصاف نسأل الله حسن النية بين الطرفين وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمـــد وآله وصحبه . حضر سالم يقول بعد ساعات وجدنا له ثلاث معز و نعجتين ثنوات وقيمة الجميع ١٩ دينار تضاف على اصل القيمة بهذا حرر في ٢٢-١-١٣٧٣ والقعود والناقة ما جرا عليهن تثمين لنا عنده وداعه بعد يبيعهن سالم القيمة مع خمسين ليرة سوري لنا عند واحد بعد يقبضهن يسلمكن ياهن .

واليك نص الوكالة حرفياً :

(١) شركة العضم ، المناصفة بين الشركاء

(٢) يعني حمارين .

بسم الله وحده نعم انا كاتبه سليمان الحمد الخليف قد وكلت الأخ المكرم سليمان الإبراهيم القاضي وكالة شرعية وكلته على مـــا عند سالم ابن الهنيدي من ادوام السبعة وكلته على ما عنده لنـــا من غنم وبعارين ونقود عملة وكالة مفوض ماين مفتصل وما وصله وصول وما اجرا جايز من بيع مواشي أو قبضهن نضره جايز وصلى الله على سيدنا محمـــد وآله وصحبه وسلم[1] .

كاتبه بيده سليمان الحمد الخليف

حرر في ٢٨ ربيـع الآخر سنة ١٣٧٣

(١) يعبّر تعبيراً عامياً وفيه لحن كثير ونحن نقلناه كما هو وذلك حرصاً على أمانة نقله الخطي .وصورة الوثيقة نشرناها في الطبعة الاولى .

شرح ما تتضمنه الوثيقة

أولا أن سليمان المحمد الخليف ، لم يعلم شيئاً عن هذا المنديل من اساسه ، ولم يحلم بأن منديله الضائع من مدة خمسة عشر عاماً قد التقطته يد أمينة وصيرت منه مئات من الغنم . هذا أمر لم يتخيله قطعياً ، ولكن الذي أخبره بذلك ابن المرأة المدعو «سالم الهنيدي» المذكور اسمه في الوثيقة ، فسالم هذا هو الذي أوصى أو هو كتب رسالة لعبد العزيز يوضح له مجموع ما عندهم له من المواشي وعلى ضوء هذه الاخبار قدم عبد العزيز من الجزيرة العربية ولكنه عندما وصل الى هؤلاء الأمناء ووجد ما عندهم له من الغنم وبعضاً من الابل والحمير ، عند ذلك لم يكن الرجل ذا جشع ولا طمع ، بل كان عادلا في تصرفه منصفاً لاصحابه الامناء حيث جعل مجموع المواشي شركة فيما بينه وبين ابن صاحبة المنديل سالم[1] بن الهنيدي ، فترى الوثيقة موضحاً بها شيئاً من ذلك والوثيقة تشير إلى أن عبد العزيز صاحب المنديل ، قد ابتاع قسطه بستمائة واربعين ديناراً عراقياً على سالم الهنيدي على اساس أن سالماً يسدده هذا المبلغ أقساطاً ، وقد دفع سالم

(١) من سياق الحديث يبدو ان المرأة قد توفيت الى رحمة الله ووكلت ابنها على المال وذلك لأني لم أر لها ذكراً في السند .

بعضاً من المبلغ والبقية فيما بعد يدفعها سالم لعبد العزيز وبعد ان يتم تسديد المبلغ من سالم لعبد العزيز تكون المواشي ملكاً لهما جميعاً .

وهذا هو النص الذي جاء في السند .

فعلى هذا التقدير يصبح مجموع قيمة الغنم وما فيها من جمال وحمير مقدرة بألف ومائتين وثمانين ديناراً عراقياً .

رب صدفة خير من ميعاد

في تاريخ ٥ جمادى الأولى ١٣٧٥

ذهبت لزيارة الأخ « ابراهيم النصار »[1] حيث وجدته في بيته وبعد مضي دقائق من جلوسي عنده، هناك دار الحديث بيننا وكان البحث يتضمن شيئاً من القصص العربية التي نسعى لتدوينها وبصورة خاصة كان الحديث يدور حول القصص التي لها علاقة بالامانة .

وفي اثناء حديثنا هذا انتبه لي النصار وقال : لقد خطر على ذاكرتي رسالة أتتني من مدة ثلاث سنوات من قبل شخص من قبيلة عنزة يدعى محمد بن حجر من الدهامشة ووصل حديثه الى أن قال : وان صاحب الرسالة ليذكرني بشيء لا أذكره فهو يشير بها بأنه سبق أن اشترى مني

---

(١) ابراهيم هو من اهالي مدينة بريدة وهو تميمي النسب ومن آل ابي عليان الذين كانت لهم امارة بلدة بريدة سابقاً وهو حالياً مقيم في مدينة دمشق ويعمل تاجراً فيها .

جملاً عندما كنت أتعاطى مهنة التجارة بالابل وذلك من مدة عشر سنوات ويزعم أنه في ذلك العهد تبقى لي عنده من قيمة الجمل نصف دينار عراقي ويبين أنه تصرف به في سبيل المصلحة ، حتى نمى ونتج من أثر تصرفه جمال وبعض من المواشي أي الغنم .

عندما روى لي الأخ ابراهيم هذه القصة طلبت منه فوراً ان يستحصل لي على الرسالة التي اتت له من صاحبه ، ومن التوفيق أنه كان محتفظاً بها . لهذا ذهب فوجدها وسلمها إلي حالاً . وها نحن نضع نصها بالذات بين يدي القـــارىء مكتفين بنشر صورتها في الطبعة الأولى :

حضرة الأخ العزيز ابراهيم السيد[١] من عقيل[٢] االمحترم بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أول السؤال عن عزيز خاطركم. بعـــد يا اخي نخبرك من طرف نصف الدينار الذي انقطع لك علينا من ثمن الجمل صار لك عندنا (بعير [٣]) ومواشي[٤]. ولا هن كثيرة واصلك يا خي عُقيّل الجعيب (٥) .

المحب الداعي : محمد بن حجر من الدهامشة
هذه طبق الأصل

---

(١) كلمة السيد هو لقب للأخ ابراهيم .

(٢) اما قوله من عقيل فهذا الأسم يشمل كل من يمتهن تجارة الابل بصورة عامة من اهالي نجد وهو بصورة اخص يشمل اهالي القصيم من نجد وذلك حسب الاصطلاح.

(٣) يعني جملاً . (٤) يعني غنما . (٥) يعني حامل الرسالة.

ضالة وجدتها مؤخراً

في الحين الذي كنت أصحح آخر ملزمة من فصل الأمانة ، في تاريخ ١٨ جمادي الآخرة هناك وجدت هذه الضالة الآتي ذكرها عند « الدريعي ابن متعب الحذب[١] » ، لقد حدثني بما هو آت فقال : ثمة امرؤ من قبيلة شمر يدعى « خليف بن رويشد » أَوْدَعتْ عنده سخلة وصاحب الوداعة رجل من ساكني مدينة المشهد [٢] يدعى « أحمد بن ناجي » وذلك عام ١٣٣٥ هـ على وجه التقريب ، وهذه الوداعة هي طبعاً (عدولة) وقد سبق أن شرحنا معنى العدولة بهذا الفصل ، ومعناه أنه يتصرف بها المؤتمن وينميها كما يتصرف بماله وله مقابل ذلك الصوف واللبن والسمن حسب الاتفاقية . وكانت أيام غير طويلة الأمد ، واذا المُودَّع يسلم لصاحب السخلة مائة جنيه ذهباً عثمانياً .

وبعد مضي زمن قريب سلم المؤتمن ايضاً لصاحب السخلة خمسين جنيهاً عثمانياً وخمساً من الابل ، ويزيدني الراوي تأكيداً ان هذه الأمانة لا زالت بركتها تدر ، وريعها ينمو الى حد العام الماضي ١٣٧٤ هـ بهذا الوقت القريب بعث المؤتمن لصاحب السخلة ثلاثين ديناراً عراقياً ، ويوضح لي « الدريعي » ان هذا المبلغ الأخير قد دفعه المؤتمن بواسطة ابراهيم بن سليمان الجربوع ولا زال للأصل بقية حتى الآن .

(١) الدريعي هو أحد رؤساء قبيلة شمر .
(٢) المشهد احدى مدن العراق المسمى بالنجف .

فصل العفو

وَمَا قَتَلَ الأحرارَ كالعفوِ عَنْهُمُ
وَمَنْ لكَ بالحُرِّ الذي يَحفظُ اليدا

«المتنبي»

من ابلغ المعاني التي قالها الشعراء والحكماء من العرب عن العفو قول شاعر الحماسة الشعبي المغفور له « محمد العوني » الذي قال بيتاً في العفو قلّ أن سبقه أحد من شعراء العرب الى معناه . وذلك في قصيدته اللامية التي يعتذر بها من الإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود والد الملك عبدالعزيز رحمهما الله عام ١٣٢٥ هـ .

والقصيدة أكثر من أربعين بيتاً . وهنا نأتي بالبيت المناسب للموضوع الذي نحن في صدده وهو قوله :

لولا الحَمَال(١) وَمَا تكوّن من النّوْم
ما كان صَار العَفو لُهْ سايِلٍ سالْ

١) الحمال هو الذنب ويقال ان فلاناً محمل اي ارتكب ذنباً .

يقول الشاعر : إن الجرائم العظيمة التي يرتكبها المجرمون والذنوب والخطيئات الجليلة التي تبدر من المسيئين هي التي بسبب وجودها كان لاصحاب العفو ميزة يمتازون بها ، ومكانة مرموقة بين المجتمع ، والشاعر يؤكد أنه لو لم تكن ثمة جرائم تبدر من المجرمين ، لما كان للعفو واصحابه أدنى ذكر جميل في التاريخ الانساني .

واذا شئنا أن نحلل فلسفة العوني تحليلاً منطقياً وواقعياً ، يحسن بنا أن نقول : إن هذه السجية أي العفو هي شيء كامن في جوهر الانسان لا يعلم أحد عنه شيئاً كبقية السجايا المثلى المتوارية في معدن المرء كالشجاعة والوفاء وما أشبه ذلك ، فخذ مثلاً الشجاع لو لم تصدف حادثة تثير هذه الجبلة الكامنة في كيان صاحبها لأصبح هذا الشجاع مجهولاً لا يعرفه أحد .

وهذا ما ذهب اليــه بعض الفلاسفة بقولهم « ان الابطال الصناديد والجبناء الرعاديد لا تلدهم الحوادث الجسام بل تكشف عنهم الغطاء حتى يراهم الناس . وكذلك العفو لا يعرف اهله إلا في المناسبات والعفو هو ما يصدر من تسامح وغفران من القوي تجاه من هو دونه ، أمــا التسامح من الادنى تجاه من هو اعلى منه فإنه يعتبر ذلة وخنوعاً .

بطل يعفو عن بطل

قصة عدوان بن طوالة [1] وعقاب بن سعدون العواجي
حدثت على وجه التقريب عام ١٢٤٥ هـ

وكان الاول يقطن شرق جبلي طي بينما كان الثاني يقطن في الجنوب منهما والحرب بينهما دائماً سجال ، واجتمع الزعيمان بطريق الصدفة وقد كان هذا الاجتماع في بلدة (الرس) التي هي إحدى بلدان القصيم ، حيث نزل الخصمان وقومهما ضيوفاً على امير البلدة ولا اعلم أيهما الأول ، وكل ما اعلمه انهما اجتمعا عند أمير هذه البلاد وكان الأمير كريماً فنحر لكل منهما كبشاً وعندما اجتمع الزعيمان وجّه عدوان خطـــابه لعقاب قائلاً : « لقد اجتمعنا بغير اختيار واحد منا ، وإني لأرجو أن تكون نتيجة هذا الاجتماع حسنة للطرفين فيما اذا أحسنا التصرف وتركنا الضغائن والعداوة القديمة .

عقاب : ماذا تقصد من كلامك هذا ؟

عدوان : اقصد أن نتعاهد نحن وانتم بهذه الغزوة ونشترك في الغنيمة التي نكتسبها من إبل أو غنم العدو . ولاشك أنها اذا اجتمعت قوة غزاتكم مع قوة غزاتنا فإننا سوف ننتصر بحول الله على أي قبيلة نغزوها

(١) عدوان رئيس عشيرة الأسلم من شمر وعقاب رئيس عشيرة ولد سليمان من عنزة .

ولنذكر في تاريخ حياتنا أن قبيلة شمر وقبيلة عنزة تصالحتا يوما من الدهر وغزتا عدوهما سوياً .

عقاب : اختر لك رأياً أحسن من هذا الرأي .

عدوان : لا أعلم أصوب ولا افضل من هذا الرأي .

عقاب : لا شك انك رأيت قومي اكثر من قومك عدداً ، ودبرت لك حيلة لتنجوا بها من هذا المأزق خشية أن ننتصر عليك لهذا بادرتني بهذا الحديث الذي فيه من المكر والخديعة أكثر مما فيه من الحقيقة . وإن يكن فيه مصلحة فإنها في جانبك اكثر مما هي في جانبي . ولو علمت ان قومك أكثر من قومي لما أبديت رأيك هذا ، بل ربما كان رأيك على عكس ذلك .

عدوان : ما هو الرأي الذي تشير اليه وتريد أن تفعله أنت بصفتك أكثر مني قوماً .

عقاب : أريد ان نتنازل نحن وانتم بهذه الأرض الجميلة ، ويتبارز أبطالنا وأبطالكم. ثم واصل حديثه وقال : أليس كل من قومك وقومي كانوا يشدون الرحال من مكان بعيد لا قصد للطرفين غير محبة الفوز ولذة النصر والتغلب على الخصم؟.

---

(١) يشير الى أرض الرس لأنها أرض برية فسيحة لا حجر فيها ولا شجر ،فهي خير ما تكون لمبارزة الفرسان .

عدوان: « صحيح ما تقوله ولكن نحن الآن اجتمعنا في ناد واحد لهذا أرى أن الأحسن هو رأيي السابق » .

عقاب: « نعم إنه الأحسن بالنسبة لسلامتك وسلامة قومك أما بالنسبة لي ولقومي فلا أرى فيه شيئاً يوافق مصلحتنا »

عدوان: « إذا كان ولا بد فلتكن المبارزة في صباح الغد ». عقاب: وهو كذلك .

فلما انبثق الفجر خرج عدوان مبكراً يتبعه فرسان قومه ومر بطريقه إلى عقاب وأبلغه أنه في انتظاره في المكان المعين ، فلما برز عدوان بقومه وقف بهم ورسم لهم الخطة الحربية بعد أن حرضهم على القتال حيث قال لهم: « نحن لا نريد غنيمة إلا شيئاً واحداً وهو رأس زعيم القوم - أي عقاب العواجي - هذا الرجل الذي تحدانا معتمداً على شجاعته وكثرة قومه لهم قائلاً : « إننا إذا قتلنا عقاباً أو طرحناه أرضاً فقد تم لنا النصر على قومه أجمعين » ثم إنه بعد ذلك قسم قومه الى فرقتين فرقة جعلها معه ويتولى قيادتها هو بنفسه وفرقة أخرى جعل عليها رئيساً من أفراد عشيرته ممن يثق بحزمهم وبطولتهم .

فأما الفرقة التي معه فقد أمرها أن لا يكون لها كفاح ولا مناضلة عدا شيئاً واحداً وهو أن يوجه كل فرد منهم همه وشجاعته وقوته تجاه رئيس

القوم الذي هو عقاب .

وأما الفرقة الأخرى فقد كلفهم أن يحاولوا ما استطاعوا أن يحولوا بين عقاب وقومه وأن لا يدخروا وسعاً من اشغال قومه عنه في الحين الذي تطوقه خيول الفرسان الأخرين الذين يقودهم عدوان بذاته وقد أبرموا أمرهم على هذه الخطة المحكمة .

أما غزاة عنزة فقد كان زعيمهم مهملاً الى آخر حد الإهمال والسبب في إهماله هذا أنه كان واثقاً ببطولته ورباطة جأشه التي لا تتزحزح هذا من ناحية والناحية الأخرى كان معتمداً على كثرة قومه وقلة أعدائه . وبعد أن بزغت الشمس وارتفعت قيد رمح خرج فرسان عنزة مدججين بالسيوف والرماح يقودهم البطل عقاب، وبارز أمام قومه فذهب مسرعاً نحو الموضع الذي يعتقد أن الخصم ينتظره به حسب الوعد المعين بين الخصمين. فلما دنا من المكان ونظر خيول عدوه هب على الفور وأطلق عنان فرسه وقومه على أثره فتركه عدوان وقومه حتى قرب، منهم ثم أمر قومه بتنفيذ الخطة التي اسفرت عن فصل عقاب عن قومه حيث طوقه عدوان بالفرقة التي يرأسها كما أن الفرقة الأخرى حالت بين عقاب وقومه عن نجدتهم له فلم تستمر المعركة إلا مدة وجيزة حتى وقع عقاب اسيراً بيد عدوان وطرحه أرضاً بدون أن

يقتله ومن غير أن يمنعه بل استلمه « شلعاً لا منعاً »[1] وقد كانت التعاليم الحربية التي أخذها قوم عدوان ترمي الى أنه متى ما طرح عقاب ارضاً فإن خيل الفرقتين كلها تتحد وتنصب على قوم عقاب حتى لا يستطيعون أن يدافعوا عنه. وهكذا نفذ عدوان هذه الخطـــة حتى أن فرسان عنزة عندما رأوا رئيسهم مطوقاً من خيول العدو حاولوا انتشاله فعجزوا ، هناك ضعفت عزائمهم .

هذا وقد نصر الله عدوان بن طوالة على عقاب العواجي فرأى عدوان أن من الشيمة أن يعفو عنه ويحسن إليه أيضاً ، لذلك تحدث عدوان مع عقـــاب وقال « إني قد عفوت عنك كما إني قـــد وهبتك فرسك » . أجابه عقاب « أما إذا عفوت عني فهذه شيمة العرب ولم تفعـــل شيئاً مستغرباً فانت تعفو عني اليوم ونحن نعفو عنك في الغد وأما من خصوص الفرس التي تزعم أنك وهبتنيها فإن هذه الفرس ليست من جياد عشيرتي عنزة بل ان مصدرها الأساسي من خيل عشيرتكم شمر لأني قد غنمتها العام الماضي من الفارس الشمري فلان » .

قال عدوان : « إذن الفرس نعيدها الى اهلها شمر ونشعرهم بأننـــا

---

(١) الشلع هو بدون عهد و « المنع » يكون الفـــارس استولى على عدوه بطريقة العهد ، فالأولى يستطيـع أن يقتله ولا عيب عليه عند العرب ، أما الثانية فلا يستطيـع أن يمسه بسوء .

أخذناها منك قهراً [1] وقوة كما أخذتها سابقاً » .

هذا وقد ذهب عقاب الى قومه ماشياً على أقدامه كما عاد عدوان وقومه منتصرين .

وهناك شاعر عند قبيلة شمر يسمى « مبارك التبيناوي » يعلق على كل حادثة تقع بين قبيلته وقبيلة أخرى بأسلوبه الشعبي بقدر مـــا يستطيع وخذ ما قاله الشاعر :

يا حَيْفْ يا عدوانْ يا حيفْ يا حيفْ

اعتقت ربعٍ عُقُبْ مـــا طيْرُهم حام

يوجه الشاعر لومه وأسفه المكرر إلى رئيس غزاة شمر وهو المدعو عدوان بن طوالة ويقول : أسف كل الأسف أن تعفو عن عقاب بعدما

---

(١) ما اشد ما ينطبق معنى بيت شاعر الاسلام حسان بن ثابت على هـذين البطلين عندما امتدح قريشاً في قصيدته التي مطلعها :

إن الذوائب من فهر واخوتهم   قد بينوا سنّة للناس تتبع

الى ان قال:

لا فخر إن هم اصابوا من عدوهم   وإن اصيبوا فلا خور ولا جزع

« فالمصراع الاول الذي يقول فيه الشاعر « لا فخر ان هم اصابوا من عدوهم » هذا ينطبق على لسان حال المنتصر وهو عدوان بن طوالة ، وأما قوله«وان اصيبوا فلا خور ولا جزع » فهذا ينسجم ابلغ الانسجام على واقع عقـاب العواجي ولا عجب فان هؤلاء الابطال هم سلالة اولئك الاماجد الذين غيروا مجرى التاريخ العربي وانما ينقصهم التوجيه الصالح .

أصبح أسيراً بين يديك، ويؤخذ من معنى الشاعر أنه قد أسر أناساً من قوم العواجي غير الرئيس عقاب لأنه يقول: « اعتقت ربع عقب مــا طيرهم حام » معناه انهم جماعة ليسوا بفرد، ولكن الرواية لم تصل الينا إلا أنــه فرد. وقد روى لي هذه الحادثة شخص عنزي يدعى « عيــادة الخمشي » المتوفي في مدينة الرياض سنة ١٣٦٥ هـ وهو يحسن الرواية جيـــداً وموثوق به .

اعتقتْ رَبْعٍ كَلّلوا شَذْرة السّيف

من يبذر الحسنى بقطّاع الأرحام

يقول: كيف نعتق من قد وضع السيف باعناقنا حتى تحطم سيفه وكلّ من كثرة ما قتل من قومنا .

ثم يعود الشاعر ويقول: لمـــاذا تفعل الإحسان مع شخص يستحق العقوبة؟ ويزعم الشاعر ان عقاباً قاطع رحم.

لو انت يا زين ألبكار المواليف

أوْدَعتْ راسه موقعٍ منه ما قامْ

يرى الشاعر أن عدوان أخطأ بعفوه عن العواجي ويقول: لو أنك ضربت عنقه حتى نأمن من صولته علينا فيما بعد لكان أكمل للفائدة .

وبعد ، فإن الذي يدرس أدب هذا الشاعر يرى أن كلامه ينقض

بعضه بعضاً ، ذلك أن البطل عقاباً قتله بعض فرسان قبيلة شمر في معركة أخرى ، فبعدما قتل نجد هذا الشاعر يبدي اسفاً شديداً على مصرعه في قصيدة طويلة جاء منها قوله .

عقابٍ طريحٍ يوم الأفراس َعجْلاَتْ
ِعزَّاه من طير نقَرْ ِحجْر عينـــــه

الى أن قال :ـ

ُفوات قبـــــل ْمدَوٍّرْ ِينَ الجمالاتْ
يا ليت ِعقَّالَ العربْ حاِضرينه

يقول الشاعر : في صدر البيت الأول ، إن عقاباً قتل في حالة كانت ارتجالية ، وفي المصراع الأخير من نفس البيت يتظـــاهر الشاعر بحزنه وأسفه على عقاب فيقول « عزاه من طير أكل حجر عينه» أي إنه يتوجع ويحزن على مقتل عقاب الذي سوف تأكل الطيور عينيه ، وفي المصراع الأخير من البيت الثاني . يقول ، كنت اتمنى أن عقاباً أستولى عليه رجال عقلاء حتى يقدروه ويعفوا عنه . ولكنه يزعم من معنى كلامه أن عقاباً استولى عليه شباب طائشون لا يفكرون بذلك ، وهذا الشاعر قريبـــة أخلاقه من الفرزدق الذي عبر عنه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فقال : إني لاعجب من نفسية الفرزدق يهجوني أميراً ويمدحني سوقة. واليك القصيدة:

(١) يا حيف يا عدوان يا حيف يا حيف
أعتقت ربع عقب ما طيرهم حـــام

(٢) اعتقت ربـــع كللوا شذرة السيف
من يبذر الحسنى بقطاع الأرحـــام

(٣) لو انت يا زَين ٱلبـــكارَ المواليف
اودعت رأسه موقعٍ منه مـــا قام

(١) يا حيف : اسف . يا عقب : من بعد . طيرهم حام : اوشكت ان تأكل
لحومهم الطيور.
(٢) شذرة : حد السيف .
(٤) زين : مأوى . البكار المواليف : النوق الأبكار .

عفو متبادل

قصة صطام الذهبي وفيصل العماج[1]

في عهد فيصل بن تركي آل سعود بين سنتي ١٢٥١ ـ ١٢٥٥ هـ حدث بينهما شقاق كان من نتيجته أن قتل فيصل صطاماً ثم هرب و استجار بأحد امراء عتيبة المدعو ابن حِجْنَة و كان ابن المقتول في ذلك العهد حديث سن و بعد أن بلغ رشده ذهب الي قاتل أبيه يحاول أن يظفر به ليأخذ ثأره منه فنزل عند العرب الذين يقطن بينهم قاتل و الده فبقى الشاب أجيراً يسرح بإبل أحد هؤلاء العرب وقضى مدة على هذه الحالة و هو راع و لا زال يرعى الابل حتى سنحت له الفرصة التي و ثب بها على خصمه فطعنه بمديته ثم فر و لكنه قبض عليه وشد وثاقه و أتى به الى فيصل (أي الجريح الذي طعنه) فسأله من أنت ! فأخبره الشاب بأنه ابن صطام المقتول فلما علم فيصل بذلك طلب رئيس عشيرة عتيبة المدعو ابن حجنة فلما حضر الأمير قال : ان هذا الشاب في جوارك و في ذمتك لأنه لم يفعل ما هو خطأ و لا لوم عليه بما فعل معي و ذلك أني معتد عليه بقتلي لأبيه فإن توفاني الله من طعنته هذه فهي

(١) كلا الاثنين من قبيلة قحطان ومن فخذ السحمة

نفس بنفس وإن سلمت منها فاني سوف آسلمه الدية ان قبلها ، ثم آمر أن يسلم الشاب الذي طعنه ذلولا نجيبة تقله الى ان توصله اهله وذهب الشاب الى أهله .

أما فيصل فقد انجاه الله من هذه الطعنة وذهب على أثر الفتى ليسلمه دية والده ولكن الفتى كان كريم النفس ذلك أنه رفض قبول الدية وعفا عن قاتل والده (١) .

(١) رويت هذه القصة عن حمود العماج القحطاني النسب والذي لا زال ضمن حاشية ولي العهد الامير فيصل بن عبد العزيز آل سعود .

يعفو عن من أراد ان يغتاله

قصة « عبد الله[١] بن علي بن رشيد وابو هادي »

وقعت سنة ١٢٥٩ هـ

بعد أن تأسست إمارة آل الرشيد وأمسى لها سلطان في شمال نجد وعصبية قوية تؤازرها ، هنالك عظم الأمر على أمراء القصيم خاصة اميري البلدتين عنيزة التي يرأسها في ذلك العهد زامل[٢] بن سليم وأمير بريدة عبد العزيز المحمد بن عليان وقد تضاعف الخطر واشتدت العداوة أكثر من اللازم خاصة بعد معركة (بَقْعَا)[٣].

(١) عبد الله هو المؤسس الاول لأمارة الرشيد التي ابتدأت عام ١٢٥٠ هـ وانتهت في ١٣٤٠ هـ وكان عبد الله والياً للامام فيصل بن تركي بن سعود ولا زال مذعناً لال سعود وسامعاً ومطيعاً حتى توفاه الله عام ١٢٦٣ هـ وهو عصامي ابتكر المجد وورّثه ولم يرثه .

(٢) هو من اشهر زعماء نجد دهاء وبطولة قتل رحمه الله سنة ١٣٠٨ وكان مصرعه في الـمُلَيْدا، تلك المعركة الحاسمة التي وقعت بقيادة امير بريدة حسن ابن مهنا أبا الخيل وأمير عنيزة زامل بن سليم ضد محمد العبد الله الرشيد وقد انتهت المعركة بانتصار الرشيدي عليهما .

(٣) هي قرية تقع في الشمال الشرقي لمدينة حائل ومعركة بقعا ذكرها ابن بشر في الجزء الثاني من كتابه عنوان المجد صفحة ٩١ ذكر انها وقعت في جمادي الاولى عام ١٢٥٧ هـ .

لقد رأى أمراء القصيم ان خير الأسباب التي تقيهم شر هذا الخطر هو القضاء على المؤسس لهذه الأمارة إذ انه بلا شك هو الدماغ المفكر لا في الأسرة الرشيدية فحسب بل في العشيرة أجمع بالرغم من أنه في ذلك العهد لم تتكون اسرة آل الرشيد ولم تبلغ ما بلغته من وفرة العدد في عهدها الأخير • وعبدالله يعتبره التاريخ المسؤول الأول من ناحية التأسيس اما الذي وطد دعائم الأمارة فهو ابنه محمد ومن بعد عبدالله شقيقه عبيد الذي هو الساعد الأيمن له ، ولا شك أن رأي هؤلاء القوم في القضاء على الأمير عبدالله كان سديداً فهم لو نجحوا في مؤامرتهم لقضي على الامارة الرشيدية في مهدها .

وقد كانت مؤامرة أهل القصيم لقتل عبدالله مبنية على اختيار شخص يدعى (بأبي هادي) وهذا الشخص استلم من اصحاب المؤامرة مبلغاً من الريالات مقدماً كما أنهم تعهدوا له أن يسلموه مبلغاً آخراً بعد قتله للأمير، وأبو هادي هذا رجل حسب ما يبدو لي من سياق الحديث وما روي لي - أنه رجل ضعيف الإدراك بحيث أن أصحاب المؤامرة استطاعوا أن يخدعوه ويوهموه بأنه إذا قتل الأمير عبدالله فإنه سوف يهرب ولا يستطيع أحد أن يراه ولا يتمكن عدوه من القبض عليه وذلك بفضل ما يتدرع به من الطلاسم التي يحملها بعنقه وأكد أصحاب المؤامرة لأبي هادي أن ما يحمله

من الآيات القرآنية والطلاسم الملفقة ستكون له سد منيع يقيه مفعول السلاح لئلا يفتك بجسمه وكانت الطريقة التي تمكن أبا هادي من قتله للأمير ، هي أنَّ أبا هادي يحسن الرقص بالرمح من الأساس كما ان حركاته وشكله وخفته كل ذلك تشفع له فيما إذا شاء أن يجعل نفسه مضحكاً لحفل ما من الناس سيما وهو من قبل كان متخذاً ذلك حرفة له أي كان يعيش من وراء هذه المهنة .

سار أبو هادي من القصيم حتى وصل مدينة حائل عاصمة إمارة عبد الله الرشيد آنذاك فحل ضيفاً هناك وفي حينه استعمل لعبته المضحكة ، ومن البديهي أن الغريب اذا قدم لبلد ما سيكون محطاً للأنظار وتتفقد الناس أخلاقه، خاصة إذا كانت البلدة قليلة السكان « كحائل » بذلك العهد، يضاف إلى ذلك أن هذا الغريب أتى للبلاد بحركات مضحكة تجعل أهل البلاد بطبيعة حالهم يتفرجون ويعجبون من هذا الغريب الذي قدم اليهم بحركات بهلوانية .

هذا وقد مضت أيام على أبي هادي وهو يرقص أمام سكان البلاد ويضحكون عليه وكل من رآه من ساكني البلاد يعجب برقصه، ويأخذه الإعجاب ويذكره للذي لم يره فلم تمض مدة على أبي هادي إلا وهو بمثابة النادي الذي يتخذ للتسلية والمرح ، الى ان أصبح يتفرج على لعبه ورقصه

وحركاته الجم الغفير من سكان البلاد وفي النهاية بلغ الأمير عبدالله أمرُ أبي هادي ، فانتدب رسوله ليستدعيه ليضحك وجلساؤه عليه .

وعلى الفور حضر أبو هادي وطاب منه الأمير أن يلعب ويرقص كما كان يفعل ، فلبى طلب الأمير الذي يرى أن هذا هو منتهى أمنيته ، ولكن أبا هادي عندما أراد التنفيذ اختل توازنه وارتعشت اعصابه وارتبك ارتباكاً جعل الحاضرين يشكون في أمره وينتبهون له ، وأول من انتبه له شخص اسمه ابن نعام [1] هو الذي أسر للأمير عبد الله أن يأمر من يلقي عليه القبض ، فلما القى عليه القبض ازداد خفة وانهارت اعصابه انهياراً جعل البينة تقوم عليه بغير شك . عندئذ تولى الأمير التحقيق معه فاعترف له بدون تردد وبعد اعترافه اطلق سراحه الأمير وعفا عنه ولم يعاقبه بأية اذية ثم انشد الأمير قصيدته الشعبية الخالدة فقال :

(١) لِي دِيْرَةٍ مَابَهْ حذا ٱلْبَرْد وَٱلْجُوعْ

لَوْلاَيْ عقَّيتَـهْ بِضَرْبَ ٱلْهَنَـادِي

يقول إن بلادي لم يكن فيها شيء من الانتاج الزراعي الذي يقيت

(١) يقول الراوي : ان ابن نعام لمح لعبد الله بكلمة تجعل أبا هادي لا ينتبه ولا يشعر بمعناها ، فقال كلمة عامية وهذا نصها « الحمراء كبيرة يا عبدالله » أي أن رئتك اكبر من قلبك فأنت لا تشعر بما يحوكه لك هذا الرقاص .

ساكنيها من الجوع ولا فيها ايضاً شيء من الإنتاج الصناعي والنسيج الذي يقي اهلهـــا من ضرر البرد ، ثم يسترسل البطل ويقول « ولكنني ازحت هذه العوامل واجتهدت وحميتها بضرب السيف حتى اصبح لها كيان وامست بلدة بعد مـــا كانت قرية ويقصد بلاده حائل ـــ وهي بلاد حاتم الطائي سابقاً في جبلي طي .

حَمَيْتَهـــا عَن كُلّ دَوّارْ مَطْمُـــوعْ

حَـــيٍّ نُصَبّحْهُمْ وَحَيٍّ نْهَـــادِي

يقول إني حميت بلدتي من كل من اراد ان يطمع فيـ ، ثم يوضح ويقول :

إن حمايتي لوطني مبنية على امرين سياسيين وهما المسالمة تـــاره والحرب طوراً آخر فيقول إني أسالم اصحاب القوة الـــذين لا استطيع مقاومتهم فأذهب التمس رضاهم بشتى الوسائل التي لا تحط من كـــرامتي وكرامة بني وطني وقبيلتي .

اَلْقَلْبْ مَصْمُوعٍ وَبِالْكَفْ قَـــاطُوعْ

مَـــا هِي َحكايَا رَقصَتِكْ يَا ُبو َهادِيْ

يقول : أنا لست ممن يقرقع له بالشنان حتى أخاف منك يا أبا هادي ويؤكد أن السر الذي يجعله لا يخاف هو انه واثق من نفسه بأن قلبه قلب

شجاع لا يتزحزح البتة وفي يمينه صارم ماض ، أي السيف .

وَلاَ حدٍ يطيِـعْ إلاَّ لَه السِّير مَمْرُوع

وإلاَّ بِضَربْ مصقّلاَتَ الْهَنَـادِي

يقول إن الناس لا يطيعون ولا يذعنون للزعيم الذي يكون وضعه كوضعي إلا لأمرين وهما الرغبة بالمال الذي يغدقه عليهم به أو الرهبة من العقاب الذي يخشون تنفيذه منه .

(٥) فَعّـالْ نَوَّ الَخْير نَجْزاهْ بِنْفُوعْ

مِنْ مَالِنَـا نِكْثِرْ عَلِيْـه الْعَدَادِ

يقول ان الذي يسالمنـا ولا يريد منا إلا الخير نبذل له الخير ونغدق عليه المال والفعل الجميل ما استطاع لذلك سبيلاً .

والشّر فَعّـالَه إِنْجازِيْه بجْموعْ

وْ زيرٍ إلى جَـا الْفَجْر حسّه يُنَادِي

يقول إن الجماعة والأفراد الذين لا ينفع معهم فعل الخير ولا يصلح معهم إلا فعل الشر هنالك يقول : أفعل معهم من الشر الذي لا يتصورونـه واقابلهم بجيش عرمرم فأباغتهم به فجراً حتى أقضي على قواهم .

(٧) أخو عبَيْد إلىٰ هيا كُلّ مَسْبوعْ

أَسْهَرْ الى نامَتْ عيُونَ السّرادِي

ينتخي البطل و يمتدح نفسه ويقول أنا أخو عبيد وعبيد هـــذا ـ كما أسلفنا ـ شقيقه وساعده الأيمن و يقول أنا البطـــل الذي تبرز رجولته وشجاعته في الشدائد التي يفقد فيها رجولته الجبان ويؤكد أنه يسهر الليالي تلو الليالي في الحين الذي ينام فيه قاصر الهمة ٠

(٨) أَحاوِلَ الدّنيا بْداخِلْ وَمَطْلُوعْ
بَالْمَـــالْ وَالاّ بْمرْهَفاتَ اَلْحدادِ

يقول اني احسن الدخول والخروج بالسياسة لقومي ولعدوي معاً فتارة استولي على قلوبهم بالمال الذي ابذله لهم وطوراً بالسيف في الحين الذي لا ينفع به المال ٠

(٩) كَم خَيِّرٍ عـانٍ لَنـا شاكٍ اَلْجُوعْ
حَادِيْه مِنْ لَوْعاتِ اَلْأَيَّـــامْ حَادِي
(١٠) لَوْ مَـــا نَعْرفُه رَاح مِنَّا بَطْمُوعْ
مِنْ رَاس مَـــالٍ نَجْمعُه لِلنَّفَـــادِ

يقول كم إنسان كريم التجأ إلينا وشكا ما اصابه من نوائب الدهر ونحن لم يسبق لنا به معرفة ذاتية ومع ذلك يقول : نسعى على الفور بجبر عثرته ونهبه ما استطعنا من اموالنا التي لا نحرص على جميعها إلا لننفقها في

سبيل المجد والخير .

ونهاية القول انّ ابا هادي بقي ساكناً بحائل حتى توفي فيها. وأكد لي الراوي سلمان بن رشدان بأنه كان يعرف أبا هادي شخصياً ولا عجب من ذلك لأن سلمان بن رشدان عمر سنين طويلة وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٦١ هـ بعدان بلغ من العمر ما ينوف على المائة سنة. والراوي من نفس بلدة حائل.

واليك القصيدة بكاملها :

(١) لي ديرةٍ مابَهْ حذا البَردْ والجوعْ
لَوْلايْ عفِّيتَهْ بِضَرْبِ الهَنـادي

(٢) حِميتهَـا عَنْ كُل دَوّار مَطْموع
حَيّ نُصَبّحْهُـم وَحيٍّ نهـادي

(٣) القَلب مَصْموعٍ وبالْكَف قَاطوع
مـا هي حكا يا رَقْصَتِكْ يا بُو هادي

(٤) ولاَ حَدْ يطيِـع إلاَّ لُه السِّير مَرْوُعْ

(١) ديرة : بلدة . حذا : عدا . عفيته : حميتها .
(٢) دوار مطموع : طماع .
(٣) مصموع اصم لا يعرف الخوف . قاطوع ، السيف الماضي .
(٤) السير مرموع : أي لين الجانب .

والاّ بِضَرْب مْصَقّلاَت الهنَـــادي

(٥) فعَّـــال نوَّ الخيرْ نَجْزَاه بِنْفوع

مِنْ مَالَنـــا نِكْثِر عَليه العـــدَادِ

(٦) والشَّر فعَّاله نِجَـــازِيه بِجْموع

وزيرٍ إلى جَـــا الفَجْر حُسّه ينَادي

(٧) أَخو عْبِيْد إلى هَبَـــاكل مَسْبوع

أَسْهَر إلى نَـــامَت عْيونـ السَّرادِي

(٨) أَحاوِلْ الدّنْيا بِدَاخِلْ ومَطْلوع

بِالْمـــاَل وإلاَّ مُرْهَفَاتَ الحْدَادِ

(٩) كَم خيِّرٍ عانٍ لَنا شاكٍ الْجُوع

حَـــادِيه مِن لَوْعات الأيَّامْ حـــادِي

(١٠) لَوْمَا نَعْرفُه رَاح مِنَّـــا بِمَطْمُوع

مِنْ راس مَالٍ نَجْمعُه لِلنّفَـــادِ

(٥) نو ، النية . نفوع ، نفع

(٦) الجموع ، الجيش كناية عن الجيش العرمرم . الزير، هو الطبل يدقه الحاكم القوي قبيل وقوع المعركة .

(٧) هبا ، جبن . المسبوع ، الرجل الجبان . السرادي ، الأنذال .

(٩) عان : قاصد .

(١٠) لو ما نعرفه : ولو لم نكن نعرفه سابقاً .

عفو واباء وشمم

وقعت الحادثة عام ١٣٠١ هـ على وجه التقريب

تعتبر من أروع حوادث العفو قصة « نيف بن حيمر بن قشعم » مع « عجب بن عجبة » وكلاهما ينحدران من فخذ واحد وقبيلة واحدة يجمعهما الجد الأدنى الذي تتفرغ منه هذه العشيرة وهو المدعو « جعفر » فيقال للعشيرة آل جعفر[1] ولا يقل عدد نفوسهم من ٧٠٠٠ نسمة ويشملهم اسم قبيلة شمر « فعجب بن عجبه » وقع منه اعتداء جره الى ان قتل أخا « نيف » ثم هرب القاتل من بلاده نجد والتجأ الى رؤساء عشيرة شمر (الجُرْبان) الذين يقطنون جزيرة الفرات الواقعة جنوب العراق وقد علم نيف ان صاحبه التجأ الى هذا الموضع فتبعه قاصداً ان يأخذ منه الثأر وبقي يتحين به الفرصة وقد كان القاتل حذراً جداً ، ومن اساليبه التي يخادع بها عدوه هو انه يتظاهر بأن يبيت في بيته أو في مكان ما والواقع انه لا يبيت في بيته ابداً ولا يبيت في مكان يعرفه احد قطعياً خوفاً من سطوة خصمه ، هذا وقد كان عدوه يسبر غوره ويتتبع حركاته ليأخذ

---

(١) الجعفر هم فخذ من عبدة من قبيلة شمر وابن عجبة من فخذ يتفرع من الجعفر يسمى الخليل ونيف من فخذ يسمى القشعم والاصل واحد .

ثأره منه، وفي ذات ليلة من الليالي نظر اليه عدوه عندما دخل بيته في اول الليل، ولكنه تركه ليهجم عليه اذا نام الناس آخر الليل غير انه خدعه في عمليته هذه لأنه دخل من امام البيت تمويهاً له وخرج حــــالاً من خلاف البيت بصورة خفية مسرعة، أما البطل فهو لا يعلم ذلك، فلمـــا انتصف الليل هجم على عدوه ولكنه عندما أراد تنفيذ العمل لم يجد احداً في البيت فاتضح له خطأه وقد انتبهت زوجة القاتل وصاحت بصوتها فانتبه العرب بعد ان فر العدو هارباً، امـــا ابن عجبة فقد رأى أن من الحزم والحذر ان يرحل عن هؤلاء العرب الذين عرف خصمه موضعه عندهم، لهذا نزح عنهم ونزل بجوار ابن عبيد رئيس عشيرة (الدُّلَيم) ولم يكن ابن عبيد أقدر على حمايته من الجرباء بل ربما أن الجرباء اعظم هيبـــة في نفسية « نيف » من ابن عبيد ولكن القضيـــة اصبحت قضية تمكن من الاختفاء، لهذا يرى ابن عجبه انه يستطيع أن يواري نفسه عند ابن عبيد اكثر من اختفائه عندما كان عند الجرباء على اعتبار ان عدوه الآن سبر غوره وعرف أنه عند عرب الجرباء. هـــذا وقد استعمل ابن عجبه من الحزم والحذر على نفسه اكثر مما كان يستعمله عندما كان عند الجرباء حتى انه لا يأتي بيته الا في لحظات خفيفة معينة، واذا شاء أن يواقع زوجته لا يواقعها الا بعد حين من الدهر، واذا خطر على باله هـــذا الأمر دنا من حليلته وهو كالمطرود، وقد كانت قرينته فتاة جميلة، وقد ذكرنا عن نفسية

العربية انها دائماً لا تنظر للرجل إلا من جانب واحد وهو جانب البطولة والرجولة فإذا تخلى عن هذه الناحية زهدت به ، وقد كانت حليلته تعرف بعلها أنه شجاع فيما سبق ، ولكن حركاته الأخيرة أخلفت ظنونها به ومعرفتها إياه السابقة ، لهذا قالت بنفسها لا بد من أن أسأله عن السر الذي جعله جباناً الى هذا الحد ، بعدما كان شجاعاً جريئاً . فسألت بعلها قائلة: « أراك بلغت من الحذر والخوف من سطوة عدوك الأمر الذي سوف يجعلني أزهد فيك آخر الأمر » .

كان هذا الحديث من قرينة ابن عجبه في ساعة متأخرة من الليل وفي الحين الذي دنا منها ليواقعها ثم يهرب كالمعتاد ، أجابها بعلها : « انا لست جباناً ولكني اعرف شجاعة عدوي « نيف » الذي لا يبيت على الضيم ولو انك تعرفينه كمعرفتي إياه لعذرتيني في كل ما يبدو مني من الحذر ولحكمت لي بالشجاعة الخارقة - ثم واصل كلامه - وقال: «أجل فلو لم أكن شجاعاً الى آخر حد الشجاعة لما استطعت أن أحرك غريزتي الجنسية وأنا أعلم أن نيفاً يطالبني بدمي » هذا وقد كانت هذه المحادثة بين الزوجين بمسمع من (نيف) وقد كان مختبئاً تحت رواق البيت وهو منه قاب قوسين أو أدنى ، ولكن البطل عندما سمع هذا الاعتراف من خصمه له وهذا الإذعان قفز من تحت الرواق وشهر سيفه وصاح بخصمه قائلاً : « يا فلان اقسم لي بالله انك قلت هذا الحديث عن اعتقاد لا عن خديعة منك لي ظاناً

اني قريب منك فاردت بذلك ان تخادعني لأعفو عنك فيما اذا أسمعتني هذا الحديث » اندهش الرجل واقسم له بالله انه لم يتحدث إلا بما يعتقده كما أكد له منطقياً أنه ليس من المعقول بأن يعرفه بهذا القرب منه ويكون عنده من الصبر والأناة والتفكير ما يجعله يتكلم بهذا الكلام، وأوضح له بأن ماسمعه من شهادة بحقه ليس إلا جواباً منه لزوجته التي تحدته ، وأراد أن يقنعها بما هو ثابت لديه ثبوتاً واقعياً . اجابه البطل: « اذهب فاني قد عفوت عنك طالما انك معترف ببطولتي وخائف من سطوتي ومحترم شخصيتي » أجابه صاحبه قائلاً « انه من كمال عفوك أن تقبل مني الدية حتى اكون مطمئناً على نفسي فيما بعد أي من بعض عشيرتك الأقربين ، لأني اذا دفعت لك الدية اصبحت مرتاح الضمير من الناحية العرفية والشرعية » . أجابه نيف « اني اقبل منك الدية على اساس ان تطمئن وتأمن ، لا رغبة فيها ، والطريقة التي ترى بها راحة نفسك افعلها وانا انفذها لك . » فقال ابن عجبه : « اريد ان تتفضل علي بقبول الدية » . فدفع الدية وانتهى الأمر الى العفو[1]

(١) القصة مشهورة .

يعفو وهو باشد ما يكون من الغضب

قصة خلف[1] المفرح الملقب بالضابط وقعت عام ١٣٣٨ هـ

حدث نزاع بين ابن عم خلف شقيق ابيه المدعو محمد بن مفرح و بين فرد آخر من نفس القبيلة وكانت النتيجة أن قُتل محمـــد ابن عم خلف بيد منازعه .

عندما شعر القاتل أن رصاصة مسدسه اصابت من محمد مقتلاً ضاقت به الأرض واسود في وجهه فضاء الدنيا خوفـــاً من سطوة ابن عم القتيل المدعو خلف . (ولا لوم على القاتل فيما اذا دخل قلبه الرعب واشتد بـــه الخوف فان خلفاً ذو سطوة قوية وقناة لا تلين ، لا يهتك لــــه جوار ولا يبيت على الضيم) .

ماذا يفعل القاتل ؟ وكيف ينجو بنفسه ؟ أيستجير بأحد ابطـــال قبيلته ؟ هذا هو السبيل الوحيد الذي يلجأ اليه ، وحـــاول أن ينفذ هذا الخيال . ولكن من اين له ان يطمئن من صولة خلف الذي يعلم مدى

---

(١) هو من قبيلة القروين وقسم من هـــذه العشيرة يقطن قرية بقرب بلدة منبج التابعة لقضاء مدينة حلب في سورية والقسم الآخر موجود بقضـــاء الرقة المدينة التي تقع شمال شط الفرات كما يوجد فرع من هذه العشيرة يقطن مع عشيرة الولد الفدعان الذين هم من قبيلة عنزة وخلف هـــذا الآن هو ساكن مع عشيرة الفدعان . ويعتبر كفرد من هذه القبيلة .

إقدامه وبطولته فهو لا يأمن على نفسه أن يقتله خلف ولو كان عند مجيره .

لقد فكر طويلاً بالتماس المخرج فلم يجد له منفذاً . ولكن خطرت على باله فكرة غريبة وهي أن يلوذ بجوار خلف ذاته .

فر القاتل مسرعاً والقى نفسه في بيت خلف وتوارى في قاعة البيت هذا ، وخلف لم يبلغه مقتل ابن عمه ولم يدر بذلك الى ان دخل البيت ليلاً فوجد شقيقته تنوح وتندب بالويل والثبور[1] واطفالها الأيتام يبكون لمصرع ابيهم .

انزعج خلف من منظر اخته واطفالها المحزن فصاح بأخته وسألها عن كنه أمرها .

الأخت ـ ابن عمك قتله فلان .

خلف ـ أين ذهب القاتل؟

الأخت ـ لا بد من أن يكون استجار بأحد زعماء العرب .

خلف ـ ومن الذي يستطيع أن يجيره مني ؟ اخبريني يا اختي عن هذا الشقي الذي تمادى به غروره إلى ان يجير مجرماً قتل ابن عمي وأثكل عمي[2] الشيخ؟

(١) هي شقيقته من ناحية وقرينة ابن عمه المقتول من ناحية اخرى

(٢) لم يكن لعمه المسن ذرية ولا ولد قط غير الفتى المقتول .

كان هذا الحديث على مسمع من القاتل وكان له وقع في قلبه أشد من وقع السهم . هب خلف ليأخذ بندقيته وهو لا يملك من شعوره شيئاً ، ولم يكن نصب عينيه سوى القبض على القاتل .

أخذ بندقيته وتوشح بعتاده وأراد أن يخرج وإذا به يطأ بقدمه جثة شخص ملقى على الأرض .

خلف ـ من هذا ؟

القاتل ـ « امرؤ لائذ في حماك لا يعلم من يجيره سواك » .

خلف ـ أأنت فلان قاتل ابن عمي ؟؟

القاتل ـ نعم قتلته في ساعة الغضب التي كثيراً ما يفقد فيها المرء صوابه . وأما الآن فقد عاد إلي رشدي ، وإني لأتمنى أني المقتول لا القاتل خوفاً من صولتك وخشية من سطوتك ، لهذا ما وسعني ان استجير عنك بفرد من ابطال قبيلتي لعلمي انه لن يجبرني من عقابك احد ، فاقض ما انت قاض .

وجم خلف عن الكلام قليلاً كالمغمى عليه ، ثم أفاق فصاح بمستجيره : اذهب فقد عفوت عنك ، وابتعد لئلا يأتينك عمي فيقتلك .

القاتل ـ لا استطيع القيام فقد خارت عزائمي من شدة خوفي منك .

خلف ـ إذن سأحملك على فرسي حتى أضعك في بيت أمير القبيلة

الشيخ مقحم بن مهيد[1] . فحمله خلف على منكبه فأركبه فرسه ومن ثم ذهب به حتى ادخله في بيت رئيس القبيلة ثم انصرف عائداً .

وما يزال البطل خلف على قيد الحياة حتى هذه الساعة التي اسجل فيها هذه الكلمات وهو يعيش عزيزاً شامخ الأنف بين قومه. اما القاتل فلم تطل مدة حياته لأن الرعب عشش وفرخ في مهجته من خلف الذي صارحه بعد ما وضعه في بيت زعيم القبيلة بقوله . « إني قد عفوت عنك الآن وعفوي هذا قد لا يدوم طويلاً فإن استطعت ان ترحل وتبتعد عني وعن القبيلة التي اسكن بين ظهرانيها فافعل فإني لا آمن شعوري ان اراك فاقتص منك لأني استطعت ان املك نفسي واسيطر عليها عندما كنت في بيتي لاجئاً ولكنني اخشى ان لا استطيع ضبط عواطفي فيما إذا رأيتك في موضع غيره».

عندما سمع القاتل هذا الوعيد من البطل اصابه ذعر وساءت صحته وما زال داء الرعب يفتك به حتى فارق الدنيا وأهلها .

(١) يقص علي الشيخ النوري بن مقحم بأنه كان حاضراً عندما وضع خلف القاتل في بيت أبيه والنوري هو رئيس عشيرة الفدعان حالياً ونائبها في البرلمان السوري ورويت هذه القصة من الشيخ مقحم ابن مهيد كما رويتها مفصلاً من خليل ابن حاكم بن مهيد .

يعفو عن قاتل شقيقه

قصة (مقعدالدهينة) وهلال ابن عمه وقعت في سنة ١٣٤٤ هـ

تزوج هلال ابنة عمه شقيقة مقعد الدهينة وقد كان زواجه لها بدون اختيارها [١] ورضاها بصفته ابن عمها المباشر حسب العادة المتبعة وربما ان هذه الفتاة غير راضية ولا مأخوذ رأيها في اقترانها من ابن عمها لهذا ما استطاعت ان تعيش معه قطعياً ولا من طريق المجاملة بل اعلنت نشوزها عنه والتجأت الى بيت اخويها الإثنين (غازي) وهو الأكبر ولكنه أخ لها من الأب فقط، اما الأخ الشقيق فهو «مقعد» وعندما هربت من بعلها (هلال) الى بيت أخويها ذهب هلال يطالب اخويها بها فحاولا ان يقنعاها لتعود الى بيتــه ولكنهـــا اصرت وأبت وفضلت الموت على العودة اليه ، فلما رأيا شدة إصرارها تركا سبيلها ولم يضغطا عليها .

اما قرينها هلال فقد بات في ذهنه ان اخويها هما اللذان شجعاها على النشوز فأضمر لهما سوءاً، وذهب يلتمس الفرصة التي يفتك بأحدهما هذا ولم

(١) مقعد هـذا يعتبر من الأبطال الافذاذ وهو من رؤوس الاخوان الذين حصل بينهم وبين الملك المرحوم عبد العزيز شيء من الخلاف ومن الذين نجو من عقاب الملك وهو من رؤساء عشيرة النـُّفَعَة المتفرعة من قبيلة عُتَيْبَة وهو ما زال على قيد الحياة .

يخطر ببالها ان ابن عمهما رسخت في ذهنه هذه النية السيئة لأنه لم يتظاهر امامها بشيء من هذا القبيل، واستطاع الغادر ان يواري غيظه وحقده، حتى سنحت له الفرصة التي وثب بها على الأخ الأكبر المسمى «غازي» فأطلق من بندقيته رصاصة خرقت صدره فلقي حتفه فوراً وهرب القاتل حالاً واستجار ببيت شخص يدعى «سواري العويل» من عشيرة النفعة قبيلة كلا المتخاصمين.

حدثني «مقعد» انه عندما بلغه خبر مصرع اخيه غازي فقد رشده واختطف بندقيته ولحق بالقاتل قاصداً قتله بدون ان يفكر في القوانين العربية بشأن المستجير، ويؤكد لي انه قصد البيت الذي استجار به قاتل اخيه فلما دنا منه قابله «سواري» الذي استجار به المجرم واراد ان يحول بينه وبين هلال القاتل ولكن مقعداً لما رأى ذلك من «سواري» وضع البندقية في صدره فهرب «سواري» منه، وشاء ان يترك سبيل مستجيره لينجو بنفسه لأنه نظر الى مقعد نظرة الرجل الذي لا يملك من عقله شيئاً ولكن «مقعداً» بهذه اللحظة أُتِيَ من خلفه وطُرح أرضاً وذهب به الى بيته وآخر الأمر انتبه من ذهوله وهدأت اعصابه وعاد اليه رشده وعلم انه لو قتله في بيت مجيره لأصبح هو المجرم، ومن ثم تقوم عليه الحجة فيما بعد ولا يجد من يناصره لأن مَنْ قتل المستجير عند العرب لم يجد له نصيراً.

أما (هلال) فقد هرب فوراً من مستجيره والتجــأ الى عشيرة الشيابين وهم من نفس قبيلة عُتَيْبَة، وإنما هم بعيدون عن النفعــة عرب (مقعد) وعندما علم (مقعد) بذلك ذهب الى اؤلئك العرب يحاول الفرصة التي يقضي بها على حياة القاتل ولكنه اخفق بمحاولته لأن القاتل عندمـــا حرص مقعد على قتله هرب وترك (نجداً) كلها وشخص نحو الكويت وبقي وقتاً متوارياً ، لا يعلم عنه شيء ، وبعد مضي مدة من الزمن علم (مقعد) أن المجرم يسكن الكويت ولكن مقعداً الآن في شغل شاغل عنــه وذلك عندما كان مطالباً من قبل الملك عبد العزيز ابن سعود الذي يعتبره أخل بالأمن ، وقتل جنوداً من جنود حكومة الملك بوقعة تسمى « الهبكة » [1] سنة ١٣٤٨ هـ غير أن مقعداً عندما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، هناك اضطر أن يذهب الى الكويت فالعراق لينجو بنفسه من بطش الملك ابن سعود فولى هارباً الى الكويت مبدئياً وعندما وصلها سعى بدوره يتجسس على خصمه هلال ،فوجد في الكويت قوماً من عشيرته الأقربين كما أنهم ايضاً اقارب لهلال، وهم ثلاثة رهـط

(١) كانت هذه الوقعة في موضع يقع شمالي جبلي طي ، ذلك ان سرية خرجت من قبل الوالي على مدينة حائل فاصطدمت هذه السرية مع جنود الاخوان المتمردين على الحكومة الذين يرأس قسماً منهم فرحان بن مشهور بن شعلان والقسم الثاني يرأسه مقعد صاحب الترجمة.

وهذه اسماؤهم « دحيلان وعويّض وغافل » هؤلاء كلهم من المساعيد فخذ مقعد الدهينة القريب . حدثني مقعد انه عندما وجد هؤلاء الرهط قال لهم جميعاً : أنتم الآن علمتم بوجودي قبل أن يعلم هلال ولكنني اقسم لكم بالله لئن غابت شمس اليوم قبل ان تأتوني به لأجري عليكم العقاب الذي أنوي تنفيذه بهلال . قالوا له : وكيف يكون ذلك؟ قال : سأتوارى في بيت احدكم وانتم تأتون به كأنه مدعو عند صاحب هذا البيت . فتم الاتفاق بينهم على أن يخدعوا الغادر[1] وفي آخر النهار أتى الثلاثة ورابعهم القاتل ولا زالوا يسيرون سوياً حتى دنوا من البيت فلما ادخلوه من الباب اشعروه بالحقيقة وأفهموه انهم مرغمون على هذه العملية [2] فعند ذلك لا يعلم اين يذهب فلاحول له ولا طول ، فدخل على عدوه الذي لم يكن بينه وبين قتله إلا رؤيته له وتمكنه منه . فطرح هلال نفسه بين يديه وجثا على ركبتيه ويديه ينتظر عدوه أن يبتر عنقه ولكن عدوه كان اكرم منه نفساً وأوصل رحماً وأطهر قلباً وأعف يداً فعفا عنه .

(١) اظن ان هؤلاء الجماعة الذين في الكويت اقرب عصبية لمقعد من القاتل هلال فلو لم يكن ذلك لما فعلوا عمليتهم هذه .

(٢) عندما وصل مقعد الكويت لم يكن بمفرده بل كان معه بعض من بقية عصبيته الذين حاربوا الملك معه .

غندما رأى هلال أن مقعداً عفا عنه طلب منه أن يتفضل عليه بوثيقة يكتبها له لتكون على ما يزعم شهادة له فيما لو اتاه فيما بعد ابن مقعــد ، فأجابه مقعد : لا حاجة لك بهذه الوثيقة لأن أخي الذي قتلته ليس له من العصبية الذين يطالبونك بدمه أقرب مني ،وابني الذي لم يتجــاوز الآن السنتين من عمره • ويقول مقعـــد إني اكدت له أن ابني لن يبلغ عمر الرجولة إلا وانت على احد امرين : إما أن تكون ميتاً او تكون هرماً على اعتبار ان عمرك الآن ستون فأكثر فإن يكن ابني كريماً عندمـــا يراك هرماً فإنه سوف يعفو عنك ويترك سبيلك ولو لم يكن معك مني وثيقة ،وإن كان ابني دنيئاً قاصر مروءة فلو اعطيتك وثيقـــة من عندي فليست هذه الوثيقة منجية لك من شره .

ومن الجدير بالذكر ان ابن مقعد المدعو (غازي) المسمى على اسم عمه المقتول ، هذا الفتى قد ساقـــه القدر لزيارة الكويت بعد مضي عشرين سنة على الحادثة فوجد هلالاً قاتل عمه في تلك البلدة ، وجده شيخاً هرماً قد انحنى ظهره وفقد بصره وبقي هيكلاً أجوف ألمت به شتى المصائب [1] :

(١) يروي لنا التاريخ ان احد السلف الصالح رأى شيخاً هرماً يتكفف الناس فقال : ضيـع الله في شبابه فضيعه الله في هرمه فلو حفظ الله في شبابه لحفظه الله في هرمه . اي لو حفظ حدود الله في صباه لحفظه في شيخوخته.

(٢) رويت هذه القصة من بطلها مقعد .

هرم وغربة وفقد بصر وفراغ ذات يد ، فلما رآه الفتى بهذه الحالة أخذته الرحمة والعاطفة العصبية فآواه عنده مدة اقامته في الكويت واحسن اليه وعندما فارقه سلمه مبلغاً يستعين به على نوائب الدهر[٢] .

اكرام بعد عفو

قصة عُقْلي بن غمور وصاحبه وقعت في سنة ١٣٥١ ﻫ

وشى صاحبه به عند ولاة الأمر فألقت الحكومة السعودية على عقلي القبض وسجن في مدينة الرياض وقد تأكد وهو في سجنه ان الواشي به صاحبه فلان فبعث له من سجنه يهدده بالعبارات الآتية :

« أنا لست مؤبداً في السجن وسوف اخرج ولو بعد حين ولكن بعدما اخرج فليدافع عن نفسه ما استطاع . واقسم عقلي[١] على نفسه بأنه

(١) عقلي من قبيلة شمر من الويبار من عبده ،وهو شجاع وشهم وجم المروءة الى ابعد حد ، ولقد الجأتني ظروف خاصة فاضطررت ان اقطن عند الويبار الذين هم فخذ الرجل، واكثر شيء اعجبني من اخلاق البادية هو تقديرهم لصاحب الفضيلة. فهم لا يقيمون وزناً لصاحب المادة اذا عري من مكارم الاخلاق مهما بلغ من الثروة ، وبما ان صاحب الترجمة رجل لا يوجد عنده من الماشية لا ثاغية ولا راغبة اللهم الا الشيء الذي لا يذكر ورغم اعدامه هذا فان افراد عشيرته بصورة عامة يرون له من الحرمة والتقدير الشيء الذي يثير الاعجاب ، وهذه خلة مع الأسف محروم من تنفيذها الكثير من المدنيين الذين لا يرون للانسان قيمة الا بقدر ما يناله من ثروة ملفقة ومظهر براق .

سينتصف منه ولا يتركه حتى ولو علم انه عندما يشفي غيظه منـــه بأن الحكومة ستعاقبه بالموت » .

تبلغ صاحبه هذا التهديـــد من عقلى فاهتم له ولكن لم يبلغ به الاهتمام الحـــد الأكبر وذلك بحكم سجن الحكومة الحائل بينه وبين صاحب الوعيد.

ومضت ايام واذا بالسجين يطلق سراحه بريئاً ولم يثبت لديه أية تهمة تدينه وحالما بلغ صاحبه خروجه من السجن ضاقت عليه الدنيا بأكملها ، فلا يرى نصب عينه ارضاً تقله ولا سماء تظله ،وخير وسيلة يلتجيء اليها هو انه التجأ بعقلي من سطوة عقلي ،فلم يشعر حتى دخل الرجل بيته ولاذ بجانب الرواق ومن ثم صرخ صائحـــاً اني مستجير فأجرني يا عقلى ، فقفز عقلى والسيف مشهور بيمينه مجاوباً للمستجير بهذه العبارة « ابشر فقد اجرتك من كل معتد »فيجيبه المستجير انافلان ابن فلان جئت هارباً من سطوتك خائفاً من عقابك لم أجد من العرب من يجيرني عنك ولقد ضاق بي فضاء الدنيـــا عندما تبلغت وعيدك وها أنذا لائذ بجوارك خشية من سطوتك.

بعدما سمع عقلي هذا الحديث الذي جابهه به ضيفه اغرورقت عيناه من أثر هذه العبارات وندى جبينه حياء وتهلل وجهه سروراً وطرباً وذهب يقبل مستجيره ويضمه الى صدره ويلاطفه بكل هدوء وبشاشة وعلى الفور ذهب واستحضر كبشاً من الضان وذبحه له ودعى على شرفه كبار قومه وأعيانهم .

يعفو عن قاتل ابيه بعدما تمكن منه

قصة (مذهان بن شنان بن غافل)[1] مع (سمران العود الشمري)[2]

وقعت في شهر رمضان عام ١٣٥٦ هـ

ذهب نفر من قبيلة (الفدعان) قاصدين غزو قبيلة (شمر الفرات) فانصبت غارتهم على إبل احد فرسان القبيلة الشمرية المدعو (العود الخريصي) وحمي الوطيس بين الفريقين وكانت الغلبة للعود الخريصي ، فقد شاء القدر أن يُقْتل «شنان بن غافل » بيد« العود» .

وكان للمقتول ابن دون العاشرة من عمره عندما قتل والده . ومضت السنون وبلغ الفتى الحلم ، وشب وهو لا يحلم بشيء سوى الأخذ بثأر

روِيت القصة السابقة عن نايف الهباس بن هرشان ونائف ابن عم 'عقلي' صاحب القصة وقد توفي عقلي بعد طبع الكتاب الطبعة الأولى .

(١) «**مذهان**» من الفدعان من قبيلة عنزة وهو ابن غبين الذي كان لأسرته رئاسة قبيلة الفدعان سابقاً .

(٢) العود كنيته اما اسمه فهو (سمران) وهو من عشيرة الخرصة المتفرعة من قبيلة شمر .

ابيه . اما القاتل فقد بلغه الخبر ان مقتوله خلف مولوداً مثـــالاً في البطولة والاقدام ،لهذا بات عنده من الحزم ما جعله يهتم ويحرص بأن لا يدع لخصمه اليه منفذاً فيتسلل منه اليه ويغتاله غدراً ٠ ولكن كما ورد في المثل العربي «لا ينفع الحذر إذا حكم القدر»

لقد ظل الفتى يسبر غور قاتل أبيه ، وينقب عنه ، وما فتىء يتعقب حركاته وسكناته حتى ساقه القدر اليه وهو راقد في مضجعه . ولم يشعر القاتل حتى جثم خصمه عليه وتمكن منه بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه٠

حالما ظفر الشاب بقاتل ابيه وضع المدية على عنقه وقبل ان يحز رأسه صاح بوجه خصمه : أتعرف من أنا ؟ فأجابه : ألست مذهان بن شنان ؟

الفتى : بلى . ولكن شتان بين قتلي لوالدك وبين قتلك إياي الآن . أما والدك فقد غزاني عند أهلي وأراد نهب إبلي وقتلي فدافعت دون مالي ونفسي حتى قتلته وجهاً لوجه ، لم اغدره ولم اعتد عليه كما اعتدى عليّ هو وكما اعتديت عليّ انت؟ والآن ! أيها الفتى لقد مكنك الله مني فان قتلتني فاني أرجو أن اكون شهيداً في شهر رمضان المبارك ، وإن عفوت واحسنت فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

الفتى : بل عفوت ٠ فاذهب عتيقاً لوجـــه الله وارجو أن يقبل الله عملي هذا كثواب لروح والدي المرحوم .

العود : أرجو أيهـــا الفتى الكريم أن تتفضل علي بقبول الدية كما تفضلت علي بعفوك عن دمي ·

الفتى : ليست الدية أثمن عندي من دمك فكما اني عفوت عنك فمن العار أن أرضى شيئاً من المال بدلاً عن دم والدي .

ذهب الفتى الى اهله وهو مرتاح الضمير وخال من الهم لاعتقاده أنه قتل خصمه· وهو فعلاً قد قتله معنوياً لأن القتل في عرف اصحاب النفوس الكريمة الأبية ليس هو إراقة الدم ، وإنمـــا هو ما اشار اليـــه الشاعر معروف الرصافي في البيت الثالث من هذه الأبيات :

تزود من الحسنى بمـــا أنت قادر
عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا

واحسن إلى من قد أساء تكرماً
وإن زاد بالاحسان منـــك تمردا

وحب الذي عاداك إن رمت قتله
فـــإني رأيت الفضل أقتل للعدى

أقول : لقد قتل العنزي الشمريَّ بفضله واحسانه وعفوه لا بسيفه . ترى لو قتله الفتى وشفى غيظه وحقده أكنا نسجل له في سجل شيم العرب

هذه المفخرة التي ستبقى له خالدة مدى الدهر الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ؟ إذن فقد ربح الفتى ربحاً معنوياً بعفوه عن خصمه) .

بعدما وصل الشاب الى اهله عائداً من مغزاه ، اقتاد الشمري فرساً اصيلة صفراء [1] وقدمها للفتى مذهان الذي اعتق رقبته ، وذلك دلالة على بياض وجه الفتى . وهذه عادة متبعة من عادات العرب ، فان فاعل الجميل يشاد بذكره ويعلن مجده بعلامة تكون بيضاء يطاف بها على أندية العرب ومجتمعاتهم .

وهذه الفرس كل من يراها يعلم انها عنوان مجد فعله الرجل المقدمة اليه . وعلى هذا الاعتبار قبلها الفتى . والجدير بالذكر أن من عفا ومن عفي عنه حيان يرزقان الى هذه الساعة التي كُتبت فيها هذه الأسطر [2] .

(١) أي بيضاء ، لا يقال للفرس البيضاء في اصطلاح العرب المعاصرين إلا صفراء .

(٢) القصة مشهورة .

فصل

في عفة نساء العرب واخبارهن

مهداة للفتيات العربيات

قصة كنعان الطيار[1] مع ابنة عدوان بن طوالة
وقعت بين ١٢٢٢ و ١٢٣٠ هـ

كان لعدوان فتاة وهبها الله قسطاً وافراً من الحسن الفاتن مع جاذبية رائعة ، وكان الطيار ينظر اليها بعين العشق والغرام ويحرص على ان يجد الساعة التي يخلو بها ليشعرها بما يختلج في نفسه من مودة لها وغرام ، ولكنه طالت عليه المدة ولم تسنح له الفرصة التي يتمكن بها من الوصول الى هذه الفتاة التي سحرته بحسنها ، وما زال الطيار يترقب الفرص بها حتى تيسرت له بكل سهولة ، وذلك بعدما رحل عرب الفتـــاة عن منزلهم الذي كانوا يقطنونه من قبل وهم في مسيرهم هذا قاصدون المنزل الاخر الذي يكون أخصب نباتاً لماشيتهم ، هناك تذكرت الفتاة حاجة من حوائجها نسيتها في الموضع الذي رحل عربها منه فرأت انه بإمكانها أن تعود الى المكان وتأخذ

(١) كنعان الطيار رئيس عشيرة ولد علي من بني وهب من قبيلة عنزة اه عدوان بن طوالة فهو رئيس عشيرة الاسلم من قبيلة شمر .

حاجتها التي نسيتها ،ومن ثم تلحق بعربها قبل آن يحطوا رحالهم في المكان الذي يقصدون الحلول فيه .

لقد عادت الفتاة مسرعة الى منزل اهلها السابق ، فعندما وصلت اليه أناخت راحلتها وعقلتها وذهبت تبحث عن ضالتها وفي هـــذه اللحظة رفعت طرفها خلفاً فرأت فارساً مدججاً بسيفه ورمحه متجهاً اليها بالذات، فرفعت طرفها ثانية لتتحقق عن هذا الرجل القاصد لها بهذا المكان الخالي ، ظانة في نفسها : ان والدها أو أحد اخوانها دفعه وازع الشفقة والغيرة فلحق بها .

هذا ما كانت تظنه الفتاة بالفارس في أول الأمر ، ولكنه بعدما دنا منها أبصرته ، واذا هو اجنبي لا عن اسرتها فقط، بل عن عشيرتها .

إنه كنعان الطيار العنزي الذي لا يمت لهـــا بأية صلة من صلات النسب .

الآن انقلب ظنها الحسن الى ظنون السوء ، وما هي الا لحظة وجيزة حتى أقبل الفارس يلقي عليها تحيته المعسولة ، وفي هذه التحية منتهى التغزل والغرام ، وقد بادلته الفتاة تحية كان فيها من الغنج والرقة مـــا يلهب غرام

لست ادري مـــا هي الاسباب والعوامل التي جمعت بين الطيار الذي يرأس احدى قبائل عنزة وبين ابن طوالة الشمري رئيس عشيرة الاسلم . لا بد ان هناك اسباب جمعتها ؟؟ وإلا فإن اجتماعها مستحيل ، بحكم ما بينهما من عداوة .

الطيار ويزيده اشتياقاً ويجعل نفسه تحدثه بنيل مناه من هذه الحسناء بكل سهولة[1] فدنا منها أكثر مما كان . فأبدت له جانباً من اللين والهدوء والسماحة الشيء الذي زاده طمعاً بها .

بعد ذلك حدثها بلهجة العاشق المتفاني بغرامه ، فأبدت له انها تكن له من المودة والعشق اكثر مما يتصوره ، بعد هذا التصريح الذي سمعه من معشوقته ، لم يبق عنده من الصبر شيء الا أن يقرب منها ليقبلها وتبادله بالمثل ، فدنا منها باندفاع وذهول ،فلما رأت ذلك منه أجابته قائلة « يجب أن تعلم اني لم أعد راجعة من العرب وأنفرد وحدي عن اهلي إلا من أجل مودتي وغرامي بك ذلك جعلني اضحي بعرضي في سبيلك ، وها أنا الآن على أكمل الاستعداد بأن اسلمك نفسي ولكني أخشى شيئاً واحداً هو أن ينظر الينا أحد من عربنا فتكون الفضيحة على الإثنين ، وعلي أنا اكثر مما هي عليك ، لأن عقابي من أهلي ليس كعقابك والفضيحة علي ليست كالفضيحة عليك ، فأنا عقابي القتل وإن لم أقتل فلا أجد من يتخذني له زوجة من شباب العرب مدة حياتي ومعنى ذلك أقتل قتلاً معنوياً ، وهذا

(١) ولا غرو من لين حديث هذه الفتاة وما ابدته من غنج لأن النساء الشمريات مشهورات بلين العريكة وسلاسة اللفظ فأصبح الأمر طبيعياً لا يستغرب من النساء اللواتي منهن هذه الفتاة ولا سيما صاحبتنا . تعمدت هذه اللباقة حتى توهم الطيار وتخدعه لتتمكن منه في تنفيذ مكيدتها التي حاكتها له .

أخف الخطرين » .

الطيار : « ما هو رأيك إذن ؟ »

الفتاة : أريد أن تركب فرسك وتمد بصرك جنوباً وشمـــالاً وشرقاً وغرباً ولا ترجع حتى ترى الصحراء خالية من الناس الخلو الذي يجعلني اطمئن على نفسي وعليك ، فاذهب انت على ظهر فرسك وأنا ههنا انتظرك وأنظر الى حركاتك فإن رأيت أحداً من العرب أقبل علينا فافعل اشارة من عندك لأركب جملي ويكون الوعد بيني وبينك غداً فيما اذا رحل العرب فإني سوف افعل الك كما فعلت اليوم ، وإن لم تر احداً فعد تجدني في انتظارك ».

الطيار : هذا هو الرأي السديد .

وعلى الفور ركب فرسه وذهب ينظر الى الجهات الأربع ، ثم يعود كرة فينظر اليها فيجدها جالسة تتحرى الاشارة منه ، فلما عاد بدون ان يشير اليها بشيء حسب التعاليم المتفق عليها بينهما ، عند ذلك ايقنت انه الآن لم يكن بين عينيه عدا مفاجأته ونيله من عرضها . فرأت ان تخدعه اكثر ممـــا سبق حتى يؤمن بصحة ما تدعيه له من محبة وغرام . فبدأت سحسن له وتكحل عينيها وتلبس أجمل ما عندها من الثياب .

فلما دنا منها ووجدها بهذه الصورة متجملة ولابسة ألبستها الجميلة ،

لم يكن عنده الآن ادنى شك من صحة عشقها إياه ومودتها له ، فقد اعتقد انها صادقة بكل ما قالت ، وسيصدقها الآن بكل مـــا تقوله ، أقبل عليها بفرسه ، كما انها قابلته ماشية تحييه كما تحيي الوالدة الرؤوم ابنها البار ، فلما قرب منها صاحت : « بشرني يا بعد حيي وميتي ويا خلف أمي وأبي » عساك ما رأيت احداً يكدر صفو عشقنا [١] .

الطيار : ابشري انني لم أر أي انسان وإن الصحراء خالية من العرب مرة واحدة .

الفتاة : هذا ما أتمناه يا بعد هلي [١] ولكنني لست مطمئنة ولا هو بمرتاح ضميري إلا أن اذهب بذاتي وانظر بعيني اللتين اثق بجودة نظرهما الى ابعد حد [٢] .

(١) هذه الجمل قليل ان ينطق بها من نساء العرب غير النساء اللواتي من قبيلة شمر ومعنى قولها « يا بعد حيي وميتي » اي فديتك بالاحياء من عشيرتي والأموات ، وقولها « يا خلف امي وابي » اي جعلت لك في المحبة والوداد والمنزلة في قلبي ما يفوق محبة امي وابي.

(٢) اي فديتك بأهلي .

(٣) لقد كانتا عينا الفتاة يشفعان لها فيما تدعيه امام معشوقها المخدوع فهو لا يشك ان هاتين العينين الساحرتين يريان من المدى البعيد اكثر مما يراه لهذا اصبح لا يكذبها بما تدعيه من قوة نظرها كما انه لا يخامره الشك بأنها صادقة بلهجتها لأن تغنجهـــا له وكلماتها المعسولة وتجملها كل ذلك كان شافعاً لها بتصديقه إياها .

الطيار : لا بأس من أن تذهبي وتنظري بنفسك لتطمئني أكثر .

الفتاة : اعتقد اني اذا ذهبت ماشية على اقدامي لا استطيع ان اتمكن من رؤية البعيد كتمكني منه اذا كنت راكبة إما جملي أو فرسك ثم استدركت الحديث وقالت : لا شك انني اذا ركبت جملي لا أتمكن من العودة عليه مسرعة كتمكني فيما لو ركبت الفرس .

الطيار : بل اركبي فرسي وسأحملك على ظهرها بكل ممنونية .

الفتاة : لا اريد أن اكلفك بحملك إياي على الفرس يا نور عيني فاني باستطاعتي أن اركب الفرس بكل سهولة [1] .

الطيار : تفضلي اليك الفرس وها انا بانتظارك .

تناولت الفتاة زمام الفرس فوثبت عليها ولما استقرت على صهوتها نزحت عنه قليلاً ، حتى أيقنت انه لا يستطيع ان ينالها بسوء ، هناك صرخت به : « يا للفاجر الغادر » ومـا زالت تصب عليه وابلاً من الكلام القارص .

الطيار : هذا هو ما اعتقده بك يا ابنة عدوان ، فكوني على ثقة أني لم آت اليك قاصداً أن انال من عرضك كما تبادر لذهنك مني الآن .

(١) اغلب نساء العرب يحسن ركوب الخيل خاصة بذلك العهد لا سيما بنات الفرسان كهذه التي لا يخلو بيت ابيها من عشرات الجياد .

الفتاة : وهل من المعقول أن لك قصـــداً آخر سوى قصدك السيء الذي ظهر لي منك سافراً جلياً ؟

الطيار : نعم ان قصدي الاساسي هو امتحـــان عفتك ، ذلك أني مصمم على أن اخطبك من اهلك ، واتخذك قرينة لي ، وليس الاقتران بالأمر السهل ، بل انه عنوان سعادة المرء في الحياة ، أو مدعاة لشقاوته وتعاسته ، ولما كنت فتاة قد توفرت فيك مجد الأب وأصالة الخال وعراقة الاسرة والحسن الكامل فإن هذه الأمور الحيوية لا شك انها مظهر ايجابي وعنوان جذاب لرغبة الفتى الذي تحدثه نفسه بالزواج من فتاة ما ، ولكن هذه العوامل الايجابية التي قـــد توفرت بذاتك ، فهي وان كانت مغرية لبعض من الشباب ، فاني امرؤ غيور ،أبي ، لا اكتفي بذلك فقط ، بل اني علاوة على ذلك أطلب مـــا هو أنبل منها ، الا وهي العفة التي هي اسمى وأشرف سجية تتصف بها الفتاة لأنها المحور الاساسي الذي يترتب عليه حفظ النسب ، والعفة طبعاً سجية كامنة في الخلق لا تتجلى ولا تبرز إلا عند الامتحان ، فان وجدتك على ما اعتقد ، رضيتك لنفسي حليلة وخطبتك من اهلك ، فإن اخلفت ظني نبذتك ، وحذرت عنك كل فتى يمت إليّ بصلة نسب أو صداقة .

الفتاة : هب اني اخلفت ظنك ، أما تخشى ان يسلط الله على محارمك

من يهتك اعراضهن عقوبة لعملك، ويفضحهن عند رجال الحي كما شئت ان تفعله معي الآن .

الطيار : لك ان تفعلي معي ما شئت من التوبيخ الأدبي فانه لا يهمني ذلك طالما اني وجدت بك ضالتي التي اصبو اليها .

الفتاة : لاحديث لك معي الآن قطعياً واني لذاهبة الى أهلي .

الطيار : اتقي الله لا تخزيني بين قومي .

الفتاة : أقسمت بالله بأني لن اتنازل عن شرفي وكرامتي بل اني سوف أذهب إلي أهلي وأخبرهم بما تم من أمرك معي وهذه فرسك شاهدة عليك ، اللهم إلا أن تركب جملي وتحل محلي في الهودج ، فان فعلت ذلك ربما أنظر في أمرك فيما بعد » . وأخيراً ركب الفارس جمل الفتاة ودخـــل في وسط ظلتها [1] لا حول له ولا طول .

هذا وقد ظل الفارس تحت رحمة الفتاة ، يستنجد برحمتها تارة ويطلب منها ان تستره ، طوراً آخر ، وبالتالي عفت عنه، بعد ان اعلن عجزه وقلة اقتداره، كما أنه اعلن ثناءه عليها وأشاد بمدحه وثنائه على والدها ولعـــل

---

(١) الظلة هي الهودج أي مركب يوضع فوق ظهر الجمل والمراد به مجموعة من العصي تحنى ويجعل فوقها ستار من القماش النسائي المقصود انه مركب لا يحل فيه ولا يركبه إلا النساء الفتيات .

الأبيات التي ارتجلها الطيار عندما كان في الهودج ، هي بلا شك أوضح صورة ناطقة عن واقع أمره مع هذه الفتاة فتدبر معي قوله :

١) يا الله يافرّاجْ يا والَ الاَفراجْ
يَالِلّي غنيْ والنّاسْ ببــــابَكْ مَحاويجْ

٢) تَفْرِجْ لِمَنْ كِنّهْ بحقٍّ من العاجْ
مُتَحيرٍ ضــاقت عليه المنــاهيجْ

٣) عِزّي لمن خلّتْهَ البيضْ مِسْهَاجْ
رَكْبَتْ جوادي وارْكَبَتْني هْجَيهْيجْ

٤) يا بِنْتْ من هو باللّقَا يَلْبَس التّاجْ
إنْ حــلْ بالرّبعَ الْمقَفّينْ تَزْعِيجْ

٥) ما كولها الحنْطَهْ على صالي الصاج
ومشروبهــا دَرّ الْبكَارَ الهجَاهيِجْ

(١) يا والي : يا من بيدك . محاويج : محتاجين .
(٢) الحُقّ : الصندوق .
(٣) عزي : ما أكبرها مصيبة . خلته : تركته . مسهاج : مهزلة . هجيهيج : جمل صغير .
(٤) اللقاء : لقاء العدو ، إلى : إذا ، المقفين : المدبرين ، تزعيج : صياح .
(٥) الصاج : صفيحة من حديد يخبز عليها، البكار المجاهيج: النوق الأبكار.

الشرح : قوله.(١) «يا الله يا فراج يا والي الأفراج ياللي غني والناس ببابك محاويج » يدعو الشاعر الله ويعترف له بالقدرة الخارقة على سرعة الفرج ويقول يا رب إنك الغني والناس كلهم محتاجون لرحمتك وغفرانك .

٢) « تَفْرِجْ لِمَنْ كِنَّهْ بحقٍّ مِنَ الْعَاجْ
مُتْحَيرٍ ضَاقَتْ عَليْه الْمَنَــاهِيْجْ)

الشرح : يقول اسألك يا الله أن ترأف بحالي وتيسر لي الطريقة التي يكون لي فيها فرج من هذا المأزق الحرج ، وهو يصف نفسه كأنه مسجون في قلب صندوق مقفل عليه . ثم يشرح فيقول : اني الآن بأتم الحيرة من أَمري ، وكل سبيل أريد أن التمسه أجده أمامي ضيقاً لا مخرج لي منه . وهكذا يقصد بقوله: « مِتْحَيرِ ضَاقَتْ عَليه الْمَنَاهِيْجْ »

٣) « عِزّي لمن خَلّنه الْبِيضْ مِسْهَاجْ
رَكْبَتْ جوَادِيْ وارْكَبتِنْيْ هجَيْنِيجْ »

بهذا البيت صور لنا الشاعر ابلغ التصوير ما وقع فيه من مشكلته العويصة فهو عندما يقول : عزي لمن خلنه البيض مسهاج ، أي ما اكبرها من مصيبة ابتليت بها حتى أن النساء ضحكن علي « ومسهاج » أي معناه أن الفتاة بعدما ركبت الفرس واركبته هودجها جعلت تمر امامه راكبة

فرسه وهو في هودجها ثم تتهكم عليه وتسخر من عقله وتوبخه ، وتارة تأتيه من امامه وطوراً من خلفه وأحياناً عن يمينه وساعة عن شماله ، « مسهاج » أي مَمَرٌّ من عنده وقد أوضح لنا الأمر جلياً بقوله . « رَكْبَتْ جوَادِيْ وَارْكبتْنِيْ هجيهيج » يقول انها ركبت جوادي اي ركبت فرسي • فكأنها اصبحت الآن هي الفارس وقد اركبتني مع ذلك جملها يظهر أن جملها غير كبير في سنه وجسمه وذلك معنى قوله « هجيهيج » اي صغير ، المقصود ، يقول : ما أكبرها من بلية على الفارس الذي من نوعه يحل محل العذراء وهي تحل محله .

٤ « يَا بِنْت مَن هُو باللّقَا يَلْبَس التّاجْ

إلى حَــلْ بالرّبْع اَلْمُقَفّين تَزْعِيْج »

هنا بدأ الشاعر يتلطف للفتاة لأنه مرغم فهو يخشى أن تذهب من عنده على فرسه ومن ثم تفضحه عند عربه وعند اهلها وما أسوأ النتيجة فيما لو فعلت ذلك ، لهذا تجده يقول في المصراع الأول « يَا بِنْت مَن هُو باللّقا يَلْبَس التَّاج » أي استريني يا بنت الفارس المغوار الذي اذا عظمت الهيجاء وحمي الوطيس لا يختفي بل يشهر بنفسه ويلبس التاج ، ولا يعني بالتاج تاج الملوك وإنمـــا يقصد بالتاج تاج الشهرة أي يلبس اللباس الذي يشتهر به بين قومه .

(٥) « مَاكُولَهَا الِحْنطة عَلَى صَالي الصَّاج
وَمَشْرُوبَهـا دَرّ آلبكَار آلْهَجَاهِيجْ »

يمتدح الفتاة ويقول : ان غذاها كان غذاء عربياً ، فهي ما تتغذى إلا بشرب لبن الناقة البكر التي لم تلد إلا مرة واحدة كما انها لا تستطعم إلا البر المخبوز على الصاج فهو يزعم أن هـذا الغذاء يكون ادعى لنمو صحتها وتناسق جسمها . وهنا يؤكد انها ابنة أمراء بقوله « مأكولها الحنطة على صالي الصاج » لأن هذا الغذاء لا يتمكن عليه من البادية الا طبقات الأمراء بذلك العهد .

وقد كان يترنم بهذه القصيدة على مسمع منها يقصد استرحامهـا وإطلاق سراحه وتركه وفرسه يذهب من حيث أتى .

وقد كانت عند حسن ظنه الأخير بها ، فهي ، كما أسلفنا ، تركته يذهب مستوراً لم يعلم أحد عن فعلته هذه ، وربما أن هـذه القصة كانت جديرة أن تموت بمهدها ولا تتسرب الينا لولا المناسبات والظروف الطارئة التي كانت بلا شك عاملاً اساسياً لذيوع القصة مع قصيدتها .

هذا وقد تضاعف غرام الطيار بهذه الفتاة واصبح مشغوفاً بحبهـا ويود أن يضحي بكل شيء ليصل اليها ، لا بأساليبه الأولى الملتوية وإنما يريدها الآن بزواج مشروع .

وقد حدثته نفسه أن يبذل الغالي والنفيس ويسوق المال والجـــاه حتى يحصل على هذه الفتاة الحسناء المحصنة ، بنكاح شرعي .

وعندما هم بالفتاة بطريقة شرعية كان توفيقه بالوصول اليها اجدى وايسر بكثير ممـــا سبق في الأول ، أي عندما راودها عن نفسها بتلك الأساليب الشاذة . وغاية ما كلفه الأمر من استحصالها هو أن زار والد الفتاة وطلبها منه فانكحه إياها .

وما هي إلا ايام قليلة واذا بها زوجة له ، وكانت اسعد لياليه وأسرّها تلك الليلة التي عقد له بها النكاح ومضت مـــدة طويلة والزوجان بمنتهى المرح والسرور ، ولكن الأيـام لا يدوم سرورها ، ومن الأسباب التي كدرت صفوهمـا وكدرت صفو الطيار بالأخص ، ذلك أن له أخاً أصغر منه ، وكان على جانب كبير من الجمال ، وهو ساكن معه في البيت وكان بدون زوجة ، وفي الحين الذي يأتي هذا الشاب لبيت أخيه كانت ترأف به زوجة أخيه وتعتني به عناية كاملة ، وكانت هذه العناية والرأفة التي تبديها زوجة الطيار لأخيه الأصغر ، مما أثار الشك في نفس الزوج وبات عنده من الظن السيء مـــا يجعله يشك أن زوجته أغراها أخوه بجماله وشرخ شبابه ، لهذا قالت له نفسه لا بد من أن يمتحنها حتى يتجلى له الشك باليقين وعندما أملت عليه نفسه هذه الخواطر ، سعى لتنفيذها فوراً ، فقد أعلن

بلاغاً على عربه ، بصفته أمير القبيلة ، بأنه في اليوم المعلوم سوف يذهب غازياً لقبيلة ما من القبائل المعادية له .

وعلى أثر بلاغه هذا ذهب بغزاته . وبعد أن بات ليلة وهو في طريقه مدبراً عن عربه عند ذلك اختلق حيلة على قومه وأكد لهم أنه حدث لديه أمر هام يستلزم عودته الى أهله ، وواعدهم موضعاً ينتظرونه فيه ، ثم عاد في سبيله حيث وصل عربه آخر الليل .

فقصد بيته ليتفقد زوجته فوجدها نائمة على فراشها وملتحفة بـــه بشكل طبيعي ، ولم يجد عندهـــا أدنى شيء يدعو الى الشك والريبة ، فتركها ، وذهب الى شقيقه فوجده ايضاً غارقاً في نومه[1] فاتضح عنده خطـــأ رأيه ، ولكنه الى الآن لم يطمئن قلبه الاطمئنان الكافي ولم يقنع القناعة الكاملة بأن امرأته بريئة من أخيه ، لهذا صمم على أن يمتحن قرينته بصورة عملية لتكون عنده أجلى لأوهامه وظنونه ، فعاد كرة اليها فوجدها

(١) ربما يشكل على القارىء الأمر ويتساءل عن السبب الذي جعل هذا الشاب يتخلف عن الغزاة ، فنقول ، إنه من الضروري ان يبقى عند عربه ليتولى حراسة إبل أخيه ، ليحميها فيما لو تسلل غزاة من البدو وانتهزوا غيـــاب اخيه وقومه فشنوا غاراتهم على إبلهم ، لذلك كان تأخره أمراً لا بد منه لأن الشاب لا يقل عن أخيه بطولة ، فاذا سرحت الإبل ذهب معها على فرسه ، وحسب الاصطلاح يسمى هذا الفارس « جنباً » .

نائمة في مضجعها ، فدنا منها وكشف عنها الغطاء ، فانتبهت من نومها فوجدت هذا الرجل الأجنبي جالساً على طرف فراشها فصرخت : من انت ؟ اجابها بصوت منخفض « أنا فلان » مالك يا حبيبتي منزعجة ، وعلى اثر هذه الإجابة حاول ان يدنو منها ويمديده اليها ، فما وسعها إلا ان قفزت من فراشها ووثبت عليه ولطمته بذراعها على وجهه لطمة طرحته مجندلاً على الأرض، وعلى أثر هذه اللطمة اتبعته بالشتائم واللعنات الحارة ثم قالت : « لعل ما اسديه لك من جميل وولاء ورأفة كان ذريعة اتخذها الشيطان ليدخل في ذهنك اني افعل ذلك بدافع غرام بك ، ثم واصلت حديثها فقالت : يجب ان تنتبه وتعلم ان ما افعل معك من المعروف ليس إلا من أجل قريني فلان شقيقك فلولا مكانته في قلبي ووفائي له لما نظرت اليك ، كما انه لولا غيرتي عليه لصرخت بصوتي وفضحتك بين قبيلتك ، ولكن تأبى نفسي ان افعل ذلك لأن فضيحتك هي بلا شك فضيحة لأخيك وهذا امر لا ارتضيه له » .

الآن جمع الرجل نفسه وذهب عائداً الى غزاته ، (ولا اعلم هل هو غزا أحداً من اعدائه أم انه تشاءم من هذه السفرة وعاد مع سبيله واعتقد انه الى الثانية اقرب) .

يعود بنا الحديث الى الشاب المتهم البرىء ذلك انه عندما اصبح

الصبح ذهب الى بيت اخيه ونادى بصوته امرأة اخيه لتناوله فطوره كالمعتاد ولكنها لم تجبه، فنادى ثانية وثالثة، فأجابته بالثالثة اجابة قاسية لم يسبق له أن سمع من نوعها، فاندهش الفتى من هذه الإجابة التي لم يسبق ان اسمعته مثلها فخطا الى الامام خطوتين قاصداً القرب منها فقال: «لا بأس عليك يا ابنة عدوان، كأني ارى صوتك عليه أثر المرض أو التعب، خيراً ان شاء الله». استغربت المرأة ان يسألها الشاب هذا السؤال وهو، على ما تعتقده، اعلم بكنه السر الذي جعلها تجيبه الإجابة الشديدة.

خرجت من خدرها اليـــه وهي ناوية ان توبخه وتشتمه اكثر من الشتائم واللعنات التي صبتها على صاحبها في ليلتها الماضية، ولكنها عندما نظرت الى وجهه ابصرته خالياً من اثر تلك اللطمة العنيفة التي خبطت بها وجه المرء الذي فاجأها البارحة.

لقد تحيرت في امرها، ومما زادها حيرة واشكالاً في الأمر، هو ان الصوت الذي سمعته البارحة نفس صوت ونغمة هذا الفتى، ولكنها تراه أغر الجبين ناصع الوجه لا من ناحية الأثر فحسب، ولكنه من ناحيـــة الأثر المعنوي.

اجل، انه مرتاح الضمير لم يعرف شيئاً يخزيه عندها حتى تنخفض عينـاه ويسود جبينه.

هذا وقد اخذ الشاب فطوره من يد حليلة اخيه وفي نفسه شيء من تغير اخلاقها معه، واخيراً ذهب الفتى لحراسة ابله كالمعتاد . وبعد مضي ليلتين من الحادثة عاد زوجها من سفرته وهو رابط رأسه بخرقة بيضاء، وما ان رأت « الحليلة » بعلها مجروحاً برأسه حتى تذكرت الحادثة فأصبح عندها من التفكير ما يجعلها تشك بأن تلك القضية مؤامرة حاكها لهـــا حليلهـا الماكر . ثم عندئذ بادرته بالسؤال « لا بأس عليك مالك رابط رأسك ؟ » فأجابها قائلاً « وقعت من الفرس واصابني حجر شج جبيني ». قالت : اذن اخشى عليك ان « يشتم »[1] جرحك فيجب ان أعالجه بدواء عندي اخذته من والدتي واحتفظت به لحادثة مثل هذه ! فذهبت مسرعة وأتت بشيء تزعم انه هو العلاج لهذا الجرح . والحقيقة انها تريد ان تنظر لهذا الجرح. وعلى الفور سعت بنقض الحزام الذي على جرحه وتظاهرت أمامه بمزيد الشفقة والعطف ووضعت الدواء كما تزعم .

وفي معالجتها هذه تيقنت اليقين القاطع بأن هذا الجرح هو من أثر لطمتها له وذلك لأنها لطمته بذراعها وكانت آنذاك لابسة « مجولا »[2] فرأت نصب عينيها تأثير مجولها في جبينه فجعلت نفسها متجاهلة ولم تبد أي تغيير أمامه ولكنها قررت القرار الحاسم أن تهرب الى أهلها ، وانمـــا

(١) « يشتم » معناه يلتهب .

(٢) المجول هو السوار ولكنه اضخم حجماً .

المشكلة الآن أن أهلها بعيدون عنها ذلك انهم ذهبوا الى منازل قبيلتهم لأنهم كانوا قد اجتمعوا هم وقبيلة عنزة عرب الطيار ولكن اجتماعهم ذلك لسبب طارىء وعندما زال ذلك الحادث عاد كل منهم الى عربه لهـــذا أصبحت صاحبتنا غريبة بين أظهر هؤلاء القوم ، فماذا تفعل فيما لو عزمت أن تهرب من بعلها الى عربهـــا ؟ لا بد من أن يكون معها رجل قيم عليها ومن اللازم أن يكون هذا الرجل من محارمها فان لم يكن أحد من عصبتها القريبين فيكفي ان يكون ممن يحمل اسم قبيلة شمر فانه عندهـــا بحكم الضرورة [١] يقوم مقام عصبتها الادنين ؛ خاصة اذا شكت له أمرها فانه سوف يكون عنده من الشيمة والنجدة ما يجعله يكون لها بمنزلة الأخ الحميم .

هذا وقد ذهبت تسأل بخفية عن وجود شخص من عرب «شمر» وبعد ان أجهدت نفسها بالسؤال عند ذلك ذكر لها انه يوجد شاب « شمري » اجير عند فلان يتولى رعاية ابله باجرة معلومة، ولما تأكدت من ذلك قصدته على الفور فوجدته كما ذكر لها، فقصت عليه أمرها وشكت له حالها واستنجدت به وأثارت نخوته على أن يهرب بها الى والدها وبكت عنده، فأجابها الراعي

(١) وان كان هذا لا يجوز شرعاً وانما بحكم الضرورة والعادات وأما الاسلام فلا يقيم وزناً لهذه العصبيات وهذا هو مذهبي الذي أؤمن به .

بأنه على أكمل الاستعداد لتنفيذ طلبهـــا ، فلما رأت منه ذلك شكرته وقالت : يجب أن أدلك على أطيب ابله[1] النجائب التي نتمكن من الفرار عليها بصورة تجعله لو أراد أن يلحق بنا ويقتفي أثرنا لا يستطيع ذلك ، فأخذته وهدته الى أنجب إبل حليلها وعندما انتصف الليل ونام زوجها تسللت من الفراش وتركت قرينها في مضجعه ، وذهبت الى الموضع الذي واعدها اياه راعي الإبل فوجدته بانتظارها فركبا الذلول حيث كان الرجـــل على مقدم الراحلة وهي على مؤخرها وادلجا المسير بشدة خوفاً من أن يلحق بهما الزوج هذا وبعلها لم يخطر ببـــاله شيء من ذلك حتى أصبح الصبح واستيقظ من سباته فلم ير زوجته بفراشها كالمعتاد ، فظن انها ذاهبة لقضاء حاجة ما ، وبقي ينتظر عودتها بدون أن يدخل في نفسه ريبة منها ولكنه طال انتظاره بشكل جعل الريب يدب في نفسه ، فسأل عنها فلم يجد من يفيده، فازداد ريبة ، عند ذلك سأل أفراد عشيرته مستفسراً هل يوجد بين أظهر قومنا فرد من قبيلة شمر ؟ أجابه أعلم القوم بمثل هذه الأمور قائلاً : انني اعرف بيوت عشيرتي واحداً واحداً فلم اذكر بينهم فرداً من قبيلة «شمر» سوى راع عند فلان [1] فبعث رسوله يسأل عن هذا الراعي هل هو

---

(١) تعني ابل زوجها .

(٢) لطول الزمن الذي سحب اذياله على هذه القصة لهذا لم أستطع معرفة اسم الراعي الأجير ولا اسم المستأجر .

موجوذ عند ابله ؟ أم لا ؟ فذهب رسوله ينقّب عنه فلم يجده ، عـــاد الرسول واخبر الطيار بان الراعي لا وجود له عند مستأجره ، فتضاعفت ظنونه وقال في نفسه: لا بد بأن هذا الشمري هرب بزوجته وانما هو لم يتيقن اليقين القاطع الى أن ذهب الى ذلوله النجيبة من اجل أن يركبها ويلحق بأثر زوجته ليعيدها اليه قبل ان تصل أهلها ، ولكنه عندما ذهب يحاول أخذ ذلوله لم يجدها ، الآن زال الشك وحل محله اليقين الراسخ ، بأن زوجته قدهرب بها هذا الراعي الشمري إلى أهلها ، وقد كانت الذلول التي هرب عليها الشمريُّ وحليلة الطيار سريعة الجري ولا يمكن ان يجاريها بعدوها إلا الجمل الذي هو ابو هـــذه الذلول فاستدنى الطيار الجمل وركبه مقتفياً أثر زوجته الهاربة ، ولكن الزوجـــة والراعي عملا حساباً له ؛ لأنهما يعلمان انه اذا انتبه لهما لم يتركهما رحمة ولن يدخر وسعاً من جهده للاستيلاء عليهما ولا سيما الراعي فانه يعلم ان عقوبته القتل فيما لو ظفر به .

هذا وقد وصل الراعي ورفيقته عربهما ونجوا من شره .

أما الطيار بعدما رأى انه لم يوفق بالظفر بهما قبل وصولهما عشيرتهما ، فانه ذهب الى والد زوجته واخوتها وبقي يطلبهم ويتعطف اليهم بأن يردوا عليه زوجته ، فكان جوابهم له جواباً سلبياً يؤخذ من مضمونه أنهم لن يرغموها مطلقاً ، وانما اشاروا عليه ان يرضي زوجته فإذا رضيت فهو

احب اليهم ان تصلح امور الزوجين . عندئذ طلبها زوجها ليتفاهم معها فقبلت ذلك ، ولكن اشترطت ان يحضر عندهما ابوها واخوتها فحضروا محاكمة الزوجين .

الطيار : أنا معترف بأن الحق لزوجتي علي ومهما طلبت مني فـــاني مستعد للقيام به

الزوجة : لقد اخطأت علي وحاولت ان تنال من كرامتي وذلك عندما كنت بكراً وقد انجاني الله من شرك ، ثم اني سترتك واخفيت ذلك حتى عن والدي واخوتي ، وعندما طلبت زواجي ووهبني إياك والدي وأيد ذلك إخوتي قبلت وكظمت غيظي ، ولم ترض نفسي ان اعصي امراً بت فيه والدي لأني اذا عصيته ورفضت قبول الزواج منك ، استلزم علي آنذاك ان اوضح العلة التي رفضت قبولك من أجلها ، ولهذا لم تقبل شيمتي ان افضحك بين قومك بفعلتك تلك الشنعاء ، ومضت تلك الحادثة مستورة لم يعلم بها إلا الله ، ولم تقف عند ذلك بل زدت فاتهمتني بشقيقك وذهبت تحاول أن تجد علي ما يهتك ستري فلو صدقت ظنونك السيئة لفضحتني وطردتني الى بيت اهلي ، وهـــا انا الآن اترك الأمر لوالدي واخوتي فان سامحوا وعفوا عن حقوقهم في الأولى والثانية ، فاني لن اسمح بحقي ابداً » .

لقد رأى « الطيار » أن حجته واهية ومنطقه فاشل بعد هذا الكلام

الذي سمعه من زوجته فلم يكن لديه من الوسيلة إلا الاعتراف بجريمته والتودد والتلطف لها ، ولكن كل ذلك لم يفده شيئاً عندها ، ولم يلن لها قلب .

عاد الطيار الى اهله لم يظفر بشيء من امره ، وعندما وصل عربه انشد هذه القصيدة :

(١) « يَا رَاكِبٍ مِنْ فَوْق حُرٍّ مشَذَّرْ
مَـا دَنّق ٱلرّقَاعْ يَرْقَع إرْهُوقهْ » [١]

كثيراً مـا يكون مطلع قصائد الشعراء الشعبيين بوصف الراحلة النجيبة . لهذا ابتدأ الطيار قصيدته بوصفه للجمل الذي يركبه رسوله الذي انتدبه لزوجته وهمياً « يا راكب من فوق حرٍ مشذر » اي يا ايها الوافد من عندي لقد اركبتك على جمل عريق في اصله من سلالة الإبل النجائب الشديد في بنيته الصلب في عضلاته (مشذر) اي طويل القامة .

(٢) أمهُّ لَفتْنـا مِن عِمَانٍ تذَكَّر
وَابُوه مِنْ قِعْدَانْ عِلْوى عَمُوقَـهْ

(١) دنق اي ما تطأطأ الرقاع اي المختص بمعارضة الابل كالبيطار « رهوق » يعني الحفاء مفردها رهق والجمع رهوق وحفاة وحفاء قعدان جمع مفردها قعود اي فتى من الإبل لم يكن كهلًا اخنى عليه الدهر حتى اصيب من كثرة استعمال الركاب له بالحفاء .

يسترسل في مدحه لهذا الجمل ويؤكد انه عريق في اصالة نسبه من قبل امه ومن قبل ابيه ، فهو ينسب هذا الجمل من ناحية امه فيقول : إنها من الإبل النجائب التي مقرها (عمان) ويقال عمانية للأنثى من الإبل كما يقال عماني للذكر، ويذهب الشاعر وينسب ابا الجمل ويقول انه من سلالة إبل عُلْوى ، وعُلْوى هم قبيلة مطير الذين يقطنون الآن نجداً واكثر ما تكون مساكنهم بين الشرق والشمال لمدينة الرياض .

(٣) « يُشْبِه ظَلِيْمٍ مِنْ جَذِيبٍ تَحَدّرْ
وإلاّ النّداوِي يَوْمْ تُطْلق شْبُوقه »

يصف سرعة جري الجمل بجري الظليم (ذكر النعام) وتارة يقول إنه كالصقر من الطيور إذا انقض في الجو الراكد .

(٤) يَا رَاكْبهْ كِزّهْ لْنَجْعٍ بَالاَجْفَرْ
تَلْقى عَشيري كِنّهَ اْلبَدْر فَوْقَـــهْ

يقول الطيار : اذهب ايها المندوب بكل سرعة واقصد الموضع الذي فيه محبوبتي وهو المكان الذي يسمى (الأجفر) والأجفر موضع خصب يبعد عن مدينة حائل مسافة ٨٠ كيـــلا ويقع في الشمال الشرقي عن حائل فيقول لاحاجة بك ان تسأل عنها فإنك ستجدها كالبدر في تمـــام نموه أو بمعنى ادق ، يقول تجدها في شكل من الزهو والجمال مما يجعلك تظن ان

البدر متلبس في جسدها .

(٥) « لا وا[1] عشيرِيْ حال دُوْنَه مْصَطَّرْ

عِيّـــالْ وَاعِزّي لمنْ دَارْ شَوْقَه »

يتألم الشاعر من فراق زوجته و يقول : إنه حال بيني و بين اقتراني بها رجال ابطال اقوياء ، ويؤكد لنا ان العاشق الذي يحـــاول ان يتصل بمعشوقته وهي في جو يحيط بها ويحرسها رجال من نوع هؤلاء الأبطال ! يقول : لا شك أن هذا العاشق من اسوأ الناس حظاً واتعسهم توفيقاً وكأنه يشير الى نفسه بهذا البيت .

(٦) حامِيْنْ مِنْ فَيْدِ[2] الى حَدّ الْاقْوَرْ

ومحرّمينِ ضدّهم لا يذوقـــه

يزيد بوصفه لرجال معشوقته ويقول انهم حامون بقوة بأسهم وشدة نفوذهم مساحة كبيرة من الأرض الخصبة ولا يتسنى لإبل عدوهم ان ترعى ما في هذه الارض من العشب والكلأ . فيوضح لنا ان القوم الذين استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم ويفرضوا سلطانهم على الصحراء الخالية من البشر بحيث لا يرعى من شجرها عدا مواشيهم ، أين له ان يتمكن من

(١) « لا وا » كلمة تقال للتحسر والتمني .

(٢) فيد قرية قديمة تقع جنوباً للشرق عن مدينة حائل

أُخذ ابنتهم بأسلوب القوة؟ وإن كانت أبنتهم هذه زوجته الشرعية ولكنه مع ذلك يرى انه من المستحيل اخذها إلا بتكرم منهم وطيب نفس.

ويبدو أن الشيخ كنعان الطيار اراد بهـــذا البيت أن يأتي اهل زوجته من طريق المعروف واللين، وهذا هو الواقع لأن الكريم اذا أتى من طريق المعروف والتودد لان وسلم مقوده لمرتجيه.

وهذا ما ذهب اليه المتنبي بقوله:

اذا انتَ اكرمت الكريمَ ملكته

وان انتَ اكرمت اللئيم تَمــــردا

(٨) «لا وَاعَشِيرِيْ عَنْ هَوَايَهْ تَنَكَّرْ

شِفْتَ الغَضَبْ يا نَاسْ باْغضاي مُوقَهْ»

يقول: وامصيبتاه على عشيري[1] اي زوجته ومعشوقته التي تغيرت عليه وتنكرت بعد ما كان جو الألفة والوداد بينهما مليئاً بالمرح والسعادة ويقول: إني رأيت غضبها على ظاهراً في سواد عينيها فهو يرى أن زوجته تنظر اليه بعين الغضب لا بعين الرضا التي كانت تبديها له سابقاً.

(٩) أَبو قُرُونٍ كِنّهــا ذَيْل الاشْقَرْ

رِيْح الخضيري وَاْلعَنَــــابر نُشُوْقَه

---

(١) العشير في اللغة الشعبية كلمة تشمل في معناها الرجل والأنثى فالرجل يصح ان يقول لمعشوقته عشيري أو عشيرتي والأنثى كذلك تقول عشيري.

يصف شعر رأس محبوبته ويقول إنه اشبه ما يكون بشعر « ذيل » الحصان الأشقر ، أي الأحمر ، ويوضح بأن جسد رائحة زوجته كأنها رائحة الريحان والعنبر .

(١٠) وَجْدِي عَلَيْها وَجْدُ مَطْعُونَ الأَبْهَرْ

أَقْفَى يجرّ مُسَنْجِدٍ مِن عروقَهْ

يقول : إن آلامي عليها هي أشبه ما تكون بآلام الرجل الذي طعنه اعداؤه برمح أصاب العروق المتصلة بالقلب .

(١١) أَووجد من هُوَ عَنْ جَوَادِه تَقَنْطَرْ

بغارَةٍ عَيَّتْ تَمدّدْ سْبُوقَهْ

يعود ثاني مرة ويصف آلامه ووجده على محبوبته ويقول : إنه وصل الى وضع من البؤس والقلق يشبه وضع الفارس الذي رمته فرسه أمام اعدائه في ساحة الوغى ولم تستطع ان تجري به .

(١٢) أَووَجد مَكْتوفٍ تَولّوه عَسكَرْ

أَقفى بْهَ الجْلاّدْ بِسَيْفِه يَسُوقَهْ

يزيد الشاعر تأكيداً لسوء حالته ، ويصف ما يعانيه من الشقاء ، فتجده يضع نفسه بأسوأ وأتعس ما يصل اليه المرء .

وهل أسوأ مصيراً والعياذ بالله من وضع المرء الذي حكم عليه بالإعدام ومن ثم قاده الجلاد لتنفيذ الحكم عليه بالسيف. وهكذا الطيار يصف نفسه ويقول: ان وضعه الراهن يعبر ابلغ التعبير عن وضع ذاك الرجل الذي قيد للموت ولم يبق بينه وبين ازهاق روحه إلا دقائق معدودة.

واليك القصيدة متصلة غير مقطعة مع شرح ألفاظها.

(١) يا راكبٍ من فَوْق حرٍّ مشذَّرْ

مـــا دَنّقَ الرقّـــاعْ يرقع رهوقهْ

(٢) أُمّه لَفَتْنـــا من عِمـــانٍ تذكَّرْ

وابوه من قِعْدَانْ عِلْوى عموقـــهْ

(٣) يشبهْ ظِليمٍ من جِذيبٍ تحـــدَّرْ

والاَّ النَّداوي يُومْ تُطلقْ سُبُوقُـــهْ

(١) حر: اصيل مشذر طويل القامة. دنق: انحنى. الرقّاع: الذي يصلح اخفاف الابل. الرهوق: الحفا. (يصف الجمل).

(٢) تذكر: تنسب نسباً اكيدا. قعدان: جمع قعود. وهـــو الفتى من ذكور الابل. عموقة: عريقة النسب.

(٣) الظليم: ذكر النعام. جذيب: المكان العالي. تحدر: نزل. النداوي: الصقر. سبوقه: قيوده.

(٤) يـــا راكْبِهْ كِزّهْ لنجعٍ بالاجفر
تَلقى عَشيِري كِنَّهْ البــدر فُوقَهْ

(٥) لا وَعشيري حَــالْ دُونْه مُصطَّرْ
عِيَّـــال وَاعِزّي لمن دَارْ شَوْقَــهْ

(٦) حامين من فيدٍ الى حَدّ الأقْوَرْ
ومحرّمــينٍ ضــدُّهم لا يذوقَــهْ

(٧) لا وعشيري عن هَوايــه تنكَّرْ
شفْتَ الغضب يـــا ناسْ باغْضاي مُوقَهْ

(٨) ابو قرونٍ كنّهـــا ذيل الاشقر
رِيْــحَ الخضْيري والعَنَابرْ نُشُوقَــهْ

---

(٤) يا راكبه: ينادي المنتدب . كزه : ادفعه . النجــع . الثلة من العرب . الأجفر اسم الموقع الذي يقطنه اهل زوجته

(٥) لا وا: كلمة تقال للتوجع والتحسر والتمني . عيـــال . جبابرة . عزي . ما اكبر ما أتعزر له. دار شوقه : ينقب عن حبيبته .

(٦) (فيد) و (الأقور) موضعان . محرمين : حامين . ضدهم . اعداؤهم لا يذوقه . لا يرعون فيه .

(٧) عن هواي : عن حبي . باغضاي موقه : بنظرة عينيها .

(٨) أبو : صاحب . قرون : يقصد شعرها . ذيل الأشقر : اي شعر الحصان المسدل على فخذيه . ريح : رائحتها . الخضيري : الريحان . العنابر : مفردها عنبر نشوقه : أي تشمه .

(٩) وجدي عليها وجدَ مَطعونَ الابهر

أَقفى يجرّ مسَنْجِدٍ من عُروقهْ

(١٠) أَو وجد من هُو عن جواده تَقنطرَ

بغارة عيت تَمَّددْ سُبوقَهْ

(١٠) أَو وجد مكتوفٍ تولوه عسكرْ

أَقفى به الجلاد بسيْفِهْ يَسُوْقَهْ

يقال إن القصيدة أكثر مما ورد ، وإن فيها من الايضاح والتودد لاصهاره والترجي لزوجته وابراز شعوره نحوها وبث شكواه واعترافه بذنبه لها ما هو اكثر من ذلك، وانما لم يردنا الا هذه الأبيات .

هذا وقد بعث الطيار قصيدته هذه لأصهاره وزوجته ، وبعد أن أيقن اليقين القاطع بأن قصيدته وصلت اليهم ، هناك بات عنده من اليقين ما يجعله يعتقد بأن قصيدته سيكون لها الأثر الفعال في نفسية أصهاره وحليلته وأنه سينال بغيته فيما اذا ارتمى على اصهاره والتجأ اليهم ، وذلك أن الشعر له مفعول محسوس في نفسية العرب ، خاصة بذلك العهد ،

---

(٩) وجدي : أي ألمي . وجد مطعون : كألم المطعون : الأبهر . بين الكتف والظهر : أقفى : أدبر . يجر : يسحب . مسنجد : الرمح .

(١٠) جواده : أي فرسه . تقنطر . أرتمى عن صهوة فرسه . بغارة : في معركة . عيت : ما استطاعت . تمدد : تجري . سبوقه : فرسه .

لذلك بادر الرجل مسرعاً وركب راحلته ونزل ضيفاً على اصهاره ودخل من رواق البيت. وعند رجال البادية عادة ان المرء اذا دخل من خلف البيت معناه انه سلم نفسه تسليماً بدون قيد ولا شرط ، وانه خاضع لكل ما يطلب منه ومذعن اذعان المغلوب على أمره للغالب المنتصر ، فكان أصهاره على ما يظنه بهم ويعتقده منهم ، وحالما رأوا الطيار لاجئاً اليهم وملتمساً عطفهم ، بادروا بإقناع ابنتهم ، وهي كذلك كانت المدة التي مرت عليها وهي معلقة عند أهلها مما خفف من شدة غضبها السابق .

وفي نهاية الأمر استطاع اهلها أن يؤثروا عليها حتى رضيت وذهبت مع قرينها ، فكأني بالطيار يرى نفسه اقترن بها من جديد .

ولما كانت نساء العرب دائماً وابداً لا يعشقن الرجل ويعجبن به وينظرنه بعين الاعتبار إلا اذا كان على جانب كبير من الشجاعة ، فقد كان الطيار لا يتمنى في نفسه إلا أن تأتيه غارة من اعدائه ليظهر شجاعته أمام حليلته لعلها تنظر اليه بعين الاعجاب والاحترام بعد ما حصل بينهما من سوء التفاهم . وما هي إلا ايام قليلة وإذ بغارة عرب السردية [1] ينصبون عليه في بيته ، فرأى الفارس انه وفق في أمنيته ، فنادى زوجته قائلاً لها :

(١) (السردية) هم عرب من بادية سورية حالياً ومنازلهم تقع شرقاً عن مدينة دمشق .

اليوم سوف ترين مني الفعل الذي يرضيك ويجعلك تستصغرين جميع ما صدر مني من خطأ . وقد طلب البطل من زوجته ان تضع هودجها على ظهر جملها وتركبه ثم تلحق به لتزغرد له بصوتها الناعم المعسول ففعلت ذلك ، فلما حمي الوطيس بينه وبين عرب السردية صاحت مزغردة له بأعلى صوتها ، وكأن هذه الزغاريد كأس من الخمر يسكر من نغماتها اكثر بكثير مما يسكر شارب ابنة الكرم ، وكلما طرح فارساً من هؤلاء القوم وتمكن من الاستيلاء عليه صرخت زوجته بصوتها العالي مزغردة لقرينها البطل . ومن حسن توفيق الطيار أن لديه جواداً أصيلاً سريع الجري بحيث يجعله يسيطر على قهر اعدائه بكل سهولة ، فاذا ما تضايق من اعدائه وطوقوه بخيولهم نفذ من بينهم كالسهم فلا يستطيعون الاستيلاء عليه بفضل فرسه السريعة الجري ، كما انه اذا كر عليهم وهم هاربون منه لا يستطيعون الفرار ، لأن فرسه تلحق بهم ويطرح منهم ما استطاع .

وقد انتهت هذه المعركة بانتصار الطيار وهو بمفرده على هؤلاء القوم الكثيرين وقد استولى على خيل منهم ، والذي يسره اكثر من هذا كله هو أنه رآى زوجته الآن تنظر اليه بعين الاجلال والبطولة ، لأن نساء البادية كما اسلفنا لا يرضيهن من بعولتهن أن يكون الزوج وسيماً وجميلاً في شكله كما أنه لا يهمهن ايضاً ان يكون ثرياً ، وانما الذي يهم العربية ويجعلها

تفخر ببعلها وتعجب به كل الاعجاب اذا كان شجاعاً حامياً للذمار لا تلين له قناة ولا تخفر له ذمة . هذا هو غاية ما تريده الزوجة العربية من بعلها ، وهي إذ تنظر للرجل من هذه الناحية فانما تنظر اليه من نواحي عديدة : منها أن الانثى العربية كلما رأت الرجل كاملاً برجولته كان ذلك ألذ وأجمل في حياتها الزوجية من شتى الوجوه الاجتماعية ، ومنها أنها تتصور نفسها أُمّاً لأبطال أفذاذ في الشجاعة والفروسية عندما يكون بعلها شجاعاً فتنجب منه مولوداً تعيش بكنفه بقية عمرها عزيزة مرفوعة الرأس بفضل شجاعة ابنها الموروثة فيكفيها أن يقال لها : أم فلان .

عندما عاد الطيار منتصراً على اعدائه جادت قريحته بهذه الأبيات :

«١» اصبحنا وَصَبَّحَنا جُنُودْ [1]

كِثْرْ سِيعَانَ الجَرَادْ

يقول : في الصباح الباكر هجم علي جنود كثيرون بعددهم ككثرة الجراد .

٢) وْجونِي غِلِمَةْ [1] يَبْغُونْ ذَوْدِي [2]

ونا عندهنْ فَوْقَ الجْوَاد

(١) (سيعان) . الشيء الكثير .

(١) (غلمه) فتيان .

(٢) ذودي . (يقصد ابله) .

يوضح في المصراع الأول من البيت الثاني بأن القوم الذين باغتوه صباحاً فتيان وأن لا قصد لهم الا أخذ إبله قهرا . وفي عجز البيت يقول: وانا عند ابلي وراكب لفرسي. فكأنه يقول إن هؤلاء الشباب يجهلون ما اتمتع به البطولة.ولو انهم رجال كهول عقلاء لبلغهم عني الخبر الذين يعرفوني بأني الفارس الذي لا مطمع لهم عندي .

٣) أَصِيلٌ من أَصيلٍ بنت اصيلْ

وَعَيْنَيها نارٍ شِبّتْ بالْحَمَادْ

يصف الشاعر فرسه ، ويؤكد بأنها سلالة أفراس عريقات بأصلهن ، وفي عجز البيت ينعت عيني الفرس بأنها كالنار التي اشعلت في الصحراء في ليل مدلهم.

٤) وَقَوَائِمها كَعِمْدَان الحدِيد

وَصدرها بابٍ ركّبْ بالبلادْ

في المصراع الأول ينعت فرسه بطول قوائمها وطول القوائم في الفرس علامة تدل على نجابتها ، وفي العجز يصف ايضاً سعة نحرها .

٥) وَظَهْرَها شِبْرٍ ما يزِيدْ

سرِيْعَةْ مَوْجْ بِاهِرْها سَنَادْ

يقول إن ظهر فرسه قصير وانها سريعة الانحراف سهلة المقود.

٦) وَحارِكُها[١] كما الذِّيبُ المُوَيق

عَلىَ الرَّعيَان ظـــارٍ للهَـــدادْ

٧) وأذانيها كَما كافُورُ غَرْسٍ

ومناخرهـــا كما كِيْرُ ألستـــاذ[٢]

والواقع ان هذا العربي الأمي الذي لا يعرف شيئاً عن الأدب العربي الفصيح ولكنه بفطرته العربيـــة وبذوقه السليم تمكن أن يصف فرسه ، وينعتها بأجمل وصف وصفت الخيل به حكماء العرب وشعراؤهم من نثر ونظم .

فخذ من النثر ما قاله أحد خبراء العرب في الخيل وهو « صعصعة بن صوحان » الذي طلب منه معاوية بن أبي سفيان بأن يخبره أي الخيل أفضل فقال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث، قال فسر لنا ؟ قال : أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحزام ! وأمـــا القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب ؟ وأمـــا العريض الثلاث : فالجبهة والمنخر والورك ، وأما الصافي الثلاث فالاديم والعين والحافر ،هذا

---

(١) الحارك : رأس الكتف .

(٢) الغرس : النخلات البكر والكافور هو ثمرة النخلة أول ما تثمر وهو اشبه ما يكون برأس القلم .

ما وصفت به الخيل نثراً أما ما وصفها الشعراء به فهو كثير وانما نأتي بشيء من بعض الأبيات المتفقة مع وصف الطيار كقول : عدي بن الرقاع :

يخرجن من فرُجات النَّقع دامية
كأن آذانها أطرافُ اقلام

فهنا نجد الطيار وصف أذن فرسه بنفس هذا الوصف .

وقد قال البحتري في قصيدة له طويلة يصف فيها الفرس جاء منهـا قوله :

وعريض أعلا المتن لو علّيتـه بالزئبق المنهـل لم يترْجرَج

ويقول امرؤ القيس بن حُجْر في حصانه :

له أيطلاَ ظبيٍ وساقا نعامة
وارخاء سرحان وتقريبُ تَتْفُلِ [1]

ليس بالغريب أن يكون وصف الطيار لفرسه صورة طبق الأصل لما جاء به وصف العرب القدامى للخيل من نثر وشعر فالطيار فرع من ذلك الأصل ، والأصول لا تتغير سوءاً طال الزمان او قصر . علماً بأن الطيار أميٌّ لا يعلم شيئاً من الأدب العربي القديم .

(١) السرحان : الذئب . والتتفل : ولدالثعلب . اي ان حصانه سريع الانحرا كانحراف ولد الثعلب وكشدة عدو الذئب .

ومنطق الطيار وواقعه يقول : إنه لا عذر له البتة عن القتال والكفاح.
ما دام أن لديه فرساً توفرت فيها جميع صفات الخيل الطيبة ويضيف إلى ذلك قوله :

ونور العينْ عند البِلْ تزغرد

تثير بزغرودهْ مكنون الفواد

نور العين يقصد زوجته أنها كانت تزغرد له الزغرودة تلو الزغرودة ويزعم أن هذه الزغاريد من زوجته له كانت من أهم الدوافع التي ألهبت شعوره وأذكت شعلة الحماسة والشجاعة في كيانه أما تراه يقول . في عجز البيت « تثير بزغرودة مكنون الفؤاد » ولا شك أن هذا الصوت الناعم السلس كان له أعمق الأثر في نفسية الطيار وربما كان نجاحه على أعدائه مبنياً مائة بالمائة بسبب صوت هذه الحسناء • ولهذا تراه يقول .

لما راحتْ [1] بالبواسِلْ هرّبْ [2]

يشبه السيلْ حــاديه [3] الحشاد [4]

يقول البطل : إنه على كثرة اعدائه الذين هم كما ذكر اشبه ما يكونون بكثرة الجراد ، مع ذلك فانه استطاع أن يحمي ابلــه ويهزم الأعداء ،

(١) (راحت) يقصد خيل اعدائه (٢) (هُرّبْ) اي هاربات يعني افراس الاعداء الذين هجموا عليه (٣) (حاديه : يدفعه (٤) (٥) الحشاد : الموضع الضيق

والفضل يعود بذلك لفرسه الأصيلة ولزوجته التي شحذت همته وصقلت حاسة البطولة فيه، وقد عاد منتصراً وكأني به يردد قول عنترة بن شداد مخاطباً زوجته عبلة :

أثني علي بما علمت فإنني ... سَمِحٌ مخالطتي اذا لم اظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل ... مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم

مظهر رجل في حقيقة انثى

قصة « بشير بن ضبيعان »[1]

مع ضيفه علي بن ضيفته المدعوة (غتره)

هي فتاة توفي والدها بين عام ١٣٢٣ - ١٣٢٧ وكانت في عنفوان شبابها وليس لها من يعولها ، فخشيت على نفسها من وصمة العار فاضطرت الى ان تترك عرب عشيرتها الذين يعرفونها جيداً وتذهب الى عرب من عشيرتها نفسها ولكنهم لا يعرفونها بالذات ، وهي عندما ذهبت الى هؤلاء العرب لم تذهب بصفة أنها انثى، كما هو واقع امرها، وإنما ذهبت متنكرة كأنها ذكر . وكان لها من طول القامة ما يشفع لها فيما تدعيه ، يضاف الى

(١) كل من بشير وغترة كلاهما من قبيلة الشرارات بادية المقاطعة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية .

ذلك أن فيها من الجسارة والثقة بالنفس في أي عمل من اعمال الرجال ما يجعلها تضارع الرجل في المظهر ، ولهذا تمكنت أن تتصف بصفة الفتى فذهبت وظلت كضيف عند بشير بن ضبيعان[1] ، ولا زالت متنكرة لا يعرف عنها إلا انها شاب من خيرة الشباب البواسل وقد سمت نفسها علياً ، وبقيت عند بشير مدة طويلة، وهي مسلحة بالبندقية ولا يمكن أن تدعها من يدها قطعياً إلا في ساعات الفراغ ، وكانت تحسن الرماية واذا غزا عربها العدو غزت معهم وهي في طليعة الشجعان في ساحات القتال ، ولم يظن أحد أن علياً هذا انثى ، هذا أمر لا يخطر على البال. وكان علي هذا فتى وقوراً لا يمزح مع أحد ولا يستطيع ان يمزح معه أحد لشدة هيبته ووقاره ، ولكن الحقائق مهما توارت عن الأعين لا بد من أن تبرز عند أية مناسبة من المناسبات الطارئة ، ومن ثم يعود كل شيء الى اصله كما قال ذو الأصبع العدواني :

كل امرىء صائر يوماً لشيمته   وإن تخلق اخلاقاً الى حين

وأخيراً طال الزمن على « علي » وهو يخادع نفسه و يخادع الناس . فاضطر آخر الأمر ان يميط اللثام ويوضح الحقيقة . ولكنه لا يسعه ذلك حتى يختار لنفسه الشخص الذي يطمئن اليه ويثق برجولته ، وقد

(١) بشير : من شخصيات عرب الشرارات البارزين

كانت إقامته بين اظهر هؤلاء القوم كافية بأن تعطيه خبرة ودراسة لأخلاقهم وتحليلاً لشخصياتهم ، لهذا وقع نظر علي على الشخص الذي هو تنيف في بيته ، ورأى انه خير من يختاره ليفشي اليه سره ويكشف له حقيقة امره ، ولكن علياً الآن طال عليه الأمد وشاء ان يعود الى ما خلق له من المتعة الجنسية ، فلا بد إذن من ان يكون علي « غترة » الفتاة لا علي المزيف فاذا عادت « غترة » الى جوهرها الاساسي اصبحت ملزمة بقرين ينكحها. وقد كان القرين الذي رشحته لنفسها معلوماً لديها هو بشير بن ضبيعان الذي حلت ضيفة عنده كل هذه المدة ، وانما المشكل عليها انها لا تعلم هل يقبلها بشير زوجة له ام لا ، وانما هي على كلتا الحالتين مرغمة أن تصارحه بحقيقة أمرها فإن قبلها زوجة له فهذا هو منتهى امنيتها ، وإن لم يقبلها فهي تأخذ منه عهداً على أن يسترها ولا يفشي سرها لفرد من البشر ، وعندما سنحت الفرصة واختلى بشير وضيفه ، هناك شرح الثاني للأول أمره بوضوح وأعرب له عن رغبته فيه كزوج شرعي ، وذلك بعد أن أخذ منه ميثاقاً على أن يستر القضية حتى ينتهي عقد النكاح ؛ اي اذا وافق بشير ورغب الزواج ، فإن لم يوافق على النكاح فيكون الأمر مستوراً لا يعلم عنه أحد إلا الله . هذا وقد كان الخبر بالنسبة لبشير مفاجأة عظيمة لأنه اندهش اندهاشاً بالغاً غير أنه في النهاية كان مسروراً للغاية بتيسير الله له هذه الزوجة التي توفر لها عقل الرجل وشجاعته مع انوثة المرأة المحصنة

العفيفة وجمالها وفي النهاية وافق بشير على رغبة ضيفه ، ومن ثم عقد النكاح الشرعي بصورة سرية ، ولم يشعر العرب الا وعليٌّ الشجاع الباسل قد انقلب امرأة لبشير بن ضبيعان وفي تاريخ ٧-٧-١٣٧٤ ه اجتمعت بالأمير[1] عبدالعزيز بن احمد السديري الذي هو أمير بلدة القريات والمفتش للحدود الشمالية الغربية التي يقطنها عرب الشرارات الذين منهم بشير وزوجته وسألته عنهما فقال الأمير انهما على قيد الحياة جميعهما وأنهما في سن الشيخوخة كما أفادني أنهما أصبحا يعولان اسرة كبيرة من البنين والبنات.

(١) توفي عبد العزيز السديري غفر الله له في أحد الربيعين عام ١٣٧٤ ه وذلك بعد ان تولى وزارة الزراعة وقد كان رحمه الله ملما باخبار العرب غاية الالمام كما كان على جانب كبير من الدهاء والرزانة . وقد رويت عنه قصتين سأوردهما في الجزء الثاني ان شاء الله .

نطاح بالقوة

يتبعه عفو وتسامح

قصة (غريب [1] بن معيقل الشلاقي الشمري) مع معشوقته (وديدة) [2]
حدثت بين عامي ١٣٢٥ و ١٣٣٠ هـ

لقد أتيحت لغريب الفرصة التي جعلته يرحل عن عشيرته « شمر » وينزل عند عشيرة (الرُّوَلَة) [3] وفي أثناء إقامته هذه اشغف قلبه بحب الفتاة « وديدة » كما ان الفتاة بادلته بالمثل أو ربما كانت أكثر غراماً به إلا ان الانثى عادة تخفي من المحبة اكثر من الغرام الذي يجاهر به الرجل ، وهذا شيء مألوف ولكن المشكلة العويصة أنه على الرغم من الود والمحبة المتبادلة بين الطرفين ، مع هذا كله فإن هناك قيوداً تحول دون

(١) غريب هو احد الشلقان الذين حملوا رفيقهم الجريح على اكتافهم وسنذكر القصة في الجزء الثاني في موضعها وهو شجاع وشاعر ، توفي رحمه الله في المدينة المنورة سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) اما مخطوبته وديدة فهي من فخذ (القطاعي) من قبيلة الرولة . وحتى الآن لم اجد من يفيدني عن اسم والد الفتاة وغاية ما وصلت اليه روايتي هو معرفة اسم الفتاة واسم عشيرتها وفخذها الذي تنتسب اليه

(٣) لابد ان هناك سبباً من الاسباب الطارئة التي جعلت غريباً يترك عربه ويقطن عند الرولة ولكني اجهل العلم بهذا السبب .

تحقيق أمانيهما فيما لو أراد غريب أن يخطب وديدة من اهلها[1] .

هذا وقد طالت المدة على العـــاشقين ولم يزل غرامهما ينمو ويزداد ، وأعظم الأمور التي جعلت غرام كل منهما يتضاعف هو أن غريباً قرر أن يعود الى عشيرته «شمر» وذلك مما خلق في نفسية الاثنين ألماً لأن الاجتماع اصبح بين الطرفين شبه متعذر حيث أن كل واحد منهما ينتسب الى قبيلة معادية للأخرى ، ولكن هذا كله لم يمنع « غريباً » ومعشوقته من أن يدبرا لهما حيلة يبلغان بها امنيتهما . وخلاصة هذه الحيلة هي أن غريبـــاً أعطى معشوقته وعداً اكيداً بأنه بعد مضي تسعين ليلة من تاريخ ذهابه فسوف يأتيها في منتصف الليل ويختطفها لا محالة ، وعندما أعطى غريب هذا الوعد الذي لا بد له من تنفيذه ، بعد ذلك عاد العاشق إلى عشيرتـــه وبقيت معشوقته تنتظر اتمام الوعد بفارغ الصبر . ولا زالت تعد ليالي الدهر ليلة ليلة ، وهي واثقة كل الوثوق بأن معشوقها سوف ينفذ وعده إلا أن فاجأه القدر بملمة طارئة ، وقد كان هذا الرجاء خير معلل لها ، فلمـــا انصرم من الوقت تسع وثمانون ليلة ولم يبق الا هذه الليلة التي هي آخر ليلة من ليالي الوعد ، عند ذلك أعدت جميع أمتعتها الخاصة وأدرجتهـــا في

(١) اغلب الظن ان تكون معشوقة (محيرة) لابن عمها وقـد شرحنا معنى المحيرة راجعها في صفحة(٣٧) من هذا الجزء

كيس وشدت وثاقه وبقيت ترقب مجيء خطيبها ، وعندما انتصف الليل وهجع الناس أتاها معشوقها حسب الوعد المعين بينهما واختطفها من أهلها وأردفها خلفه على ظهر ذلوله ، فلما وصل أهله اعطاها مهراً معادلاً لمهرها فيما لو كانت عند اهلها، وبعد ان سلم لها المهر عقد عليها النكاح عقداً شرعياً[1]
أما اهل الفتاة فانهم لم يفقدوها الا بعد ان ارتفعت الشمس من صباح الغد، والسر في ذلك يعود لأختها التي هي أصغر منها المسماة «ضحية»؛ وضحية هذه هي التي اسرت لها اختها وديدة وأوصتها أن تفعل ما استطاعت أن تفعله من الأمور التي تجعل أهلها في غفلة عنها بحيث لا يتمكنون من ان يفقدوها حتى يسفر الصباح لتكون أبعد مسافة عن عربها فيما لو سعوا لإدراكها . وقد كانت « ضحية » منفذة لوصية أختها فهي عندما هربت أختها مع غريب قامت «ضحية» وادخلت في قلب فراش اختها شيئاً من الامتعة البيتية وهذا الشيء هو الذي أوهم أهل وديدة بأنها لا تزال نائمة بفراشها إلى أن بزغت الشمس وأهلها يعتقدون ان ابنتهم لا زالت في نومها ، ولكنهم عندما قرب أن يشتد الضحى والفتاة لا زالت في لحافها كما يعتقدون، اضطر والد الفتاة ان ينتزع الغطاء عن فتاته لتقوم بمهمتها البيتية ، وذلك

(١) اعتقد ان مثل هذا النكاح الذي بغير اذن من ولي الفتاة يكون فيه شيء من عدم صحته في بعض المذاهب اما ابو حنيفة فهو لا يرى مانعاً من صحته .

بعد آن صوت لها عدة مرات ليوقظها من مرقدها هناك نزع الغطاء عنها وعندما نزع الغطاء ولم يجد داخل الفراش إلا أمتعة جوفـــاء ، عندئذ انتبه والد الفتاة وأهلها وأيقنوا أن الأمر ليس طبيعياً فاقتفوا أثرها فوجدوا أثر [1] جارهم السابق غريب كما وجدوا أثر ذلوله النجيبة التي أقلت الاثنين فعادوا دون جدوى و بعد مضي وقت غير طويل ، غزا أبو البنت قبيلة شمر هو وثلة من اسرته ، كما أنه في ذات الوقت غزا غريب قبيلة الرولة فصادف ان اصطدمت غزاة شمر الذين يرأسهم غريب بالغزاة الآخرين الذين هم غزاة قبيلة الرولة ، ولا اعلم هل يرأسهم ابو الفتاة أم الرئاسة كانت لغيره. المقصود ان هؤلاء الغزاة هم عشيرته الأقربون ، فلما دنا القوم من القوم تبادلوا الحديث فعلم كل فريق منهم بخصمه ، فحمي آنذاك الوطيس بين الخصمين وكانت غزاة « شمر » اكثر من غزاة « الرولة » [1] بالعدد والعدة لهذا كانت الغلبة لهم على عدوهم ولكن هــذه الغلبة ليست غلبة مطلقة بدون قيد ولا شرط بل ان الرولة لما رأوا قلتهم وكثرة اعدائهم اضطروا ان ينزلوا لعدوهم بعهد يحفظ دمـــاءهم فقط و يتركوا لعدوهم نجائبهم واسلحتهم كما هو العرف الجاري عند العرب ، وذلك عندما تشعر قبيلة

---

(١) يوجد عند بعض العرب مهارة في معرفة الأثر .

(١) حدثني حاشم اللاحقي الشمري الذي هو احد الغزاة الذين كانوا بقيـادة غريب واكد لي ان عدد غزاة قبيلة شمر يفوقون غزاة الرولة بثلاث مرات .

بضعفها وقوة خصمها تفعل هكذا . ولقد نزل الرولة على العهد لشمر واظن انهم عندما نزلوا على العهد ما علموا قطعياً ان رئيس هؤلاء الغزاة « غريب » الذي اختطف ابنتهم من عهد قريب بدون اختيارهم .

وبحكم سلطان القوة نزل قوم الفتاة نزول المقهور تاركين اسلحتهم وامتعتهم خلفهم ، وغاية ما هنالك انهم يعتبرون سلامة دمائهم هي المكسب . وفي الفترة التي تسلمت اسلحتهم منهم وبقوا عزلاً ، هناك ابرز غريب نفسه وراح يسلم عليهم واحداً واحداً ، فلم يروا عليهم مصيبة اكبر من ذلك . اما هو فلم تمر عليه ساعة اسعد من هذه الساعة ، وقد رأى « غريب » انه من كمال انتصاره ان يحسن ويتفضل عليهم ويظهر لهم من الولاء والمحبة ما يخالف الشيء الذي يضمرونه له ، وذلك انه جمع قومه وطلبهم ان يهب كل فرد منهم ما ناله من الغنيمة من نجائبهم واسلحتهم وامتعتهم ، وقد كانت مطالبته لقومه مبنية على شيء من العفة والإنصاف ، وبشكل يجعلهم تحت امر واقع ، فقد قال لهم : « يا قومي ان هؤلاء القوم الذين اصبحوا اسرى بأيدينا كان لهم علي يد بيضاء سابقاً عندما كنت غريباً عندهم ومستجيراً بحماهم ، كما انه اصبح الآن بيني وبينهم رحم ، وشاء الله ان تأتي ظروف تجعلني أسيء اليهم بنظرهم وقد كنت اسأل الله ان يتيح لي الفرصة التي تمكنني من فعل الجميل معهم وبذل الإحسان والمعروف لهم لعلي امحو أثر ما يتوهمونه من الخطيئة التي اقترفتها ، والآن

قد يسر الله لي السبيل الذي يجعلني افعل معهم ما استطعت من الخير » .

فأجابه رفقاؤه وقالوا : « ماذا تقصد ان تفعله الآن ؟ » قال : اريد ان اشتري منكم جميع ما غنمتموه من هؤلاء الأسرى على ان يمهلني كل فرد منكم الثمن الذي يستحقه الى ان نعود سوياً الى اهلنا . وقد كان جواب قومه مفعماً بالمروءة والكرم حيث قالوا : « بل نهب جميع غنائمنا لك وانت تفعل بها ما تشاء » وكان هذا جوابهم اجمعين ، عدا فرد منهم فإنه أبى ان يهب سهمه ، وكان نصيبه ذلولاً من انجب رواحل المأسورين ، وهذا الشخص ليس من عشيرة غريب الأقربين كبقية قومه ولكن غريباً ورفقاؤه استطاعوا ان يؤثروا عليه بشتى الأسباب حتى اقنعوه وترك الذلول الغريب، وبعد ان جمع غريب كل ما اغتنمه هو وقومه من اصهاره، عند ذلك سلمه لهم وطلب منهم ان يصفحوا له عما سلف . وقد صفحوا له عن طيب نفس وانشراح صدر ، وعاد كل من الفريقين الى اهله .هذا وقد عثرت على بيتين لغريب يتغزل بهما بمعشوقته وديدة التي اصبحت الآن أم اولاده ، والبيتان يفهم من معناهما ان الشاعر قالهما في أيام عشقه الأول لوديدة أي قبل ان يتمكن من اختطافها من اهلها ، لهذا تراه يقول :

(١) « هَلاَ هَلاَ فيك يا ضْحَيَّةْ

يَا لَيتْ أَخيَّتْكِ مِنْ حَيّي [١] »

(١) حيي : اي ليتها تكون من اسرتي

يحيي ويرحب ترحيبـــاً مكرراً لـ «ضحية» وضحية هي اخت معشوقته الصغرى، فهو يؤكد ترحيبه ويكرر سلامه عليها تقديراً لأختها وديدة، ويقول أتمنى ان اختك وديدة من اسرتي حتى يكون زواجي منها شيئاً متيسراً .

(٢) وِدِّي وِدِيْــدَه إِشْلاقِيَّة [١]

وِدِّي وَلاَ الْــوِدّ مِتْهِيِّي [٢]

في هذا البيت الثاني يشرح لنـــا بوضوح معنى البيت الذي قبله فيقول : أتمنى ان وديده تكون من عصبتي القريبة، ولكن يقول : ما كل ما يتمناه الإنسان بهذه الحياة الفانية يمكنه الوصول اليه، وهـــذا البيت لغريب فيه من المعنى ما هو منسجم مع قول أبي الطيب المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

(١) شلاقية، يقصد فخذ قبيلته الآدنى المدعو بالشلقان

(٢) متهيي، اي متيسر .

القصة مشهورة .

الحب لا يعقل ولا يرحم

حادثة جديرة ان تسترعي انتباه القارىء
وتذكرنا بالعشق العربي البريء النزيه السليم الصادق

ولئن كان فيها من الروعة والدهشة ما يثير اعجـــاب القارىء في بدايتها فانهـــا تخلق في نفس ذي الشعور الرقيق والاحساس الوهيف والعاطفة اللينة أثراً عميقاً في نهايتها .

ثمة فتاة من قبيلة شمر تدعى (بالعفري) [١] ابنة (مغير بن زويمل) حسب ما نعتها لي راوي الحادثة [٢] وشخصها التشخيص الشامل لجمالها وحيويتها واعتدال قوامها الفاتن وجمال عينيها الساحرتين ، جعلني اتصور بأن الشاعر العربي كأنه ينعتها حينما قال :

« حجازية العينين نجدية الحشا   عراقية الأطراف شامية الدم »

ان هذا البيت جدير ان يكون منسجماً وملائماً لها اكمل الملاءمة .

هكذا كانت صاحبة الترجمة . فكان من المنتظر ان يكون هذا الجمال الفاتن المغري مدعاة لتنافس الشباب عليها ومحطاً لأنظارهم لا سيا أبناء

(١) العفري هو اسم محرف من اسماء الغزال ، فالذكر يقـــال له الأعفر ، والأنثى يقال لها العفراء .

(٢) راوي القصة هو حاشم اللاحقي من نفس قبيلة الفتاة .

عمها الذين هم احق بنكاحها . ولكنه حسب العرف المتبع لا يمكن ان يخطبها احد ما دام يوجد لها ابن عم شقيق ، فان لم يكن فالأقرب من أبناء عمها .

ولن تستطيع الزواج من اجنبي إلا باذن منهم . وان زوّجها ابوها دون رضاهم يصبح مهدداً منهم بالعقاب لا محالة .

وقد كان للفتاة الفاتنة ابنا عم وهما اقرب ما يكون لها ، فهي بحكم العادات ، زوجة لأحدهما لا محالة وهما « فهد السراي بن زويمل » وأخوه « محمد » ، كل فرد منهما شجاع ورئيس لفخذه وعلى جانب كبير من جمال الرجال . وهما في شرخ الشباب آنذاك ، وقد توفرت فيهما جميع الشروط التي تريدها الفتاة العربية من بعلها . ولم يخطر ببال احدهما او ببال احد من عربهما ان ترفض (العفري) القران بواحد منهما ، ولئن كان من المعقول ان ترفض القران بمحمد فانه ليس من المعقول ابداً ان لا تقبل (فهداً) لها بعلاً ، إذ أن فهداً مثال في الرجولة والشهامة والمظهر الحسن ايضاً الذي كثيراً ما يغري الفتيات ، ولا سيما المتحضرات منهن ، أما الأعرابية فقلما تعشق الرجل لمظهره او لماله وانما لمركزه الاجتماعي بين قومه .

وبالرغم من المزايا المتوفرة بفهد اولاً وبأخيه ثانياً فإن (العفري) لم تقبلهما ، ومن الأصول المتبعة ان ابن العم ، اذا رفضت ابنة عمه الزواج

منه ، فإنه لا يرغمها على نفسه ، خاصة اذا كان ابن العم ذا شمم وأنفة ، فإنه لا يقبل النكاح من فتاة تعلن رأيها بصراحة بعدم قبولها إياه ، ولكن حسب التقاليد ، يكون عندهم لابن العم الحق ألا تتزوج هذه الفتاة إلا برضاه ، وابن العم اذا اشتبه أن ابنة عمه تعشق شخصاً آخر هناك له أن يصرح بأن لها الحق أن تتزوج بمن تشاء إلا فلاناً ، أي الشخص المتهم بغرامها بـــه ، وذلك نكاية بها .

وقد كان (فهد) وأخوه من ذوى الشهامة حيث تركا ابنة عمها بدون ان يجبرها احد منهما على الزواج ، ولكن الذي اخلف ظنون ولدي عمها بل عشيرتها جمعاء انه لا يعلم ذكر ولا انثى ان لها خطيباً تهواه ، فقضت الفتاة مدة وهي على هذه الحالة ، وكل فتى معجب بفتوته يحاول ان تمنحه لحظة من اللحظات العـــابرة ، عله يحدث نفسه بخطبتها ، ولكن كانت محاولات فتيان عربها ضرباً من العبث .

حارت القبيلة بأسرها في أمر الفتاة ، ولما كانت الأم هي اقرب الناس الى ابنتها ، وهي اجدر من تفشي اليها سرها ومكنون فؤادها ، فقد ذهبت الام تستنطق الفتاة تارة ، وتارة تسبر غورها لتنظر من هو الذي تميل عواطفها وشعورها نحوه من الفتيان ، لقد كانت الأم شديدة الحرص على أن تعرف خطيب ابنتها ، ولكن أعياها الأمر بعد التعب الشديد .

ظلت العفري ثماني سنوات على هـذه الحال . وهناك شاعت شائعـة خفية تفيد أن العفري نظرت تتحدث مع شاب يدعى « هطيل[1] بن مشاري بن زويمل » والذي شاهد هذا المنظر هو (مرعيد) أخو هطيل .

وقبل كل شيء يجب أن نسأل عن هطيل من الناحية الاجتماعية والمادية ومن ناحية المظهر ايضاً ، اما الناحية الاجتماعية والمادية فهو شاب خامل الذكر فقير الحال لايملك من المال الا مايحصل عليه من عمه الذي يسرح بإبله فيقبض أجراً زهيداً مقابل حراسته لها ؛ وهي أجرة سنوية . هـذا من الناحية الاجتماعية والمادية ، أما من ناحيـة خلقته فحسبك ما روي لي (حاشم) أنه فتى قصير القامة ، دميم الخلقة قبيح السحنة ، مجعد الوجه . ولهذا السبب لم يخطر ببال أخيه (مرعيد) أن حديثه مع ملكة جمـال عربها وراءه ما وراءه من العشق والغرام ، هذا لا يمكن أن يتصوره مرعيد لأنه يعلم أن أخاه أحقر من أن تقبله « العفري » بعلا لها فهي ترفض أبطال قبيلتها وصناديدهم وأثرياءهم ، فكيف تقبل هطيلا الصعـلوك القبيح؟ ولكن هذا لا يمنع مرعيداً أن يسأل أخاه عن أسباب وقوفه مع (العفري) سأل (مرعيد) أخاه فلم يجبه فألح عليه ثانية فلم يجب بحرف واحد

(١) هطيل من ابناء عمها البعيدين وليس له من الحق ما يخوله النكاح من الفتاة ما لأبني عمها الاقربين (فهد ، ومحمد) وذلك حسب قوانينهم المتبعة ،

وانما دموع عينه كانت أسرع اجابة من حديثه وأفصح نطقاً من لسانه ؛ حاول الفتى أن يخفي عبراته ولكن عينيه خانتاه وفضحتا أمره.

انصرف أخوه عنه وهو يسخر من عقلية أخيه الذي يعشق فتاة رفضت الزواج من خيرة شباب عربها كلهم

أما الفتى هطيل فقد أدرك أن أخاه سينتقده ويستخف به ولكنه كان واثقاً بأن الفتاة زاهدة في كل بني البشر إلا فيه.

لهذا اضطر هطيل الى أن يشرح لأخيه حقيقة الأمر ، ويؤكد له أن « العفري » لا تريد من بني الانسان سواه ويوضح له أن بينه وبين الفتاة محبة راسخة منذ نعومة اظفارهما ، وانها قد اعطته عهداً ألا تقبل بعلاً في الدنيا سواه ، كما انه اعطاها عهداً من نوعه . وفعلاً ابلغ اخاه هذا الأمر وشرحه له بوضوح.

استغرب « مرعيد » هذا الخبر الذي هو أشبه ما يكون بالخيال والحلم ، غير أن اخاه يحدثه بلهجة الصدوق الواثق من نفسه . ولهجة الصدق لها طابع خاص تعرف به ولو كان هذا الصدق فيه شيء من الغرابة .

ذهب « مرعيد » الى ابني عم الفتاة الأدنين وطلبها منهما لأخيه فأجابا بالموافقة دون أن يبديا أدني تردد لاعتقادهما ان ابنة عمهما التي رفضت النكاح منهما وممن يضارعهما ليس من المعقول أن تقبل « بهطيل » ذلك الفتى

الحقير في خلقته ، الفقير بماله، الخامل الذكر في مجتمعه ، هـــذا ليس من المعقول من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يريان مانعاً من نكاحها من مثل هطيل فيما اذا صح المستحيل ورضيت « العفري » بهطيل قريناً لها . فمثل هطيل لا يجعلهما يحسدانه عليها ، لاعتقادهما انه ليس ممن يحسد على أمر من أمور الحياة ، لهذا وهباها له عن طيب نفس فلم يبق الآن غير قبول الفتاة .

ذهبت الأم الى الفتاة لتأخذ رأيها بهطيل فسألتها الأم وهي مستبعدة كل الاستبعاد قبول ابنتها قائلة : أي بنيتي لقـــد خطبك مرعيد لأخيه هطيل وقد رضي ابنا عمك بذلك وسمحا فهل تقبلينه ؟؟ تكلمها الأم بهذه الكلمات وهي تضحك ضحك الساخر المتعجب .

الفتاة : ولن أقبل في الدنيا بعلاً سواه .

الأم : ويحك أتقبلين هطيـــلاً الفتى الصعلوك الدميم الخامل وترفضين ابني عمك فهداً ومحمداً اللذين هما أجمل منه خلقة وأنبه صيتاً واكثر مالاً ؟

الفتاة : ان القضية قضية مودة يضعهـــا الله في القلب كيف يشاء وليست هي باختيار الأم والأب ولا باختياري وإنما هي قوة خارقة فوق طاقة العقل وحرية الاختيار .

الأم : هذا شيء يا بنيتي لا يخفى علي وإنما ابدي رأيي لك بأن تتريثي

لعل نفسك تنصرف عنه الى من هو أوسم منه خلقة وأنبـــه ذكراً وأوفر مـــالاً ، لأن « هطيلاً » هذا لا اعتقد ان بين رجال العشيرة اقبح منه خلقة ولا أفرغ منه يداً ولا اخمل منه ذكراً .

الفتاة : اسمحي لي يا والدتي ان اجيبك على كل جمـــلة من حديثك هذا .

الأم : تفضلي وهاتي ما عندك .

الفتاة : « أما قولك اصبري وتأني لعل نفسك تنصرف عنه إلى من هو أوسم منه خلقة وأنبه ذكراً وأوفر مالاً الخ .. فإني أؤكد لك أنني منذ بلغت الرابعة عشر من العمر حتى الآن حيث بلغت اثنين وعشرين عامـــاً ومودة « هطيل » لا تزال تنمو في نفسي وتغرس جذورها في مهجتي ولا زال عقلي من ذلك العهد يجاهد نفسي على أن أقلع عن مودته وانصرف إلى من هو أوسم منه وأثرى وأعلى شأناً كما تشيرين يا أم ، ولكن هيهات لقد أعياني ذلك . إذ أن الهوى له سلطان فوق نواميس الطبيعة فهو لا يعقل ولا يرحم هذا من ناحية[1] ، والناحية الاخرى يا والدتي يجب الا تجهـــلي أن الفتاة الحرة لا تنخدع بالفتى بمظهره وترضاه زوجاً من أجل وسامته وكثرة مـــاله

(١) منطق هذه الفتاة ينطبق وقول الشاعر البارودي .

وما الحب الا حاكم غير عادل	اذا رام أمراً لم يجد من يصده
له من لفيف الغيد جيش ملاحة	تغير على مثوى الضمائر جنده

إذ ان الوسامة والجمال للمرأة لا للرجل . أما الرجل فجماله عمله . واما وفرة المال فهذا عارض ربما يذهب عنـــد ادنى حادثة من حوادث الدهر المفاجئة» .

الأم : ولم اجبتني على بعض جملي وتجاهلت الأجابـــة على ناحية رئيسية من النواحي الـــتي تتوق إليها نفسية الفتـــاة العربية وهي ظاهرة من الظواهر الايجابية ولا اعلم هل تجهلينها ام انك اهملت الاجابة عنها لعلمك ان معشوقك عار منها ؟

الفتاة : ما هي هذه الظاهرة التي تشيرين اليهـــا؟

الأم : اعني نباهة الصيت وعلو الشأن في المجتمع فـــإن هطيلا محروم منها ولا وزن له بين قومه وليس له ماض جميل يعرف ويقدر به ·

الفتاة : يجب ان تعلمي يا والدتي انـ هطيلا لازال فتى والمستقبل فسيح امامه ، ولا يمكن ان نحكم عليه بشيء من الأمور الحيوية التي تبرز بها اخلاق الرجال إلا بعد ان تفاجئه الحوادث والملمات ، فاذا خاض معركة او جابهته ملمة ولم تبرز رجولته وكفاءته عند ذلك يحق لك ان تـلوميني ان رغبته لي زوجاً ، وما دمت ترين ان مواهبه كامنة ولم تأت الحادثة الـــتي تكشف عن مواهبه الغطاء فليس لك حق ان تذميه الا بعد التجربة[1] .

(١) كأن الفتاة تقصد ما اشار اليه المعري بقوله :

وقد يخمل الانسان في عنفوانه ... وينبه من بعد النهى فيسود

الام : بارك الله لك فيه، والأيام بيننا ، وسننتظر هطيلا عسى ان يكون مستقبله أحسن من حاضره .

الفتاة : هذا ما اظنه و اعتقده ولو لا أملي الطيب فيه لمـــا رضيته لنفسي قريناً

بعد ذلك ذهبت الأم الى ابني عم الفتاة ، واخبرتهما بما تم بينها و بين ابنتها من الكلام ، وما انتهى الأمر اليه ، وفي مساء الغد عقد نكاح هطيل على معشوقته العفري وتم قرانهما في مساء ١٥ رمضان عام ١٣٣٣ هـ ومضت ليألي رمضان الباقية من الشهر ، و الزوجان في اكمل ما يكون من السعادة والزهو والسرور ، ولم يبق في نفس هطيل وقرينته العفري من الأمنيات إلا شيء واحـــد هو أن يقدر الله حادثة عظيمة حتى يتمكن هطيلُ من ابراز مواهبه المكبوتة لكي تكون له مكانة مرموقة في مجتمعه. ولتقنع به حليلته القناعة الكاملة .

وفي اول يوم من صباح عيد الفطر اتيحت له الفرصة المناسبة التي يحلم الزوجان بها ، وذلك أن غزاة من قبيلة مطير قدصبت غارتها على عرب الزوجين برئاسة أحد رؤساء القبيلة المدعو (مدباج أبو شويربات)، وقـــد كانت المعركه في موضع يدعى « الرديفة » . لقد سرّ هطيل وقرينته بهؤلاء الغزاة الذين هجموا على عربه في عقر بيوتهم ، وسيكون القتال الآن امام

النساء والرجال ، وهذا هو أقصى أمنية الزوجين ، وخاصة الفتى هطيل الذي تهلل وجهه طرباً وسروراً • لماذا ؟؟ ليقاتل قتال الأبطال وليبدي شجاعة خارقة كي يمحو عن نفسه آثار الخمول والانزواء اللذين مصدرهما الجبن ، لأنه يرى رجال قبيلته ونساءها يغمزونه ويلمزونه به بل ويزدرونه ويحتقرونه ويرون انه ليس بأهل ان تعشقه فتاة تعتبر من أنبل فتيات القبيلة لا بجمالها الساحر الفاتن فحسب بل برزانتها وعفتها وعراقة حسبها واصالة نسبها •

ان احساس الفتى وشعوره بهذا النقص ، خلق في نفسه باعثاً قوياً نحو الطموح وذيوع الصيت ليكون انساناً بارز الشخصية في الحيـــاة أو يموت فيريح نفسه من استهتار رجال قبيلته[1] به ، والشيء الذي هو أدهى عنده وأمر ، ذلك انه يعتقد جازماً ان قرينته العفري التي عشقته وطمحت له بالأمس سوف تعزف نفسها عنه فيما اذا خاض المعركة ولم يظهر بســـالة خارقة ، لقد وثق هطيل بأن معشوقته ستنشز عنه وتستبدل به من هو أنجب منه وانبل من فتيان عشيرتها ان لم يحقق ظنها به .

(١) كأني بنفسه الطامحة تحدثه بقول البارودي :

على مَ يعش المرء في الدهر خاملًا   أيفرح في الدنيــا بيوم يعده؟
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته   أضر عليه من حمـــام يؤده

كل هذه العوامل الحية خلقت في نفس الفتى دافعاً جعله يقرر مصيره الذي اشار اليه أبو الطيب المتنبي بقوله :

اذا لم تجد مايبتر الفقر جالساً ... فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان ثروة أو منية ... لعلك ان تبقي بواحدة ذكرا

وعندما انهالت الغارة على أهل الفتى ، اختطف بندقيته مسرعاً ثم نادى قرينته قائلاً : « اليوم يا ابنة العم سوف ترين من ابن عمك العمل الذي سيجعلك مرفوعة الرأس ، وناصعة الجبين بين رجال عشيرتك ونسائها ، هذا إن أسعدني الجد ونجوت من عاقبة هذه المعركة التي سأكون بطلها الفذ أو ألاقي حتفي فيها » .

كأنه يقصد ما أشار إليه علي بن مقرب الأحسائي :

فإما حياة لا تُذَمُّ ، حميدة ... يُحَدِّث عنها من أغار وأنجدا
أنال المنى فيها ، وإلا منيَّة ... تريح فؤاداً أجّ[1] من علة الصدا

اغرورقت عينا الفتاة ثم اجابته بهذه الجملة ودمعها كالسيل المنهمر : « ان هذا هو ما اعتقده فيك ولولا أملي الوطيد بفتوتك وايماني الراسخ برجولتك وشجاعتك لما اخترتك على فتيان القبيلة بأسرها » . ثم دنا منها الفتى بعد

(١) أجّ : مأخوذ من أجيج النار ، على ما ورد في شرح الديوان

هذا الحديث فقبلها فضمته إلى صدرهـــا بشغف فكادت أن تتحطم ضلوعهما من شدة دوافع المودة والحب ، ثم قالت له : « ارجو ان لايكون هذا آخر العهد بك يا قرة العين » فأجابها الفتى : « لا يهمني ان تكون هذه الساعة هي آخر العهد أو لا تكون ، وانما الذي يهمني هو أن ثغراً قبلته لا يقبله ذكر من بعدي » فأجابته الفتاة : وهي تكفكف الدمع قائلة : « ثق واطمئن ان حياتي مرهونة بحياتك ولئن قدر الله شيئاً فلن أحيا بالدنيا بعدك ساعة واحدة » الفتى : هذا هو ما أظنه بك واعتقد.

ثم انطلق الفتى نحو العدو وقرينته على اثره تزغرد له وكأنها تسقيه كأساً من الخمر فازداد اندفاعاً وشجاعة من سماعه لصوت محبوبته المعسول، وما ان حمي الوطيس واشتدت الهيجا، إلا وهطيل من أبطال المعركة المغاوير المهاجمين ، بل كان في طليعة المناضلين والمحمسين لقومه فاتجهت بنادق العدو نحوه ، فأصيب بسهم خرق قلبه ، فكان أول قتيل من قومه وكان مصرعه رحمه الله في صباح عيد الفطر عام ١٣٣٣ هـ [1] وكان بالقرب من

---

(١) هذه الحادثة الوحيدة التي استطعت ان اعرف تاريخ اليوم الذي وقعت فيه والسبب ان راوي القصة الذي هو حاشم اللاحقي اكدلي انها حدثت في نفس العام الذي وقعت فيه معركة جراب المشهور لدينا تاريخها كما انه اكد ان زواجها كان في الخامس عشر من شهر رمضان وكان مصرع الزوج وانتحار الفتاة في صباح عيد الفطر ولهذا كان الأمر علي متيسراً بسبب علمي بتاريخ معركة جراب الواقعة في ٧ ربيــع الاول سنة ١٣٣٣ هـ .

منازل عربه ، وحالمـــا صرع أتته قرينته « العفري » فطرحت نفسها على جثمانه وشبكت يديها من وراء ظهره حيث اصيبت بذهول افقدها رشدها ، وبقي الزوجان متشابكين كالجسد الواحد .

هذا والوطيس حام بين الغازي والمغزو ، وقومهـــما في شغل شاغل عنهما . وبعد ان انتهت المعركة عاد رجال القبيلة فاطلقوا يدي الفتاة من بعلها المقتول ، وحفروا له قبراً ليواروه فيه ، هناك هجمت الفتاة على حفرة القبر وناشدتهم بالله ان يفسحوا حفرة القبر ليواروها فيه مع قرينها المقتول ، فلم تجد من يجيب لها النداء فأكدت لهم بأنها ميتة لا محالة وانها لن تبقى ساعة بعده .

كل هذا الحديث من الفتاة كان كالهذيان بنظر رجال الحيّ ونسائه ، فلما رأت ان لا مجيب لندائها ، عند ذلك خاطبتهم ثانية قائلة : اذن احفروا قبراً لي بجواره وليكن قريباً منه جنباً لجنب . فلم تجد ايضـــاً مجيباً ولا سامعاً فتركت القوم يعتنون بقبر المقتول وذهبت الى بيت أمهـا تنقب عن « سم » (١) موضوع في قلب صرة تعلم جيداً مكانه الذي وضع فيه فلمـــا وجدته ابتلعته ، وحالما جرعته تغلغل في جسمها ، فشعر عربها بأمرها ،

(١) لا يخلو بيت أي عربي من البادية من السم لأن فيه علاجاً جيداً لمرض الجرب الذي يصيب الابل دائماً .

وقد كان العرب يستعملون علاجاً عربياً للسم وهو صوف يسل ويسقى المسموم ماءه ، وحالما يشرب المسموم هذا الماء يخرج من جوفه قيء فيهون المرض بخروج هذا القيء الذي يكون السم خارجاً به .

يقول لي راوي الحادثة حاشم اللاحقي الذي هو من العشيرة نفسها والمتصل بأهل الفتاة اتصالاً مباشراً : انه بعد مضي يومين من وقوع الحادثة أتى عشيرته فوجدهم بحزن من أثرها المفجع ، وأكد لي حاشم ان الفتاة عندما أراد اهلها ان يسقوها ماء الصوف كعلاج لها ، أبت ورفضت ان تشربه وقد وضعت يدها على فيها وعضت على اسنانها تحـــاول ألا تدخل قطرة من العلاج الى جوفها .

كانت تفعل ذلك وهي في غرغرة الموت حتى توفاها الله ، وفي اللحظة التي انتهي من مواراة قبر قرينها فاضت روحها فحفر قبرها بجانبه ودفنت بجواره فوراً . كما وعدت قومها واكدت لهم بأن هذا هو مصيرها النهائي .

كانت هذه الحادثة راسخاً اصلها في ذهني من سنين عديدة ولكـني نسيت تفاصيلها وفروعها ، ومن عاداتي التي سرت عليها في كتابي هذه ألا أضع قصة حتى اكون متقناً لها من الناحية التاريخية ، ومن ناحية صحتها التي هي الاساس عندي ، وكذلك من ناحية تفاصيلها وكنت اذكر أن خير من يفيدني عن هذه القصة بصورة واضحة شخص من قبيلة شمر ومن

الفخذ الموالي لأسرة الفتاة ، وهو آنف الذكر حاشم اللاحقي[1] . وفي تاريخ ١٨ صفر ١٣٧٥ هـ ذهبت الى بيروت على سبيل المصادفة فوجدت « مِشَلّ التمياط »[2] مريضاً في مستشفى الجامعة الاميركية فسألته عن الحادثة فلم أجد عنده لها تفاصيل كافية فسألته عن حاشم أين هو ؟ لعلمي أنه ملم بالقصة فأفادني ان الرجل في بيروت قدم للعلاج من مدة قريبة فقلت في نفسي ، انها مناسبة ازور بها الشخص وأعوده فان وجدته معافى ووجدت لديه استعداداً للبحث بحثت معه والا اكتفيت بالعيادة وزرته فيما بعد في فرصة تكون أنسب من هذه الفرصة ، فذهبت اليه فوجدته قد شفاه الله نسبياً وتبادلنا الحديث حتى وصل البحث الى الغاية التي استهدفها ، فشرح لي القصة كما أوردتها آنفاً ووجدت نفسي لم أزد عن جوهرها الأساسي ولم انقص شيئاً عن أصلها ، اللهم إلا أن البحوث التي دارت بين الفتاة وامها عند الخطبة ، وكذلك البحث النهائي بين الزوجين عندما كان الفتى عازماً على لقائه

---

(١) شخص صدوق وثقة وميزته التي برز بها هي المهارة والخبرة بمعرفة ودلالة الصحراء ، فهو خبير بهذه الناحية خبرة قل أن يضارعه فيها أحد . وقد استعمله الملك المغفور له عبد العزيز عندما افتتح طريقاً للسيارات من جهة نجد الشمالية وهو الآن من خواص الأمير محمد بن عبد العزيز ، وحالياً أصيب بشلل خفيف ألم به وهو على وشك أن يبرأ منه . وحتى كتابة هذه الأحرف وهو مقيم في بيروت من أجل العلاج.

(٢) مشل رئيس فخذ يدعى (التومان) من قبيلة شمر .

للعدو باقدام وبطولة أقول : ربمـــا شرحت معنى حديثهما الشعبي الذي دار بينهما كما أني عادة اشرح معنى الشعر الشعبي وذلك بدون أن اخرج عن جوهر المعنى الأساسي .

قلب فارس في جسم فتاة

قصة (طـخـة ابنة ابن عزيز [1]) وقعت على وجه التقريب بين عامي ١٣٠٠ — ١٣٠٥هـ

كان الاجدر بهذه القصة أن تكون بعد قصة كنعان الطيار مع بنت عدوان بن طوالة مباشرة . ليكون ذلك أنسب لسياق القصة من ناحيـــة تسلسلها من الوجهة التاريخية وهذا هو السبيل الذي انتهجته في كتابي هذا وحيث أن قصتنا هذه لم استفسر عن تفاصيلها إلا مؤخراً لهذا السبب جاءت اخيراً .

لقد كنت اعرف كنه القصة من حيث صحتها وانما نسيت اسم زوجها ، لهذا ما استسغت أن أضعها في كتابي حتى اكون ملما بها من شتى الوجوه ، وقد سألت غير واحد ممن أظن أن له علماً في القصة ، ولكنني لم اوفق رغم ما بذلته من الجهد ، وفي تاريـــخ ٢٨ ـ ٦ ـ ١٣٧٥ سنحت لي فرصة الاتصال

(١) ابن عزيز شيخ عشيرة البعيج في العراق

بالأخ « عبد الله المشاري ابن سعدون » [1] حيث افادني مفصلا بصفته ممن يعرف القصة بحكم صلته المباشرة باصحابها ، فجاءت روايته متممة لمعلوماتي السابقة . التي أوافي بها القاريء بما يلي :

كان ابن عزيز رجلا لم يهبه الله ذرية وفي منتصف حياته رزق بنتاً فحدثته نفسه أن يربيها تربية خشنة علها تقوم عنده بالعبء الذي يقوم به الفتى ، وعلى أساس هذا التفكير ذهب يتولى العناية بها والتوجيه بنفسه فعلمها ركوب الخيل والرماية وعموم الأمور الحيوية التي هي من اختصاص الرجل الفارس ، ولم تبلغ الفتاة الحلم حتى كان لديها من الاستعداد ما يؤهلها لأي عمل يقوم به أشجع الفتيان وأبسلهم ، ولم يقف بوالدهـــا الحد ان يوجهها توجيهاً خشناً سلبياً ، بل رأى ان يمتحن فتاته بالأعمال الحربية ، فغزت بمعيته مرة فأبدت بطولة خارقة ، واخيراً بلغت الفتاة من البطولة حداً جعل الرعب يدخل قلوب الأبطال المعادين لأبيها .فسار بخبر بطولتها الركبان وبعد أن كان اسمها « طخة » اصبحت تدعى طخّاخاً [1] ولا زالت هيبة « طخاخ » في قلوب الفرسان تنمو وشهرته تزداد الى ان بلـ ت الذروة

(١) عبد الله من السعدون الذين هم رؤساء قبيلة المنتفق في العراق وهو الآن يقيم في مدينة الرياض وكان اجتماعي به في مدينة دمشق .

(١) أي ضرّاب .

القصوى واعتبر طخاخ من افذاذ الفرسان البارزين .

وشاء الله ان يتوفي والد طخاخ ويتولى من بعده رئاسة عشيرته ، ويكون له من الوقـــار وقوة الشخصية وهيبـــة الأعداء لجانبه ما يفوق والده .

لقد طالت الأيام على صاحب الترجمة وهو على هذه الحالة .

وآخر الأمر فرغ صبر طخاخ وظل في حيرة من نفسه التي ينازعهـا عاملان متباينان ، عامل اكتسابي وعامل طبيعي . فالأول يحدوه إلى ان يبقى على مـــا هو عليه باسم الفتى طخاخ الذي ارهب الفرسان ببطولته وساد العشيرة بقوة شخصيته ، ويكتفي من الدنيا بمـــا تمتع به نفسه من لذات المجد وذيوع الصيت ومظهر الفارس المرهوب ومحبة الزعامة والنفوذ، وهذه الأمور الحيوية لا شك أن فيها لذة للنفس التي تذوقت طعم المجد ، ولكن طخاخاً يرى أنه رغم ما في هذه المعاني المجيدة من لذه ممتعة ، فإنها لذة مجازية لأنه لا يصل اليها إلا بشيء من التكالف الذي يخالف ما فطرت عليه نفسه من سجية أساسية راسخة في جوهره الطبيعي ، وعلى هـــذا الأساس سينقاد مرغماً لقول المتنبي :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً . تكلف شيء في طباعك ضده

إذن فهو مضطر أن يلبّي صوت العامل الثاني الذي ينـــاديه ويأمره

بالتمتع باللذة التي هي شيء طبيعي بالنسبة اليه ، بل اليها الآن، لأنها ستعود منقادة لهذا الأمر الواقعي، وقد قررت ألا تجـــابه الحقيقة بل ترجع الى اساسها الطبيعي ، ذلك أن دافع لذة الغريزة الجنسية كان اقوى من الدافع الأسبق ، فالأول فيه تكلف وعناء ، أمـــا الأخير فهو شيء طبيعي لا تكلف فيه .

وعلى هـــذا الاعتبار اصبح طخاخ مضطراً ليعود الى اساسه الأسبق فتكون طخة [١] الفتاة ، فاذا عادت الى أنوثتها ملزمة على ان تنقب عن زوج ينكحها ، ولكنهـــا لن ترضى أن يتزوجها بعل إلا بعد أن تؤمن ببطولته ، ولا يكفيها إيمان السماع به والشهرة ، بل يجب أن ترى ما يبديه من بطولة رؤية العين ، ولا يهمها سواء كان هذا الفارس من الأعداء أم الأصدقاء ؟

هذا وقد شاع هذا الخبر عند الفرسان فحرص كل فارس من فرسان أعدائها وأصدقائها أن يبدي امامها بطولة خارقة لعلها تهواه وترضاه لهـــا بعلاً . ومصادفة وقع بين عشيرتها وبين قوم يقال لهم (القشعم [١]) معركة دامية، فكانت النتيجة ان تصادمت صاحبة الترجمة هي وفارس من أبطال

(١) كلمة (طـَخّ) في اللغة الشعبية هي بمعنى (ضرب) فطخّاخ بمعنى ضرّا

(٢) القشعم فخذ من الجعفر المتفرع من قبيلة شمر .

المعركة يدعى (جاسر بن قشعم) ولا أعلم أيهما الذي استولى على صاحبه[1]
والمقصود أنها اعجبت بالشجاعة التي ابداها جاسر ، وعلى أثر هذه البطولة
التي رأتها منه ، طاب لها ان ينكحها جاسر فخطبها او هي خطبته ، وتم
القران بينهما ، ورجعت طخة الى ما خلقت له وانجبت من جاسر بنين منهم
عقل الذي لا زال موجوداً في الرياض وهو يناهز الستين من العمر .

وسمعت ان احد ابنائها غضبت عليه عندما كان صغيراً فضربته
ضربة اودت بحياته . فكأنها متأثرة بنزعتها الأساسية ، لهذا تضاءل عندها
عطف الأم وحنانها على ابنائها .

---

(١) من مدة عشر سنوات سبق لي ان اجتمعت مع عقل بن قشعم الذي هو
ابن للزوجين . وأغلب ظني انه قال ان والدته هي التي طرحت والده . اما الرواية
التي تلقيتها من ابن سعدون تفيد ان كلا منهما طرح صاحبه ارضاً .

رجاء .. وشكر

انتهت طباعة الجزء الاول الأولى في العاشر من شهر رجب عام ١٣٧٥ ﻫ ٢٢ شباط عام ١٩٥٦ م ، وانتهى طبعه للمرة الثانية في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٣ (ايلول سنة ١٩٦٣ م) ويليه الجزء الثاني الذي سيصدر قريباً بحول الله ، وهو تحتوي على فصول لا تقل فائدتها عما في هذا الجزء منها : حماية الجار واكرامه ، والوفاء مع الرفيق ، واكرام الضيف ، واصطناع المعروف والمكافأة عليه ، والشجاعة العقلية والأدبية والحربية ، والصبر على حوادث الدهر ، وبر الوالدين ، وتنبؤات العقلاء . وربما نختم بقيته بفصل يحتوي على حوادث متنوعة .

هذا وإني اكرر ثانية ما جاء في المقدمة من الجملة التى رجوت بها القارىء الكريم الصفح عما يبدو من الغلطات المطبعية او الأخرى التي سبق القلم بها وفاتني استدراكه .

ولا يفوتني أن أشير ــ شاكراً ومُقَدِّراً ــ إلى ما قابل به الأدباء

والباحثون ، وجمهور القراء ـــ الجزْءَ الأُوَّلَ عند صدوره من عنـــاية واهتمام وتقدير، بدت آثار ذلك فيما نشره كثير منهم في الصحف من تقريظ؛ ونقد نزيه، وتوجيه ينبيء عن تقدير صادق، ولقد تَمَنَّيْتُ أَن يكون المجال مُتَّسِعاً لتسجيل كل ذلك، إلا أَنني وإن فاتني هذا ، لا يفوتني أَن اسجل هذه الكلمة التي اعتبرها موجهة الى كل واحد من اؤلئك ، معبّرة عن عميق شكري ، واعترافي بفضلهم، والله أسأل أَن يلهمنا الصواب . ويهدينـــا سواءَ السبيل.

الفهـــرس